خطبة الكتاب

بِسم اللَّه الرَّحمن الرحيم

وبه ثقتي

الجزء الأول

جَنَّبَك اللّهُ الشُّبْهةَ، وَعصَمك من الحَيرة، وجَعلَ بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سَبَباً، وحبَّب إليك التثبُّت، وزيَّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعرَ قلبكِ عِزَّ الحقّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين وطرد عنك ذلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القِلَّة، ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ في أمرك، وأدلَّ عَلَى مقدارِ وزنك، وعلى الحال التي وضعْتَ نفسك فيها، ووسَمْتَ عرضَك بها، ورضيتها لدينِك حظّاً، ولمروءتك شِكلاً، فقد انتهى إليَّ مَيلُكَ على أبي إسحاق، وحَملُك عليه، وطعنُك على مَعْبَدٍ، وتنقّصك له في الذي كان جَرَى بينَهما في مساوي الديكِ ومحاسِنِه، وفي ذكرِ منافع الكلب ومضارِّه، والذي خرجَا إليه من استقصاءِ ذلك وجمْعِه، ومن تتبُّعِه ونظمِه، ومن الموازَنَة بينَهما، والْحُكم فيهما، ثم عبتَني بكتاب حيل اللصوص، وكتاب غِشّ الصناعات، وعبتَني بكتاب المُلَح والطُّرَف، وما حَرَّ من النوادر وبَرُد، وما عاد بارده حارًّا لفَرْط برده حتى أمتَعَ بأكثر من إمتاع الحارّ، وعبتني بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضَتِهم للسُّمَحاء، والقولِ في الفرق بين الصدق إذا كان ضارّاً في العاجل، والكذب إذا كان نافعاً في الآجِل، ولِمَ جُعل الصدقُ أبداً محموداً، والكذبُ أبداً مذموماً، والفرق بين الغَيرة وإضاعة الحُرْمة، وبين الإفراط في الحميّة والأَنَفَة، وبين التقصير في حفظ حقِّ الحرمة، وقلَّة الاكتراثِ لِسوء القالَة، وهل الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من

جهة الديانة، ولبعض التزيُّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك في طباع الحريّة، وحقيقة الجوهريَّة، ما كانت العقولُ سليمة، والآفات منفيَّة والأخلاطُ معتدلة، وعبتَني بكتاب الصُّرَحاء والهُجَناء، ومفاخرة السُّودان والحمران، وموازنة ما بين حقِّ الجئولة والعمومة، وعبتَني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرقِ ما بين الذكور والإناث، وفي أيِّ موضع يَغلبن ويفضُلْن، وفي أي موضع يكنَّ المغلوباتِ والمفضولات، ونصيب أيِّهما في الولد أوفَر، وفي أيِّ موضع يكون حقُّهنّ أوجب، وأيَّ عملٍ هو بهنَّ أليق، وأيّ صناعةٍ هنَّ فيها أبلغ،

وعبتَني بكتاب القحطانيَّة وكتاب العدنانيَّة في الردّ على القحطانية، وزعمتَ أنّي تجاوزتُ الحميَّة إلى حدِّ العصبيَّة، وأنِّي لم أصل إلى تفضيل العدنانيَّة إلا بِتنقُّص القحطانيّة، وعبتَني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أنِّي بَخَسْت الموالي حقوقَهم، كما أنِّي أعطيتُ العربَ ما ليس لهم، وعبتَني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أنّ القولَ في فرقِ ما بين العرب والعجم، هو القولُ في فرقِ ما بين الموالي والعرب، ونسبتَني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما في المُعَاد من الخَطَل، وحَمْلِ الناسِ المؤن، وعبتَني بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة العِلَّة مع اتّفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبَّاد البِدَدَة

والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشـدَّ الديّانين إلْفاً لما دانوا به، وشغفاً بِمَا تعبَّدوا لـه، وأظهَرَهـم جِـدّاً، وأشدَّهم على من خالفهم ضِغناً، وبما دانو ضِنّاً، وما الفـرق بيـن البُدِّ والـوثَن، ومـا الفَـرق بيـن الـوثَن والصـنم، ومـا الفـرق بيـن الدُّمية والجثَّة، ولِمَ صوَّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم، صُـوَرَ عظمائهم ورجالِ دعوتهم، ولم تأنَّقوا في التصوير، وتجوَّدوا فـي إقامة التركيب، وبـالغوا فـي التحسـين والتفخيـم، وكيـف كـانت أوَّليَّة تلك العبادات، وكيف اقترفت تلك النِّحـل، ومـن أيّ شـكل كانت خُدَع تلك السدنة، وكيف لـم يزالـوا أكـثرَ الأصـنافِ عـدداً، وكيف شمل ذلك المـذهب الأجنـاسَ المختلفـة، وعبتنـي بكتـاب المعادن، والقولِ في جواهرِ الأرض، وفي اختلاف أجنـاس الفِلِـزِّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسـرع الانقلاب إلـى بعضـها، ويُبطـئ عـن بعضـها، وكيـف صـار بعـض الألوان يَصبُغ ولا ينصبغ، وبعضها يَنْصبِغُ ولا يصْـبَغُ، وبعضـها يصـبغُ وينصبغ، وما القولُ في الإكسير والتلطيف، وعبتَني بكتـاب فـرق ما بين هاشمٍ وعبد شمس، وكتاب فرق ما بيـن الجـنّ والإنـس، وفرق ما بين الملائكة والجنّ، وكيف القولُ فـي معرفـة الهدهـد

واستطاعة العفريت، وفي الذي كان عنده عِلْمٌ من الكتاب، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم: كان عنده اسم اللّه الأعظم، وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القولُ في الأرزاق والإنفاقات وكيف أسباب التثمير والترقيح، وكيفَ يجتلب التجار الحُرَفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبُّب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا غشَّ الصناعات والتجارات، وكيف التسبُّب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موَّهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله، وعبتني برسائلي، وبكلّ ما كتبت به إلى إخواني وخُلَطائي، من مَزْح وجِدٍّ، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافُل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال مِيسَمه باقياً، ومديح لا يزال أثرُه نامياً ومن مُلَح تُضحِك، ومواعظَ تُبكي. وعبتَني برسائلي الهاشميّات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيَها، وتصويري لها في أحسَن صورة، وإظهاري لها في أتمِّ حلية، وزعمتَ أنّي قد خرجتُ بذلك من حدِّ المعتزلة إلى حد الزيديّة، ومن حدّ الاعتدال في التشيُّع والاقتصاد فيه، إلى حدِّ السرف والإفراط فيه، وزعمتَ أنّ مقالة الزيدية خطبة مقالةِ

الرافضَة، وأنّ مقالة الرافضة خطبة مقالـة الغاليَـة، وزعمـتَ أنّ في أصل القضيّة والذي جَرَتْ عليه العـادة، أن كـلَّ كـبير فـأوّلهُ صغير، وأنَّ كلَّ كثير فإنما هـو قليـل جُمـع مِـنْ قليـل، وأنشـدت قول الراجز:

يَلحَق الصغيرُ بالجليل وإنما القَرْمُ من الأَفِـيل
وسُحُـقُ الـنخـلِ من الـفَـسـيل

وأنشدت قول الشاعر:

كبير هاجَه صغيرٌ وفي البُحور تَغرَق البحورُ

وقلت: وقال يزيدُ بن الحكم:

بني فـإنـه بالعلم ينتفع العلـم
الأمور دقيقهـا مما يهيج له العظيم

وقلتَ : وقال الآخر:

جداً ما مزحت به رب جدٍ ساقه اللعـب

وأنشدت قول الآخر:

تنظرون بحق وردة فيكـم تقـضـي الأمـور
يبعث الأمر الكبير صغيرة حتى تظل له الدماء تصبب

وقالت كَبْشة بنت مَعْدِ يكَرِب:

بعبد الله آنـف قـومـه بني مازن أن سب راعي المحزم

وقال الآخر:

قدح القـادح وأي جدٍ بلغ المازح

وتقول العرب: العَصَا من العُصَيَّة، ولا تلد الحيَّةَ إلا حَيَّةٌ.
وعبتَ كتابي في خلْق القرآن، كما عبت كتابي في الردِّ على المشبّهة؛ وعِبْتَ كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام، كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديعِ تركيبه،

وعبتَ معارضَتي للزيدِيَّة وتفضيلي الاعتزالَ على كلِّ نِحْلة، كما عبتَ كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصارى واليهود ثمَّ عبتَ جملةَ كتبي في المعرفة والتمست تهجينَها بكلِّ حيلة، وصغَّرت من شأنها، وحطَطت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها، فعبتَ كتاب الجوابات، وكتاب المسائل، وكتابَ أصحابِ الإلهام، وكتابَ الحجَّة في تَثبيت النبوّة، وكتاب الأخبار، ثمّ عبتَ إنكاري بصيرةَ غنام المرتدِّ، وبصيرةَ كلِّ جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغُمْر، وبين استبصار المحقّ، وعبتَ كتابَ الردِّ على الجَهْمِيّة في الإدراك، وفي قولهم في الجَهْالات، وكتاب الفرقِ ما بينَ النبيّ والمتنبي، والفرق ما بينَ الحِيَل والمخاريق، وبينَ الحقائقِ الظاهرة والأعلام الباهِرة، ثمّ قصدتَ إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقير لمعانيه، فزَرَيت على نحْتِهِ وسَبكه، كما زَرَيت على معناهُ ولفظِه، ثمّ طعنتَ في الغرض الذي إليه نزعْنا، والغايةِ التي إليها قَصَدنا، على أنّه كتابٌ معناه أنبَهُ من اسمِهِ، وحقيقتهُ آنَقُ من لفظه، وهو كتابٌ يحتاجُ إليه المتوسِّط العامي، كما يحتاجُ إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الرَّيِّض كما يحتاج إليه الحاذق: أما الرّيض فللتعلُّم والدرْبة، وللترتيب والرياضة، وللتمرينِ وتمْكين العادة، إذْ كان جليلُه يتقدم دقيقه، وإذا كانت مقدِّماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزّلةً، وأما الحاذقُ فلكفايةِ المُؤنة، لأن كلَّ من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمَّهات العلم مجموعاً، كان له غُنْمه، وعلى مؤلّفه غُرمُه، وكان له نفعُه، وعلى صاحِبهِ كَدُّه، معَ تعرُّضِهِ لمطاعِنِ البُغَاةِ، ولاعتراض المنافِسِين، ومع عرْضِهِ عقلَه المكدودَ على العقولِ الفارغة، ومعانيه على الجهابِذة، وتحكيمه فيه المتأوِّلين والحسَدَة، ومتى ظَفِر بمثله صاحبُ علم، أو هجمَ عليه طالبُ فقه، وهو وادعٌ رافِه، ونَشِيط جَامٌّ، ومؤلِّفه مُتعَبٌ مكدود، فقد كُفِي مَؤُونَة جمعه وخزنِه، وطلبه وتتبُّعِه، وأغناه ذلك عن طول التفكير، واستفادِ العمر وفلِّ الحدِّ، وأدرَك أقصى حاجتِه وهو مجتمعُ القُوَّة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعَلَ هُجومه عليه من التوفيق، وظفَره به باباً من التسديد.
وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبةُ الأُمم، وتتشابَه فيه العُرْبُ والعَجَم، لأنه وإن كانَ عَرَبيًّا أعرابياً، وإسلاميًّا جماعيًّا، فقد أخَذَ من طُرَفِ الفلسفة، وجمع بين معرفةِ السماع وعلْم التجرِبة، وأشرَكَ بين علمِ الكتاب والسنة، وبينَ وِجْدان الحاسَّة، وإحساس الغريزة، ويشتهيه

الفتيان كما تشتهيه الشيُوخ، ويشتهيه الفاتِكُ كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعبُ ذو اللَّهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحَزْم، ويشتهيه الغُفْلُ كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبيُّ كما يشتهيه الفَطِن.

وعبتَني بحكاية قولِ العثْمانِيَّة والضِّرَارية، وأنت تسمعني أقول في أوَّل كتابي: وقالت العثمانية والضراريَّة، كما سمعتَني أقول: قالت الرافضة والزيدية، فحكمتَ عليَّ بالنصْب لحكايتي قول العثمانية، فهلاَّ حكمتَ عليّ بالتشيُّع لحكايتي قول الرافضة وهلا كنتُ عندَك من الغالِية لحكايتي حجج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصِبة لحكايتي قولَ الناصِبة وقد حكينا في كتابنا قولَ الإباضيَّة والصُّفْرية، كما حكينا قولَ الأزارقة والزيدية، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيَت الخارجية، وكلُّ اسمٍ سواها فإنما هو فرعٌ ونتيجةٌ، واشتقاقٌ منها، ومحمولٌ عليها، وإلاَّ كنَّا عندَك من الخارجية، كما صرنا عندَك من الضِّرَاريَّة والناصِبَة، فكيف رضيتَ بأن تكون أسرع من الشيعة، أسرع إلى إعراض الناس من الخارجية، اللهم إلا أن تكون وجدتَ حكايتي عن العثمانيَّة والضِّراريَّة أشبعَ وأجمعَ، وأتَمَّ وأحكم، وأجود صنعة، وأبعد غاية، ورأيتني قد وهَّنت حقَّ أوليائك، بقدر ما قوَّيتُ باطل أعدائك ولو كان ذلك كذلك، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك على

مـــــــــــا ادعيـــــــــــــت واضـــــــــــحا.

وعبتَنـي بكتـاب العباسـية، فهلاَّ عبتَنـي بحكايـةِ مقالِـة مَـن أبـى وجوبَ الإمامة، ومَنْ يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعمـوا أنّ تَركَ النَّاس سُدًى بلا قيِّم أردُّ عليهم، وهملاً بلا راع أربحُ لهـم، وأجدَرُ أنْ يجمع لهم ذلك بين سلامَةِ العاجل، وغنيمة الآجل، وأنَّ تركَهم نَشَراً لا نظامَ لهم، أبعد من المَفاسِـد، وأجمـعُ لهـم عَلَـى المراشد بل ليس ذلك بك، ولكنَّه بهرَك ما سمعتَ، وملأَ صـدرَك الـذي قـرأت، وأبعَلـك وأبْطَـرَك، فلـم تتّجـه للحجّـة وهـي لـك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهـي لـك باديـة، ولـم تَعـرِف بـابَ المخرج إذ جهلتَ بابَ المدخَل، ولـم تعـرِف المصـادر إذ جهلـتَ المــــــــــــــــــــــــــــــوارد.

رأيتَ أنَّ سبَّ الأولياء أشفى لـدائك، وأبلـغَ فـي شـفاء سَـقَمك، ورأيتَ أن إرسالَ اللسان أحضَرُ لَذَّةً، وأبعـدُ مـن النَّصَـب، ومـن إطالــة الفكــرة ومــن الاختلاف إلــى أربــاب هــذه الصــناعة. ولــو كنــتَ فطِنــت لعجْــزك، ووصَــلْتَ نقصَــك بتمــامِ غيــرِك، واستكفيْتَ من هـو موقـوفٌ علـى كفايـةِ مثلـك، وحَـبيسٌ علـى تقويم أشباهك كان ذلك أزينَ في العاجِـل، وأحـقَّ بالمثُوبـة فـي

الآجل، وكنتَ إنْ أخطأَتك الغنيمةُ لم تُخْطِك السلامة، وقد سَلِم عليك المخالفُ بقدر ما ابتُلي به منكَ الموافِق، وعلى أنَّه لم يُبتَل منك إلا بقْدرِ ما ألزمَته من مُؤنةِ تثقيفك، والتشاغُلِ بتقويمك، وهل كنتُ في ذلك إلاّ كما قال العربي: هَلْ يَضُرُّ السَّحابَ نَبْاحُ الكلابِ، وإلاّ كما قال الشاعر:

يَضُرُّ البحرَ أمسى زَاخِراً أَنْ رَمَى فيهِ غُلامٌ بَحجَرْ

وهل حالُنا في ذلك إلاّ كما قال الشاعر:

تغلِبَ وائلٍ أهجَوْتَها بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وكما قال حسَّانُ بنُ ثابت:

أُبالِي أنَبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ أم لَحَانِي بظهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ

وما أشكُّ أنَّكَ قد جعلت طول إعراضنَا عنك مَطِيَّةً لك، ووجَّهتَ حِلمَنا عنكَ إلى الخوف منك، وقد قال زُفَر بنُ الحارث لبعضِ مَنْ لم ير حقَّ الصفح، فجعل العفْوَ سبباً إلى سوء القول:

عدتَ وَاللّهِ الذي فوق مسنون الغِرَارَينِ أزْرَقا
دواءَ الجهل أن تُضْرَبَ يُغْمس العِرِّيضُ حتى يغرّقا

وقال الأوّل:

وضغَائنٍ دَاوَيتُها بضغائنٍ شَفَيتُ وبالحُقُودِ حُقُودا

وقال الآخر:

نَفى عنك قوماً أنت خائفُهم كَمِثل وَقمك جُهَّالاً بجُهّالِ
فاقْعَسْ إذَا حَدِبوا واحدَبْ إذا وَوَازِنِ الشَّرَّ مثقالاً بِمثقالِ

فإنّا وإن لم يكن عندنا سِنَان زُفَرَ بنِ الحارث، ولا معارضةُ هؤلاء الشرَّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقد بالحِقد، فإن عندي ما قال المسعوديَّ:

تراب الأرض منه خُلقتُمـا وفيه المعادُ والمصيرُ إلى الحشر
تأنفا أن تَرْجِعا فتسـلِّـمـا فما كسى الأفواه شَرًّا من الكِبْرِ

شئتُ أدْلى فيكما غير واحدٍ علانيةً أو قالَ عندي في السِّرِّ
لم آمُرْ ولم أنْهَ عنكُما ضحكْتُ له كيما يَلجَّ ويَسْتَشْرِي

وقال النَّمِر بن تَولَب:

اللّهُ عنِّي جَمرَةَ ابنة نوفلٍ جَزَاءَ مُغِلٍّ بالأمـانةِ كـاذِب
خَبَّرَتْ عنِّي الوُشاةَ ليكذِبـوا وقد أوليتُها في النـوائِب

يقول: أخرجتْ خَبرَها، فخرج إلى من أحبُّ أن يعابَ عنـدها ولـو شئتَ أن نعارضَـك لعارضـناك في القول بما هو أقبحُ أثـراً وأبقـى وَسْـماً، وأصـدقُ قِيلاً، وأعـدلُ شـاهداً، وليـس كـلُّ مَـن تَـرَكَ المعارضَةَ فقد صفح، كما أنَّه ليس من عَارضَ فقد انتصرَ، وقد قال الشاعر قولاً، إن فهمتَه فقـد كفَيتَنا مئونةَ المُعارضَة، وكفيتَ نفسَك لزوم العارِ، وهو قوله:

كنتَ لا ترهَبُ ذمِّي لِـمَـا مِنْ صَفْحِي عن الجاهلِ
سُكُوتي إذ أنا منـصـتفيكَ لمسموعِ خَـنَـا الـقـائلِ
فالسـامـعُ الـذمِّ شـريكٌ لـهُ ومُطِعمُ المأكـولِ كـالآكِـلِ
السُّـوء إلـى أهـلـهـا أسرَعُ من مُـنْـحَـدر سـائلِ
دَعا الـنـاسَ إلـى ذمِّـه ذمُّوه بالحـقِّ وبـالـبـاطـلِ
تَهِـجْ إنْ كـنـتَ ذا إربَةٍ حرْبَ أخي التجرِبة العـاقـلِ
العَـقـل إذا هِـجْـتَـه هجتَ بـه ذا خَـيَلٍ خـابـلِ
في عـاجـلِ شـدَّاتـه عليك غِبَّ الـضـرَرِ الآجـلِ

وقد يقال: إنّ العفوَ يُفسد من اللّئيم بقدر إصلاحه من الكريم، وقد قال الشاعر:

عندَ لبيبِ القومِ موعِظةٌ وبعضهُ لسَفيهِ القومِ تـدريبُ

فإنْ كنَّا أسأنا في هـذا التقريـع والتوقيـفِ، فالـذي لـم يأخُـذ فينـا بحُكم القرآن ولا بأدَب الرسول عليه الصلاة والسـلام، ولـم يَفـزَع

إلى ما في الفِطَن الصحيحة، وإلى ما توجبهُ المقاييسُ المطَّـرِدةُ، والأمثـالُ المضـرُوبة، والأشـعار السـائرة، أولَـى بالإسـاءَة وأحـقُّ باللائمة

أخذ البريء بذنب المذنب

قال اللّه عزَّ وجل: "وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"، وقد قال النبيُّ عليـه الصـلاة والسـلام: "لا يَجْـنِ يمِينُكَ عَلَى شِمَالك"، وهذا حكمُ اللّه تعالى وآدابُ رسوله والذي أُنْزِلَ به الكتـابُ ودلَّ عليـه مـن حُجَـــــــــــــــــــــــــــــــــــج العقــــــــــــــــــــــــــــــــــــول.

فأمَّا ما قالوا في المثل المضروب رَمَتْني بِدَائهَا وانسَلَّتْ، وأمّا قولُ الشعراءِ، وذمُّ الخطباءِ لِمـنْ أخَذَ إنساناً بذنْب غيره، وما ضَرَبُوا في ذلك من الأمثال، كقول النابغة حيث يقول في شعره:

وكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْـرِئٍ وتـرَكْـتَـهُ   كذِي العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو رَاتِعِ

وكانوا إذا أصاب إبلَهُم العُرّ كَوَوُا السَّليمَ ليدفعَه عـن السـقيم، فأسـقمُوا الصـحيحَ مـن غيـر أن يُبْرِئـــــــــــــــــــــــــــــــــــوا الســــــــــــــــــــــــــــــــــقيم.

وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدِهم فَبَلَغَت الألف، فقئوا عَينَ الفحْل، فإنْ زادَت الإبلُ على الألـف فقئـوا العيـــنَ الأخـــرى، وذلـــك المفقَّـــأُ والمعمَّـــى اللـــذان ســـمعتَ فـــي أشـــعارهم. قال الفرزدق:

غَلَبْتُكَ بالمفقئ والمعنَّـى   وبيتِ المُحْتَبِي والخافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف والغارة، فقال الأوّل:

فقأْتُ لها عَيْنَ الفَحِـيل عِـيَافَةً   وفيهنَّ رَعْلاَءُ المسامِعِ والحامي

الرعلاء: التي تشقّ أذنها وتترك مدلاَّة، لكرمها،- يذبح العتيرة وكانوا يقولون في موضع الكَفَّارة والأمْنِيَّة، كقول الرجل: إذا بلغَتْ إبلي كـذا وكـذا وكـذلك غَنَمـي، ذَبحْـتُ عنـد الأوثـان كـذا وكـذا عتيرة، والعتيرة من نُسُك الرَّجبيّة والجمع عتائر والعتائر مـن الظبـاء فـإذا بلغـتْ إبـلُ أحـدِهم أو غنمُه ذلك العددَ، استعملَ التأويلَ وقال: إنَّما قلتُ إنِّي أذبحُ كذا وكذا شاة، والظباء شـاء كمـا أنّ

الغنم شاء، فيجعل ذلك القربانَ شاءً كلَّه ممَّا يَصِيد من الظباء، فلذلك يقول الحـارثُ ابـن حِلِّـزةَ اليشكُريُّ:

باطلاً وظُلْماً كـمـا تُـعـ   عَنْ حَجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّباءُ

بعد أن قال:

عَلينا جُناحُ كِنْدَةَ أن يَغ   نَمَ غَازِيُهمُ ومِنَّا الجزاءُ

وكانوا إذا أورَدُوا البقـرَ فلـم تشـرَبُ، إمَّـا لكَـدر المـاء، أو لقلَّـةِ العطَش، ضربوا الثورَ ليقتَحِـم المـاء، لأنَّ البقـرَ تَتْبَعـه كمـا تتْبـع الشَّوْلُ الفحل، وكما تتبع أتُنُ الـوحش الحِمـار، فقـال فـي ذلـك عَوْفُ بن الخَرِع:

طيِّئٌ جَهْـلاً وجُـبْـنـاً   وقد خالَيتُهم فـأَبَـوْا خـلائي

أنْ هَجَوْتُ جِبَال سَلمى   كضَرْب الثَّورِ للبقرِ الظِّمـاء

وقال في ذلك أَنَس بن مُدْرِكة في قتله سُلَيك بنَ السُّلَكَة:

وقَتْلي سُلَيْكاً ثمَّ أعْـقِـلُـهُ   كالثَّورِ يُضرَب لمَّا عافَتِ البَقَرُ

لِلْمَرءِ إذْ نِيكتْ حَلِيلـتُـه   يُشَدَّ على وجعائها الثَّفَـرُ

وقال الهَيَّبان الفهميّ:

ضُرِبَ الْيَعْسُوب أَنْ عافَ   ذَنْبُهُ أن عافَتِ الماءَ بـاقـرُ

ولمّا كان الثورُ أميرَ البقر، وهي تطيعُه كطاعة إناث النحل لليعسوب، سمَّاه باسم أمير النحْـلِ.

وكانوا يزعمون أنَّ الجنَّ هي التي تصُدُّ الثِّيرانِ عن الماء حتى تُمْسِـكَ البقـرُ عـن الشـرب حـتى تهلِك، وقال في ذلك الأعشى:

وما كلَّفْتُمونـي وربِّـكـ   لأعلَمُ مَنْ أمْسَى أعقَّ وأَحربـا

والجنّيُّ يَضرِبُ ظَهرَه   ذنْبُه أن عافَتِ الماءَ مَشرَبا

ذنْبُه أَنْ عافَتِ الماءَ باقِـرٌ   إن تَعَافُ الماءَ إلاَّ لِيُضْرَبا

كأنّه قال: إذا كان يُضْرَب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنَّها إنما عافَتِ المـاءَ ليُضْـرب، وقـال يحيـي بن منصور الذُّهليّ في ذلك:

والجنيّ يَضْرِبُ وَجْهَه ذَنْبه إن كانَتِ الجِنُّ ظالِمه

وقال نَهْشلُ بنُ حَرِّيٍّ:

عارِضٌ وبنو عَـدِيٍّ وتَغْـرَمَ دارِمٌ وهُـم بَـرَاءُ
الثَّوْرِ يُضْرَبُ بالهَراوى إذا مَا عَافَتِ البَقَرُ الظِّمَـاءُ
تكلَّفُ الشِّعرَى سُهيلاً وبينَهما الكواكبُ والسَّمـاء

وقال أبو نُوَيرة بن الحصين، حين أخذه الحكم بن أيُّوب بذَنْب العَطَرَّق:

يُوسُفٍ لو كنتَ تَعلَمُ طاعَتي ونَصيحي إذنْ ما بِعتَني بالمحلَّق
ساقَ سَرّاقِ العِرَافة صالحٌ ولا كُلِّفْتُ ذَنْبَ العطـرق

وقال خِداش بن زُهير حين أُخذ بدماء بني محارب:

قَتْلَى مَعْشر لسـتُ مِـنـهـمُ دارُهُمْ داري ولا نصرُهُم نَصْرِي
قَتلَى العِيصِ عِيصِ شُـواحِـط أمرٌ لـم تُـثَـفـّ لَـهُ قِـدْرِي

وقال الآخر:

عَرَكت عِجْلٌ بنا ذنْبَ طـيِّءٍ عَرَكْنا بتَيمِ اللاتِ ذنبَ بَني عِجْلِ

ولما وَجَد اليهودِيُّ أخا حنبض الضبابيّ في منزله فخصَاه فمات، وأخذَ حنبض بني عَبْـس بجنايَـة اليهوديّ ، قال قيس بن زُهَيْر: أتأخذُنا بذنْبِ غيرِنا، وتسألنا العَقلَ والقاتلُ يهوديٌّ من أهل تيمـاء؟ فقال: واللّه أنْ لو قتلَتْه الريح، لودَيْتُمُوه فقال قيس لبني عَبس: الموتُ في بني ذُبيانَ خَيْـرٌ مـن الحَياةِ في بَني عامر ثم أنشأ يقول:

ذا الخُصْيَيْن إن كان وإن كنتُ مظلوماً وإن كنتُ شاطنا
امرؤٌ من آلِ تيمـاءَ طـائِرٌ يَقْدمُ الإنسيُّ والجـنُّ كـائنـا
بنـي ذُبـيانَ أمُّـكَ هَـابِـلٌ رَهَنْتَ بفَيفِ الرِّيحِ إن كُنْتَ رَاهِنا
قلتُ قد أفلتُّ من شَرِّ أتاني بأُخْرَى شرّه مُتَـبـاطِـنـا
جَعَلَتْ أكبادُنـا تـجـتـويكُـمُ كما تجتَوِي سوقُ العِضاهِ الكرازِنا

قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته

ولما قَتَل لُقمان بنُ عادٍ ابنَتَه - وهي صُحْر أختُ لُقَيم - قال حين قَتَلها: ألَسْتِ امرأة وذلك أنّه قد كان تزوج عِدَّةَ نساء، كلُّهنَّ خُنَّهُ في أنفُسهنّ، فلمَّا قَتَلَ أُخراهنَّ ونزل من الجبل، كان أوَّلَ من تلقّاه صُحْر ابنته، فوثَبَ عليها فقتلها وقال: وأنت أيضاً امرأة وكان قد ابْتُلِي بأنَّ أختَه كانت مُحْمِقة وكذلك كان زوجُها، فقالتْ لإحدَى نساءِ لُقْمان: هذه ليلةُ طُهْرِي وهي ليلتُك، فدَعيني أنامُ في مَضجَعِك، فإنَّ لقمانَ رجلٌ مُنْجِب، فعسَى أن يقَع عليَّ فأُنْجِبَ، فوَقَعَ على أُختِه فَحَمَلَتْ بِلُقَيْم، فهو قولُ النَّمِرِ بن تَولَب:

بنُ لُقمانَ من أُختِهِ ... فكانَ ابنَ أُختٍ لهُ وابنَما
حمّق فاستحصنَتْ ... عليه فَغُرَّ بها مُظْلِما
رَجلٌ مُحكِمٌ ... فجاءت به رجلاً مُحْكِمَا

فضربت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمان ابنتَه صُحراً، فقال خُفافُ بن نَدْبةَ في ذلك:

وعَبّاس يُدِبُّ لي المنايا ... وما أذنَبْتُ إلاَّ ذَنْبَ صُحْر

وقال في ذلك ابن أُذَيْنَة:

تَهيَاماً بليلَى إذا نأَتْ ... وهِجْرانَها ظلماً كما ظُلِمَتْ صُحْرُ

وقال الحارثُ بن عُبَاد:

مربطَ النعامةِ مِنِّي ... لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عَنْ حِيالِ
من جُنَاتِها عَلِمَ الل ... وإنِّي بحَرِّها اليومَ صالِي

وقال الشاعر، وأظنُّه ابنَ المقفَّع:

المرءَ في شأنِهِ فربَّ ملومٍ ولَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر:

عُذْراً وأنتَ تَلُومُ وكم لائمٍ قد لاَمَ وهْوَ مُليم

حديث سنمَّار وقال بعض العرب، في قتل بعضِ الملوك لِسِنمَّارَ الرومي؛ فإنه لما علا الخَوَرْنَق ورأى بُنْياناً لم يرَ مثله، ورأى في ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثلَ ذلك البنيانَ لرجُلٍ آخرَ من الملوك، رمَى به من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبيّ في شيءٍ كان بينَه وبين بعضِ الملوك:

جَزَاهُ اللّهُ شَرَّ جزائه سِنِمَّارٍ وما كان ذَا ذنب
رَصَّه البنيانَ سَبعين يُعَلَّى عليه بالقرَامِيدِ والسَّكْبِ
رأى البُنْيان تمَّ سُحُوقَه وآضَ كمِثْلِ الطَّوْدِ ذِي الباذِخ الصَّعْبِ
سِنِمّارٌ به كُلَّ حبوة لَدَيْهِ بالمودَّةِ والقُرب
اقذِفُوا بالعِلْجِ مِنْ رأسِ شاهقٍ فذاكَ لعَمْرَ اللّهِ مِنْ أعظَمِ الخَطْبِ

وجاء المسلمونَ، يروي خَلَفٌ عن سلف، وتابعٌ عن سابِق، وآخَرُ عنْ أوّل، أنَّهمْ لم يختلِفُوا في عيبِ قول زِياد: لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالوَلِيِّ، والسَّمِي بالسَّمِيِّ، والجارَ بالجارِ، ولم يختلفُوا في لَعْن شاعِرهم حيث يقول:

البَريءُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ تجَنَّبَ ما يُحاذِرُه السقيمُ

قال: وقِيل لِعَمْرو بن عُبَيد: إنّ فلاناً لما قدَّم رجلاً ليُضْرَبَ عُنُقه، فقيل له: إنَّه مجنون فقال: لولا أنَّ المجنونَ يَلِدُ عاقلاً لخلَّيت سبيلَه، قال: فقال عَمْرو: ما خَلَقَ اللّهُ النَّارَ إلاّ بالحق ولمّا قالت التغلَبِيَّةُ للجَحَّافِ، في وَقْعَة البِشْر: فضَّ اللّهُ فاكَ وأعماك، وأطالَ سُهادَك، وأَقَلَّ رُقادَك، فوَاللّه إنْ قَتَلْتَ إلاّ نساءً أعالِيهنَّ ثُدِيٌّ، وأسافِلُهُنَّ دُمًى فقال لِمنْ حَولَه: لولا أن تَلِدَ هذِه مثلَها لخَلَّيتُ سَبيلَها فبلغ ذلك الحسنَ فقال: أمَّا الجَحَّاف فجَذْوةٌ من نارِ جهنَّم. قال: وذمَّ رجلٌ عند الأحنَفِ بنِ قيس الكَمْأةَ بالسَّمْنِ، فقال عند ذلك الأحنَف: رُبَّ ملومٍ لا ذَنْبَ لَه.

فهـذهِ السـيرةِ سـرتَ فينـا.

وما أحسنَ ما قال سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن:

امرأ أمْسَى وأصْبَحَ سالماً   النَّاس إلاَّ ما جَنَى لَسَعيدُ

عناية العلماء بالملح والفكاهات

وقلتَ: ومـا بـالُ أهـلِ العلـمِ والنظـرِ، وأصـحابِ الفكـرِ والعِبَـر، وأربـابِ النِّحَـلِ، والعلمـاءِ وأهـلِ البصـر بمخـارجِ المِلَـل، وورثَـةِ الأنبياء، وأعوانِ الخلفاء، يكتُبُون كتـبَ الظُّرَفـاءِ والمُلَحَـاء، وكُتـب الفُـرَّاغِ والخُلَعـاء، وكتـبَ الملاهـي والفُكَاهـات، وكتـبَ أصـحابِ الخُصوماتِ، وكتبَ أصحابِ المِراءِ، وكتبَ أصحاب العصبيَّةِ وحَمِيَّةِ الجاهليّة ألأَنَّهُمْ لا يحاسِبون أنفسهم، ولا يُوازِنـون بيـنَ مـا عليهـم ولهم، ولا يخَافُون تصفُّحَ العلماءِ، ولا لائمة الأرَبَاءِ، وشنف الأَكْفَاء، ومَشْـنأة الجُلَسـاء؟ فهلاّ أمسـكتَ - يَرْحَمُـكَ اللّـه - عَـنْ عَيْبِهـا والطَّعْنِ عليها، وعن المَشُورَةِ والموعِظة، وعـن تخويـفِ مـا فـي سوء العاقبةِ، إلى أنْ تبلـغَ حـالَ العلمـاء، ومراتـبَ الأَكْفـاء؟ فأمَّـا كتابُنا هذا، فسنذكرُ جُمْلَةَ المذاهب فيـه، وسَـنَأتِي بعـد ذلـك علـى التفسير، ولَعلَّ رأيَك عند ذلك أنْ يتحوَّل، وقولَك أن يتبدل، فتُثْبِـتَ أو تكونَ قد أخذتَ من التوقُّفِ بنصيب، إن شاء اللّه.

أقسام الكائنات

وأقولِ: إنّ العالَم بما فيه من الأجسام على ثلاثـة أنحـاء: متَّفـق، ومختلف، ومتضادٌّ؛ وكلُّها في جملةِ القول جمادٌ ونامٍ، وكان حقيقةُ القولِ في الأجسام من هذه القِسْمة، أن يقال: نامٍ وغيرُ نام، ولو أنَّ الحكماءَ وضعُوا لكلِّ ما ليس بنامٍ اسـماً، كمـا وضـعُوا للنـامي اسماً، لاتبّعنا أَثرَهُمْ؛ وإنما ننتهـي إلـى حيـثُ انتهـوا، ومـا أكثَـرَ مـا تكونُ دلالةُ قولِهِمْ جماد، كدَلاَلَةِ قولهم مَـوَات، وقـد يَفتَرِقـان فـي مواضِعَ بعضَ الافتراق، وإذا أخرجت مـن العـالَمِ الأفلاكَ والـبروجَ والنجومَ والشمسَ والقمر، وجدتَها غيرَ نامية، ولم تجدْهم يسمُّون شيئاً منها بجَماد ولا مَوات، وليس لأنَّها تتحرَّكُ مـن تِلقـاءِ أنفُسِـها لـم تُسَـمَّ مواتـاً ولا جمـاداً، ونـاسٌ يجعلونهـا مـدبِّرة غيـر مـدبَّرة، ويجعلونها مسخِّرة غير مسَخَّرَّة، ويجعلونها أحْيَـا مـن الحيـوان؛ إذْ كان الحيوانُ إنَّمَا يَحْيا بإحيائها لَه، وبِما تُعطيه وتُعِيـره، وإنمـا هـذا منهم رأي، والأُمَـمُ فـي هـذا كلِّـه علـى خلافِهـم، ونحـنُ فـي هـذا الموضـعِ إنَّمـا نعبِّـر عـن لُغَتنـا، وليـس فـي لُغتنـا إلاّ مـا ذكرنـا. والناسُ يسمُّون الأرضَ جماداً، وربّما يَجعلونها مَوَاتاً إذا كـانتْ لـم

تُنْبِتْ قديماً، وهي مَوَات الأرض، وذلك كقولهم: مَنْ أحيَا أَرضاً مواتاً فهي له.

وهم لا يجعلون الماء والنارَ والهواءَ، جماداً ولا مَوَاتاً، ولا يسمُّونَها حيواناً ما دامت كذلك، وإن كانت لا تضاف إلى النَّماء والحسّ. والأرضُ هي أحدُ الأركانِ الأربعة، التي هي الماءُ والأرضُ والهواءُ والنار، والاسمانِ لا يتعاوَرَانِ عندَهم إلاّ الأرض.

تقسيم النامي

ثمَّ النامِي على قسمين: حيوان ونبات، والحيوانُ على أربعة أقسام: شيءٌ يمشي، وشيء يطير، وشيء يسْبَحُ، وشيءٌ يَنْسَاح، إلاّ أنّ كلَّ طائرٍ يمشي، وليس الذي يَمشي ولا يَطِير يسمى طائراً، والنوعُ الذي يَمشي على أربعةِ أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات، على أنّ الحشَرَاتِ راجعةٌ في المعنى إلى مشاكلةِ طباع البهائمِ والسباع، إلاّ أنّنا في هذا كلِّه نتبع الأسماءَ القائمة المعروفة، البائنات بأنفُسِها، المتميِّزاتِ عند سامعيها، مِنْ أهلِ هذه اللغةِ وأصحاب هذا اللسان، وإنَّما نُفْرِد ما أفْرَدوا، ونَجْمَع ما جَمَعوا.

تقسيم الطير

والطيرُ كلٌّ سَبُعٍ وبَهيمة وهَمَج، والسباعُ من الطير على ضَـربَيْن: فمنها العِتاقُ والأحرارُ والجوارحَ، ومنها البغاث وهو كـلُّ مـا عظـمَ من الطير: سـبعاً كـان أو بهيمـة، إذا لـم يكـنْ مـن ذواتِ السـلاحِ والمخالبِ المعقَّفة، كالنُّسورِ والرَّخَم والغِربان، ومـا أشـبهها مِـنْ لئامِ السباع، ثم الخَشَاش، وهو ما لطُـف جِرمُـه وصَـغُر شخصـه، وكـان عـديمَ السـلاح ولا يكـون كـالزُّرَّقِ واليُؤيُـؤ والباذنجـان. فأما الهَمَج فليس من الطير، ولكنَّه ممَّا يطير، والهمَجَ فيما يطيرُ، كالحشراتِ فيما يمشي، والحيّاتُ من الحشرات، وأيُّ سبع أَدخَلُ في معنى السَّبُعيَّة مِنَ الأفاعي والثعابِين؟ ولكـن ليـس ذلـك مـن أسمائها، وإن كانتْ من ذوات الأنيابِ وأكَّالة اللُّحوم وأعداِء الإنسِ وجَميعِ البهائم، ولذلك تأكلُها الأوعَال والخَنازيرُ والقَنافِذُ والعِقبـان والشاهْمُرك والسنانير، وغيـر ذلـك مـن البهـائم، والسـباع، فَمـنْ جَعَلَ الحيَّاتِ سِباعاً، وسمَّاها بذلك عندَ بعضِ القولِ والسببِ فقـدْ أصابَ، ومن جَعـلَ ذلـك لهـا كالاسـمِ الـذي هـو العلامـةُ كـالكَلْبِ والـــــــذئب والأسَـــــــد فقــــــــد أخطـــــــأ.

ومن سِباعِ الطيرِ شكلٌ يكون سِلاحُه المخالبَ كالعُقابِ وما أشبهها، وشيءٌ يكونُ سِلاحُه المناقيرَ كالنُّسُورِ والرَّخَمِ والغِرْبان، وإنَّما جعلْناها سباعاً لأنّها أكَّالةُ لحوم.

ومِنْ بهائم الطير ما يكون سلاحُه المناقيرَ كالكَرَاكِيِّ وما أشبهها، ومنه ما يكونُ سلاحُه الأسنانَ كالبُومِ والوَطْوَاطِ وما أشبهها، ومنه ما يكون سلاحُه الصياصي كالدِّيَكَة، ومنه ما يكون سلاحه السَّلْح كالحُبَاري والثعلب أيضاً كذلك.

والسَّبع من الطير: ما أكل اللحمَ خالصاً، والبهيمةُ: ما أكلت الحبَّ خالصاً، وفي الفنِّ الذي يجمعها من الخلْقِ المركَّبِ والطبع المشتَرَك، كلامٌ سنأتي عليه في موضعه إن شاء اللّه تعالى، والمشتَرَك عندهم كالعصفور؛ فإنَّه ليس بذي مِخْلَبٍ معقَّف ولا مِنْسَر وهو يلقط الحبَّ، وهو مع هذا يصيد النَّمْل إذا طار، ويَصِيد الجرادَ، ويأْكُلُ اللحم، ولا يَزُقُّ فِرَاخَه كما تزقُّ الحمامُ، بل يُلْقِمها كما تُلْقِمُ السباعُ من الطير فراخَها، وأشباهُ العصافيرِ من المشترَك كثيرٌ، وسنذكُر ذلكَ في موضِعه إن شاء اللّه تعالى.

وليس كلُّ ما طار بجَناحينِ فهو من الطير؛ قد يطير الجِعْلاَن والجَحْلُ واليَعاسِيبُ والذّبابُ والزَّنابِيرُ والجَرادُ والنمْل والفَراشُ

والبَعوضُ والأرضَة والنحلُ وغيرُ ذلك، ولا يسمَّى بالطير، وقد يقال ذلك لها عند بعض الذكرِ والسبب، وقد يسـمُّون الـدجاجَ طيـراً ولا يسمُّون بذلك الجراد، والجرادُ أَطْيَر، والمثلُ المضروبُ به أشـهر، والملائكةُ تطِيرُ، ولها أجنحةٌ وليستْ مـن الطيـر، وجَعفـر بـن أبـي طالب ذو جناحين يَطير بهما في الجنَّة حيـثُ شـاء، وليـس جعفـرٌ مـــــــــــــــــــن الطيـــــــــــــــــــر.

واسم طائرٍ يقَع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجَنـاح، وليـس بالريشِ والقَوادِمِ والأبـاهِرِ والخـوافي، يسـمَّى طـائراً، ولا بعـدمه يسْقط ذلك عنه، ألا ترى أنَّ الخفَّاشَ والوَطواطَ مـن الطيـر، وإن كانا أمْرَطَينِ ليس لهما رِيشٌ ولا زَغَبٌ ولا شَـكِيرُ ولا قَصَـب وهمـا مشـهورانِ بالحمـل والـولادة، وبالرَّضـاع، وبظهـور حَجْـم الآذان، وبكـثرة الأسـنان، والنعامـة ذاتُ ريـشٍ ومِنقـارِ وبَيـضٍ وجَنـاحين، وليســــــــــــــت مــــــــــــــن الطيـــــــــــــر.

وليس أيضاً كلُّ عائمٍ سمكة، وإن كان مناسباً للسـمك فـي كـثير من معانيه، ألا تَرَى أنّ في الماء كَلْبَ الماء، وعنْـزَ المـاء، وخِنزيـرَ الماء؛ وفيـه الـرِّقُّ والسُّـلَحْفاة، وفيـه الضِّـفْدَع وفيـه السـرطان، والبَيْنيبُ، والتِّمساح والدُّخس والدُّلْفين واللَّخْمُ والبُنْبُك، وغيرُ ذلك

من الأصناف، والكَوسَج والد اللُّخْم، وليس للكوسج أبٌ يُعرَف، وعامَّةُ ذا يَعيش في الماء، ويبيت خارجاً من الماء، ويبيض في الشطِّ ويَبِيضُ بيضاً له صُفْرَةٌ، وقَيْضٌ وغِرْقِئٌ، وهو مع ذلك ممّا يكون في الماء مع السمك.

تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم

ثمَّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لا يَصْنَع صمتاً قطُّ ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لِمَا لَمْ يتكلَّمْ قطُّ، فيحملون ما يرغو، ويَثغو، ويَنهَق، ويَصْهِل، ويَشْحَج، ويَخُور، ويَبْغَم، ويَعوِي، ويَنبَح، ويَزْقُو، ويَضْغُو، ويَهْدِر، ويَصْفِر، ويُصَوْصِي، ويُقَوْقِي، ويَنْعَبُ، ويَزْأَر، ويَنْزِبُ، ويكِشُّ، ويَعِجُّ، على نطقِ الإنسان إذا جمع بعضه على بعض، ولذلك أشباهٌ، كالذكور والإناث إذا اجتمعا، وكالعِيرِ التي تسمَّى لَطِيمة، وكالظُّعُن؛ فإنَّ هذه الأشياءَ إذا وجد بعضُها إلى بعض، أو أَخَذ بعضُها من بعض، سُمِّيَتْ بأنبَه النوعَين ذِكْراً، وبأقواهما، والفصيحُ هو الإنسان، والأعجم كلُّ ذي صوتٍ لا يفهَمُ إرادتَه إلاّ ما كان من جنسه، ولعمري إنا نفهم عَن

الفَرس والحمارِ والكلبِ والسِّنَّور والبعير، كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوره، كما نفهم إرادةَ الصبيِّ في مَهْده ونعلم - وهو من جليل العلم - أنّ بكاءَه يدلُّ على خلافِ ما يدُلُّ عليه ضَحِكُه، وحَمْحَمَةُ الفرَس عند رؤية المخلاة، على خلاف ما يدلُّ عليه حَمحمتُه عند رؤية الحِجْر، ودُعاء الهِرَّةِ الهرَّ خلافُ دعائها لولدها، وهذا كثير.

والإنسانُ فصيح، وإنْ عبَّرَ عن نفسِه بالفارسيّة أو بالهنديّة أو بالروميّة، وليس العربيُّ أسوأ فهماً لِطَمْطَمَةِ الروميِّ من الرومي لبيانِ لسان العربيّ، فكلُّ إنسانٍ من هذا الوجه يقال له فصيح، فإذا قالوا: فصيح وأعجَم، فهذا هو التأويل في قولهم أعجم، وإذا قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنَّما يَعنُون أنَّه لا يتكلَّم بالعربيَّة، وأنَّ العربَ لا تفهم عنه، وقال كُثَيِّر:

ما أعطَى ابنُ لَيلَى وصامتُ ما أعطَى ابنُ ليلى وناطقُه

ويقال جاء بما صَأى وصمت، فالصامت مثل الذهب والفضّة، وقوله صأى يعني الحيوانَ كلَّه، ومعناه نطق وسكَت؛ فالصامت في كلّ شيءٍ سِوَى الحيوان.

ووجدْنا كونَ العالَم بما فيه حكمةً، ووجدْنا الحِكمَة على ضربَين: شيءٌ جُعِلَ حكمةً وهو لا يَعقِل الحكمةَ ولا عاقبةَ الحِكمة، وشيءٌ جُعِل حكمةً وهو يَعْقِل الحكمة وعاقبةَ الحكمة، فاستوى بذاكَ الشيء العاقلُ وغير العاقل في جهةِ الدَّلالةِ على أَنَّهُ حكمة؛ واختلفا من جهةِ أَنَّ أحدهما دَليلٌ لاَ يَسْتَدِلّ، والآخر دليل يستدل، فكلُّ مُسْتَدِلٍّ دليل وليس كلُّ دليل مستدلاً، فشارك كل حيوانٍ سوى الإنسان، جميعَ الجمادِ في الدَّلالة، وفي عدم الاستدلال، واجْتَمَع للإنسان أَنْ كان دليلاً مستَدِلاًّ، ثُمَّ جُعِل للمستدِلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوهِ استدلاله، ووُجوهِ ما نتج له الاستدلال، وسمَّوا ذلك بياناً.

وسائل البيان

وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام: لفظ، وخطّ، وعَقْد، وإشارة، وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا يستدِلُّ تَمْكِينَهُ المستدِلَّ من نفسه، واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلاَلة، وأُودِع مِن عَجيب الحكمة، فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتة، ناطقةٌ مِن جهة الدَّلالة، ومُعْرِبةٌ من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكمة، مخبرٌ لمن استخبَرَه، وناطقٌ لِمَن استنطقه، كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللونِ، عن سُوءِ الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحُسْنُ النَّضْرَة، عن حسن الحال، وقد قال الشاعر وهو نصيب:

فأثنَوا بالذي أَنْتَ أَهلُه سكتوا أثنتْ عليك الحقائب

وقال آخر:

تَكُ في عدوٍّ أو صديقِ   تُخَبِّرْكَ العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْليُّ في صِدق شمِّ الذّئب وفي شَدّةِ حسّه واستروَاحه:

يَستخبِرُ الريحَ إذا لم يَسْمَعِ   بمثل مقراعِ الصَّفا الموقَّعِ

وقال عنترة، هو يصف تَعِيبَ غُراب:

الجَنَاحِ كأنَّ لَحْييْ رأسه   جَلَمانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَع

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سَل الأَرْضَ، فقلْ: مَنْ شقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإنْ لم تُجبكَ حِواراً، أجابتْكَ اعتباراً. فموضوعُ الجسم ونَصْبته، دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه، ومنبهة عليه، فالجمادُ الأبكمُ الأخرسُ من هذا الوجه، قد شارَكَ في البيان الإنسانَ الحيَّ الناطق، فمَنْ جَعَل أقسام البيانِ خمسة، فقد ذهَبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللّغة، وشاهدٌ في العقل، فهذا أحدُ قِسمَي الحكمة، وأحَدُ مَعْنَيَيْ ما استخرنها اللّه تعالى من الوديعة.

ما يعجز عنه الإنسان والحيوان

والقسمة الأُخرى ما أودَعَ صدور صنوفِ سائر الحيوان، مِنْ ضُرُوبِ المعارف، وفَطَرها عليه من غريب الهداياتِ، وسخَّر حناجِرَها لَهُ من ضروبِ النَّغَم الموزونة، والأَصواتِ الملحنة، والمخارِجِ الشجِيَّة، والأغاني المطربة؛ فقد يقال إنَّ جميعَ أصواتها

معدَّلة، وموزونة موقَّعة، ثمَّ الذي سهَّل لها من الرفق العجيبِ في الصنعة، مما ذلَّله اللّه تعالى لمناقيرها وأكُفِّها، وكيف فَتَحَ لهـا مـن باب المعرفةِ على قدر ما هَيَّأَ لها من الآلـة، وكيـفَ أَعطَـى كـثيراً مِنهـا مِـنَ الحـسِّ اللطيـفِ، والصـنْعةِ البديعـة، مـن غيـر تـأديبٍ وتثقيف، ومن غير تقويمٍ وتلقين، ومن غير تدريج وتمرين، فبَلَغَتْ بِعَفوها وبمقدار قوى فِطرتها، من البَديهةِ والارتجال، ومن الابتداءِ والاقتضاب، ما لا يَقْدرُ عليه حُذّاقُ رجالِ الـرأي، وفلاسـفةُ علمـاءِ البشر، بِيَـدٍ ولا آلـة، بـل لا يبلـغ ذلـك مـن النـاسِ أكملُهُـمْ خصـالا وأَتمُّهُـمْ خلالاً، لا مِـنْ جهـة الاقتضـاب والارتجـال ولا مـن جِهـة التعسُّف والاقتدار، ولا من جهة التقدُّم فيه، والتأنِّي فيـه، والتـأتِّي له، والترتيبِ لمقدِّماته، وتمكين الأسباب المُعِينةِ عليه، فصار جهد الإنسان الثاقبِ الحسِّ، الجـامِعِ القُـوى، المتصـرِّفِ فـي الوجـوه، المقدَّم في الأُمـور، يَعجِـز عـن عَفْـوِ كَـثيرٍ منهـا، وهـو ينظـرُ إلـى ضروب مـا يجيـء منهـا، كمـا أعطيـت العنكبـوتُ، وكمـا أعطِيَـت السُّرْفَة، وكما عُلِّم النحْل، بل وعُرِّفَ التُّنَوِّطُ مِـن بـديعِ المعرفـة، ومِن غَرِيبِ الصنعة، في غير ذلك مِن أصناف الخلق، ثم لم يوجب لهم العجز في أَنْفُسِهِمْ في أكـثر ذلـك، إلاّ بمـا قـوي عليـه الهَمَـجُ

والْخشَــاشُ وصِــغارُ الحشــرات، ثــم جعــل الإنســان ذا العقــلِ والتمكيــنِ، والاســتطاعة والتصــريف، وذا التكلُّــفِ والتجرِبَــة، وذا التأنِّي والمنافَسَة، وصــاحبَ الفهْـمِ والمســابَقَة، والمتبصِّــرَ شـأنَ العاقبة، متى أحسَنَ شيئاً كان كلُّ شيءٍ دونَه في الغُمُــوض عليــه أَسهلَ، وَجَعَل سائِرَ الحيوانِ، وإن كان يحسنُ أحدُها مــا لا يحســنُ أحذَقُ الناس متى أحسنَ شيئاً عجيباً، لم يمكنْهُ أن يُحسِن مــا هــو أقربُ منه في الظنّ، وأسهلُ منه في الرأي، بل لا يحسِــنُ مـا هـو أقرب منه في الحقيقة، فلا الإنسانُ جَعَلَ نفسه كــذلك، ولا شــيءٌ من الحيوان اختارَ ذلك، فأحسَنَتْ هذه الأجناسُ بلا تعلُّم، ما يمتَنِــع على الإنسان وإن تعلَّم، فصار لا يحاوله؛ إذْ كان لاَ يطمع فيــه، ولا يحسُــدُها؛ إذا لا يؤمِّــل اللَّحَــاقَ بهــا، ثــمّ جعــل تعــالى وعــزَّ، هــاتين الحكمتين بإزاء عُيونِ الناظِرين، وتُجَاهَ أسماعِ المعتَبرِين، ثمَّ حـثَّ على التفكير والاعتبار، وعلى الاتّعــاظ والازدِجــار، وعلــى التعــرُّفِ والتبَيُّنِ، وعلــى التوقُّــفِ والتــذَكُّر، فَجَعَلَهــا مــذكّرةً منبِّهــة، وجَعَــلَ الفِطر تُنْشِئ الخَواطرَ، وتجُولُ بأهلها في المذاهب، ذَلِكَ اللّــهُ رَبُّ العالَمِينَ. "فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ".

مزج الهزل بالجدّ في الكتاب

وهذا كتابُ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقُّهٍ وتنبيه، وأراكَ قد عِبتَه قبل أن تقـفَ علـى حُـدودِه، وتتفكَّـرَ فـي فصـوله، وتَعتبِـرَ آخَـره بـأوله، ومَصَادِرَه بموارده، وقد غلّطَك فيه بعضُ ما رأيتَ فـي أثنـائه مـن مزحٍ لا تعرف معناه، ومن بَطالةٍ لم تطّلِعْ على غَورها؛ ولم تدرِ لم اجتُلِبت، ولا لأَيِّ علِّة تُكُلِّفت، وأيِّ شيءٍ أُرِيغَ بها، ولأيِّ جِدٍّ احتُمِـل ذلك الهزل، ولأيِّ رياضةٍ تُجُشِّمتْ تلك البَطالة؛ ولم تَدْرِ أَنَّ المزاحَ جِدٌّ إذا اجتُلِـب ليكـون علَّـةً للجِـدِّ، وَأَنَّ البَطالـة وَقـارٌ ورَزانـة، إذا تُكُلِّفت لتلك العافية، ولمَّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحـدٌ مـن علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه، حتَّى يتعلَّم ما لا يحتاج إليه، قـال أَبـو شمر: إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يحتـاج إليـه إلاّ بمـا لا يحتـاج إليـه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه، وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنّـه إن حَمَلْنَا جميعَ من يتكلَّف قراءة هذا الكتابِ على مُرِّ الحق، وصُعوبة الجِدّ، وثِقل المؤونة، وحِلية الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلاّ من تجرَّدَ للعلم، وفهم معناه، وذاق مـن ثمرتـه، واستشـعر قلبـه مـن عزِّه، ونال سروره على حسب ما يُورث الطولُ من الكَدّ، والكثرةُ

من السآمة، وما أكثر مَن يُقَـاد إلـى حظِّـه بالسـواجير، وبالسـوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم لم أرَكَ رضِيتَ بالطعن على كلِّ كتاب لـي بعينـه، حتَّـى تجـاوزتَ ذلـك إلـى أَنْ عبـت وضْـعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ، وكيفَ تصرفَتْ بها الوجوه، وقد كنتُ أعجَب مـن عيبـك البعـضَ بلا علم، حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم، ثم تجاوزْت ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحـربِ فعبتَ الكِتَابَ؛ ونعم الذخر والعُقدة هـو، ونعـم الجليـس والعُـدَّة، ونعـم النشـرة والنزهـة، ونعـم المشـتغل والحرفـة، ونعـم الأنيـس لسـاعة الوحـدة، ونعـم المعرفـةُ ببلاد الغربـة ونعـم القريـن والدخِيل، ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعـاءٌ مُلِـئَ علمـاً، وَظـَرْفٌ حُشِـي ظَرْفـاً، وإنـاءٌ شُـحِن مُزَاحاً وجِدّاً؛ إنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَـحْبانِ وائـل، وإن شـئت كـان أعيـا مـن باقِـل، وإن شـئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِهِ، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُـه، وإن شـئتَ أشجَتْك مواعِظُه، وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدِ حـارّ، وفي البارد الحارِّ يقولُ الحسنُ بن هانئ:

لزُهير إذا انتَحـى وشـدا أَقْلِيلْ أَوَ أَكْثِر فَأَنْتَ مِهْـذَارُ
مِنْ شِدَّةِ الـبُـرُودَةِ حـتَّى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النارُ
يَعجَبِ السامعُون مِنْ صِفَتِي كذلك الثـلـجُ بـارِدٌ حـارُ

ومَنْ لكَ بطبيب أَعرابيّ، وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْدِيّ، وبفارسي يُونَانيّ، وبقَدِيمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّـع، وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأَوَّلَ والآخِر، والناقص والوافر، والخفيَّ والظـاهر، والشـاهدَ والغـائبَ، والرفيـــعَ والوضـــيع، والغَـــثَّ والســـمين، والشّـــكْلَ وخِلافَـــه، والجِنـــسَ وضـــدَّه. وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل في رُدْن، ورَوضةً تُقَـلُّ فـي حِجْـرٍ، وناطقـاً ينطِـق عـن المـوتَى، ويُترجمُ عن الأحياء وَمَنْ لك بمؤنس لا ينام إلاّ بنومِك، ولا ينطق إلاّ بما تهـوَى؛ آمَـنُ مِـنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفَظُ للوديعةِ مـن أربـاب الوديعـة، وأحفَـظ لمـا اسـتُحْفِظَ مـن الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعرِبين، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعـتراضِ الاشـتغال، ومـن العُميـانِ قبـلَ

التمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تنقص، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم، والإرادَةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ ليِّنة، فهي أقبلُ ما تكون للطبائعِ، والقضيبُ رطبٌ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا، ولم تتفرَّق قُواها، وكانت كما قال الشاعر:

هواها قبل أَنْ أَعرِفَ ... فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وقال عَبْدة بن الطَّبِيب:

تأمَنوا قوماً يَشِبُّ صبيُّهم ... بَيْنَ القوابِلِ بالعَدَاوةِ يُنْشَعُ

ومن كلامهم: التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقشِ في الحجر، وقد قال جِرَانُ العَودِ:

برجلة الروحاء حتَّى ... تنكّرتِ الديارُ على البَصيرِ

في الحِجارةِ أو وُشُومٍ ... بأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةِ النَّؤُور

وقال آخر، وهو صالحُ بن عبد القُدُّوس:

مَن أدَّبته في الصِّبَى ... يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ

تُرَاهُ مُورِقاً ناضِراً ... الذي قد كان في يُبْسِهِ

وقال آخر:

مِنْ مَيلِ الغُلامِ المؤدِّبُ ... يَنْفَعُ التأديبُ والرأسُ أشيَبُ

وقال آخر:

عِرْسَكَ بَعْدَ ما هَرِمَتْ ... وَمِنَ العَنَاءِ رِياضَةُ الهَرِمِ

وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ لعيسى بن عمر: اكتبْ شِعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ، لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طلبها ليلَته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم يُنشِدها الناسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلاماً بكلام.

وعبتَ الكتابَ، ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ، ولا خَليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً

أطوعَ، ولا معلِّماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً، ولا أحفَلَ أخلاقـاً، ولا أقـلَّ خِلافـاً وإجرامـاً، ولا أقلَّ غِيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهة، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصـرُّفاً، ولا أقـلَّ تصلُّفاً وتكلُّفاً، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْـرَك لشَـغَب، ولا أزهَـدَ فـي جـدالٍ، ولا أكـفَّ عـن قتـالٍ، مـن كتـاب، ولا أعلَـمُ قرينـاً أحسـنَ موَافاةً، ولا أعجَل مكافأة، ولا أحضَرَ مَعُونـةً، ولا أخـفَّ مؤونـة، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمـعَ أمـراً، ولا أطيَـبَ ثمـرةً، ولا أقـرَبَ مُجتَنى، ولا أسرَعَ إدراكاً، ولا أوجَدَ فـي كـلّ إبَّـانٍ، مـن كتـاب، ولا أعلَمُ نِتاجاً في حَدَاثةِ سنِّه وقُـرْب ميلادِه، ورُخْـص ثمنـه، وإمكـانِ وُجوده، يجمَعُ مـن التـدابيرِ العجيبَـة والعلـومِ الغريبـة، ومـن آثـارِ العقولِ الصحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة، ومِنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القوِيمة، والتجارِبِ الحكيمة، ومِنَ الإخبارِ عـن القـرون الماضية، والبلادِ المتنازِحة، والأمثالِ السائرة، والأمـم البائـدة، مـا يجمَعُ لك الكتابُ، قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّه عليـه الصـلاة والسـلام) اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْـرَمُ، الَّـذِي عَلَّـمَ بِـالْقَلَمِ(فَوَصَـفَ نَفْسَـهُ، تبـارك وتعالى، بأنْ علَّمَ بالقَلم، كما وصـف نفسَـه بـالكرَم، واعتـدَّ بـذلك في نِعَمه العِظام، وفـي أيـادِيه الجِسـام، وقـد قـالوا: القَلَـمُ أحـدُ

اللسانَين، وقالوا: كلُّ مَنْ عَـرَف النِّعمـةَ فـي بَيـان اللسـانِ، كـان بفضل النِّعمة في بيانِ القلم أعرَف، ثمَّ جَعَلَ هذا الأمرَ قرآنـاً، ثـمَّ جعلَه في أوَّل التنزيل ومستَفْتَح الكتاب.

كون الاجتماع ضرورياً

ثمَّ اعلمْ، رحِمَك اللّه تعالى، أَنّ حاجـةَ بعـض النـاس إلـى بعضٍ، صفةٌ لازمةٌ في طبائِعهم، وخِلقـةٌ قائِمـةٌ فـي جـواهِرِهم، وثابتـةٌ لا تُزَايلُهم، ومُحيطةٌ بجماعَتِهم، ومشـتملةٌ علـى أدنـاهم وأقصـاهم، وحاجَتُهُمْ إلى مـا غـاب عنهـم - ممَّـا يُعِيشُـهم ويُحْييهـم، ويُمسِـك بأرْماقِهم، ويُصلِحُ بالهم، وَيجْمَع شملَهم، وإلـى التعـاوُنِ فـي دَرْكِ ذلـك، والتـوازُرِ عليـه - كَحَـاجَتِهم إلـى التعـاون علـى معرفـة مـا يضرُّهم، والتوازرِ على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لـم تَغِبْ عنهم، فحاجَةُ الغائِبِ مَوصُولةٌ بحاجةِ الشاهد، لاحتياج الأدنَى إلى معرِفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلـى معرفَـةِ الأدنـى، معـانٍ متضـمّنةٌ، وأسـبابٌ متَّصـلة، وحبـالٌ منعقـدة، وجعـل حاجتنَـا إلـى معرفة أخبارِ مَنْ كان قبلَنا، كحاجةِ من كان قبلنـا إلـى أخبـار مَـنْ كان قبلهم، وحاجةِ من يَكُونُ بعدَنا إلى أخبارِنا؛ ولذلك تقدَّمت في

كتب اللّه البشارات بالرُّسل، ولم يسخِّر لهم جميعَ خلْقه، إلاّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلْقه، وجعلَ الحاجَةَ حاجَتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة، وفي كلِّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد، وذلكَ المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشَهوَاتهم، وعلى قدْر اتّساعِ معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم، وعلى قَدْرِ احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة، ثم لم يقطعِ الزيادةَ إلا لعجْزِ خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجْز، إلاّ بعدَم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتاً من نُعوتِ العبيد.

لم يخلق اللّه تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجتِه بنفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة في بابٍ، وأحوَجَ السُّوقَةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه، ثُمَّ جَعلَ اللّه تعالى كلَّ شيءٍ للإنسان خَوَلاً، وفي يَدِه مُذَلّلاً مُيَسَّراً إمّا بالاحتِيالِ له والتلطُّفِ في إراغَتِه واستِمالتِه، وإمّا بالصَّوْلةِ عليه، والفتكِ به، وإمّا أَنْ يأْتِيَهُ سهواً ورهواً، على أَنَّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها، إلاّ أَنّ

الحاجةَ تفتَرِق في الجنس والجهةِ والجِبِلَّة، وفي الحـظِّ والتقـدير. ثمَّ تعبَّدَ الإنسانَ بالتفكُّرِ فيها، والنظرِ فـي أُمورِهـا، والاعتبـار بمـا يَرَى، ووَصَل بينَ عُقولهم وَبيْنَ معرفةِ تلك الحكَم الشريفة، وتلـك الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكيـر، وبـالتنقيب والتنْقيـر، والتثبـت والتوقُّـف؛ ووَصَـلَ معـارفَهم بموَاقـعِ حاجـاتِهم إليهـا، وتشـاعُرِهم بمواضع الحكم فيها بالبيانِ عنها.

البيان ضروري للاجتماع

وهو البيانُ الذي جعلَه اللّه تعالى سبباً فيمـا بينَهـم، ومعبِّـراً عـن حقـائق حاجـاتهم، ومعرِّفـاً لمواضـع سـدِّ الخَلَّـة ورفْـع الشـبهة، ومداواةِ الحَيـرة، ولأنّ أكـثرَ النـاسِ عـن النـاس أفهـمُ منهـم عـن الأَشباحِ الماثلة، والأجسامِ الجامـدة، والأجـرامِ السـاكنة، الـتي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكُنوزِ الآداب، وينابيعِ العلـمِ، إلاّ بالعقلِ الثاقب اللطيف، وبـالنظرِ التـامِّ النافـذ، وبـالأداةِ الكاملـة، وبالأسبابِ الوافرة، والصبرِ على مكروه الفكـر، والاحـتراسِ مـن وُجوه الخُدَع، والتحفُّظِ مِن دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشِّكلَ أفهَمُ عــن شِكله، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به، وذلك موجودٌ في أجنـاسِ البهـائم،

وضُروبِ السباع، والصبيُّ عن الصـبيِّ أفهـمُ لـه، ولـه آلـفُ وإليـه أنزَع، وكذلك العالِمُ والعـالم، والجاهـل والجاهـل، وقـال اللّـه عـزّ وجلّ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَـاهُ رَجُلاً" لأَنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس؛ وعلى قــدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه. ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلِّل، وأظهَرَ ولم يُخْــفِ، وجعَل آلة البيانِ التي بها يتعارَفُون معانِيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليـه يرجِعون عند اختلافِهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسـها الـذي وَضِعت له وصُـرفتْ إليـه، وهـذه الخصـال هـي: اللفـظ، والخـطّ، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صـحَّة الدَّلالـةِ، وصدقِ الشهادة ووُضوحِ البرهان، في الأَجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحـسُّ، ولا تَفهَـم ولا تتحـرَّك إلاّ بـداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ مُمْسِكٍ خلِّي عنهـا، بعـد أَنْ كـان تقييـده لهـا. ثـمَّ قسّـم الأقسـامَ ورتَّـب المحسوسـات، وحصَّـل الموجـوداتِ، فجعل اللفظَ للسـامع، وجعـل الإشـارةَ للنـاظر، وأشـرَك النـاظرَ واللامس في معرفة العَقْد، إلاّ بما فضّل اللّه به نصيبَ الناظرِ في

ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس، وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائق نصيباً.

خطوط الهند

ولولا خطوطُ الهِندِ لضاع من الحساب الكثيرُ والبسيط، ولبطلت مَعرِفةُ التضاعيف، ولَعدِموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدرَكوا ذلك لَما أدرَكُوه إلاّ بعد أَنْ تغلُظَ المؤونة، وتنتَقِضَ المُنّةُ، ولصارُوا في حال مَعْجَزَةٍ وحسور، وإلى حالِ مَضيعَةٍ وكَلالِ حدّ، مع التشاغُلِ بأمورٍ لولا فقدُ هذه الدَّلالةِ لكان أربحَ لهم، وأرَدَّ عليهم، أن يُصرَف ذلك الشغلُ في أبوابِ منافع الدين والدنيا.

نفع الحساب

ونفع الحساب معلوم، والخَلَّةُ في موضعِ فقدِه معروفة، قال اللّه تعالى: "الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"، ثم قال: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بحُسْبَانٍ"، وبالبَيَانِ عَرَفَ الناسُ القرآنَ، وقال

اللّه تبارَكَ وتعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِـياءً وَ الْقَمَـرَ نُـوراً، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ" فـأجْرَى الحسـابَ مُجرَى البيان بالقرآن، وبحُسْبان منازلِ القمر، عَرَفنا حالاتِ المـدِّ والجزْر، وكيف تكونُ الزيادةُ في الأهِلَّة وأنصـافِ الشـهور، وكيـف يكونُ النقصانُ في خلال ذلك، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقدار.

فضل الكتابة

ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة، والحكم المخطوطة الـتي تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم، ولغلَب سُلطانُ النِّسـيانِ سـلطانَ الـذكْر، ولَمَـا كـان للنـاس مفـزعٌ إلـى موضـعِ استذكار، ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنَّ مقـدار حفْظ الناسِ لعواجـل حاجـاتهم وأوائلهـا، لا يَبلـغ مـن ذلـك مبلغـاً مذكوراً ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محمـوداً، ولـو كُلِّـفَ عامّـةُ مَـن يطلـب العلمَ ويصطَنِع الكتب، ألاّ يـزال حافظـاً لفِهرسـت كتبـه لأَعجـزه ذلك، ولكُلِّفَ شططاً، ولَشَغله ذلـك عـن كـثيرٍ ممّـا هـو أولـى بـه، وفهمُـك لمعـاني كلامِ النـاس، ينقطـع قبـل انقطـاعِ فهْـمِ عيـن الصوتِ مجرَّداً، وأَبعَدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعامِلـك والمعـاوِنِ

لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمَتاً ونـداءً خالصـاً، ولا يكـون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدَّلالة، فجعل اللفـظ لأقرَب الحاجاتِ، والصوتَ لأنفَسَ من ذلك قليلاً، والكتـابُ للنـازح من الحاجاتِ، فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها: رَفْعُ الحواجبِ، وكسـرُ الأجفـان، ولـيُّ الشِّـفاهِ وتحريـك الأعنـاق، وقبْـض جلـدةِ الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل، تُجاهَ عينِ الناظر، ثمَّ ينقطع عملُها ويدرُس أثرهـا، ويمـوت ذكرهـا، ويصـير بعـدُ كـلُّ شيءٍ فضَل عن انتهاء مدَى الصوت ومنتهى الطرف، إلى الحاجـة وإلى التفـاهم بـالخطوطِ والكتـب، فـأيُّ نفـع أعظـمُ، وأيُّ مِرْفَـقٍ أعوَنُ من الخطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا وليس للعَقْد حظٌّ الإشـارةِ في بُعد الغاية.

فضل القلم

فلذلك وضع اللّه عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونـوَّه بـذِكره فـي المنْصِـب الشـريف حيـن قـال "ن وَالْقَلَـمِ وَمَـا يَسْـطُرُونَ" فأقسَـمَ بـالقَلَم كمـا أقسـمَ بمـا يُخَـطُّ بـالقلم؛ إذ كـان اللسـانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعْدَ

غايتِه، لكنْ لما أَنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائِر الأماكن، وكانت الحاجَةُ إلى بيـانِ اللسـانِ حاجـةً دائِمـة واكدة، وراهِنةً ثابِتة، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ القلم أمراً يكونُ في الغَيبة وعند النائبة، إلاَّ ما خُصَّت بـه الـدواوين؛ فـإِنّ لسـانَ القلـم هناك أبسَطُ، وأثرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدَّموا اللسانَ على القلم.

فضل اليد

فاللسـانُ الآنَ إنَّمـا هـو فـي منـافع اليـدِ والمرافـق الـتي فيهـا، والحاجـاتِ الـتي تبلُغهـا، فمـن ذلـك حظُّهـا وقِسْـطُها مـن منـافع الإشارة، ثم نَصِيبُها في تقويم القلم، ثم حَظُّهـا فـي التصـوير، ثـم حَظُّها في الصناعات، ثم حَظُّها في العَقْد، ثم حَظُّها في الدَّفْع عن النفس، ثمَّ حَظُّها فـي إيصـال الطعـام والشـراب إِلـى الفـم، ثـم التوضُّؤ والامتساح، ثـم انتقـادِ الـدنانيرِ والـدراهمِ ولُبـسِ الثِّيـاب، وفـي الـدفع عـن النفـس، وَأَصْـنَافِ الرَّمْـي، وأصـنافِ الضـرْب، وأصناف الطعْن، ثم النَّقْرِ بالعُود وتحريكِ الوتر؛ ولولا ذلـك لبَطَـل الضرْبُ كلُّه أو عامَّتُه، وكيف لا يكون ذلك كذلك ولها ضَرْبُ الطبْل والدُّفّ، وتحريكُ الصـفَّاقَتين، وتحريـك مخـارِق خـروق المزاميـر،

وما في ذلك من الإطلاق والحبس، ولو لم يكنْ في اليدِ إلاَّ إمساكُ العِنان والزِّمام والخِطام، لكانَ من أعظمِ الحظوظ، وقد اضطرَبوا في الحكْم بين العَقْد والإشارة، ولولا أنّ مغْزانا في هذا الكتابِ سوى هذا الباب، لقد كانَ هذا ممَّا أُحِبُّ أن يعرفَه إخوانُنَا وخلطاؤنا، فلا ينبغي لنا أيضاً أن نأخذ في هذا الباب من الكلام، إلاّ بعدَ الفَراغ ممَّا هو أولى بنا منه، إذ كنتَ لم تنازِعني، ولم تَعِبْ كتبي، من طريقِ فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإنَّما قَصَدْنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب.

فضل الكتاب

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوِجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه، ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبّاً، ووِرُوده خِمْساً، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك.

والقلمُ مكتفٍ بنفْسه، لا يحتـاج إلـى مـا عنـدَ غيـرِه؛ ولا بـدَّ لبيـان اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهمـوا عنـك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل فـي بـاب العـامّ، إلاّ أنّه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفـي خـاصُّ الخـاصّ بـاللفظ عمَّـا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقـاتُ الـتي بينـه وبيـن أخـصِّ الخـاصّ.

والكتابُ هو الجليس الـذي لا يطريـك، والصـديق الـذي لا يغْريـك، والرفيق الذي لا يملُّكَ، والمستَمِيح الذي لا يستَريثُك، والجارُ الذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ مـا عنـدَك بـالملَق، ولا يعامِلُك بـالمَكر، ولا يخـدَعك بالنِّفـاق، ولا يحتـالُ لـك بالكَـذِب، والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطـالَ إمتَاعَـك، وشـحَذَ طباعَـك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح نفسَـك، وَعمَّـر صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملوك، وعَرفـتَ بـه فـي شهر، ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجـال فـي دهْـر، مـع السـلامةِ مـن الغُرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوفِ ببـاب المكتِسـب بـالتعليم، ومِن الجُلوس بين يَـديْ مَـن أنـت أفضـلُ منـه خُلُقـاً، وأكـرمُ منـه عِرْقـاً، ومـع السـلامةِ مـن مجالَسَـة الْبُغَضـاء ومقارنـةِ الأغبيـاء.

والكتابُ هو الذي يُطِيعُـك بالليـل كطـاعته بالنهـار، ويطيعُـك فـي

السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعتَرِيه كَلالُ السهرِ، وهو المعلِّمُ الذي إن افتقرتَ إليـه لـم يُخْفِـرْك، وإن قطعـتَ عنـه المادَّة لم يقطعْ عنك الفائـدة، وإن عُزِلـتَ لـم يَـدعْ طاعتَـك، وإن هبَّتْ ريحُ أعادِيك لم ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ منـه متعلِّقـاً بسـبب أو معتصماً بأدنى حبْل، كان لك فيه غنًى من غيره، ولـم تَضْـطَرَّك معه وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السـوء، ولـو لـم يكـن مِـن فضْـله عليـك، وإحسـانِه إليـك، إلاّ منعُـه لـكَ مـن الجلـوس علـى بابـك، والنظرِ إلى المارَّةِ بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقـوقِ الـتي تَلزَم، ومن فُضولِ النظَر، ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيـك، ومِـن ملابسـةِ صـغارِ النـاس، وحضـورِ ألفـاظهم السـاقطة، ومعـانيهم الفاسِدة، وأخلاقهم الرديَّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكـان فـي ذلـك السلامة، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصل، مع استفادةِ الفـرع، ولـو لـم يكن في ذلك إلاّ أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما أشبهَ اللعـب، لقـد كـان علـى صـاحبه أسـبَغَ النعمـــــــــــــةَ وأعظَـــــــــــــمَ المِنَّـــــــــــــة.

وقـد علمنـا أنَّ أفضـلَ مـا يقطـع بـه الفُـرَّاغ نهـارَهم، وأصـحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلِهم، الكتاب، وهو الشـيء الـذي لا يـرى لهـم

فيه مع النيل أثرٌ فـي ازدِيـاد تجربـةٍ ولا عقـلٍ ولا مـروءة، ولا فـي صونِ عرض، ولا في إصلاحِ دِين، ولا في تثميـر مـال، ولا فـي رَبِّ صـنيعة ولا فـي ابتـداء إنعـام.

أقوال لبعض العلمـاء فـي فضـل الكتـاب وقـال أبـو عبيـدة، قـال المهلَّب لبنِيه في وصيَّتِه: يا بَنيَّ لا تقومـوا فـي الأسـواقِ إلاّ علـى زَرَّادٍ أَو وَرَّاق.

وحدَّثني صديقٌ لي قال: قرأتُ على شـيخٍ شـاميٍّ كتابـاً فيـه مِـن مـآثر غطفـان فقـال: ذهبَـت المكـارمُ إلاّ مـن الكتـب.

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غَبَرتُ أربعين عامـاً مـا قِلْـتُ ولا بِـتُّ ولا اتكـأت إلاّ والكتـابُ موضـوعٌ علـى صـدري.

وقال ابن الجهْم: إذا غشِيَني النعاس في غير وقـتِ نـوم - وبئـس الشـيءُ النـومُ الفاضِـلُ عـن الحاجـة - قـال: فـإذا اعـتراني ذلـك تناولتُ كتاباً من كتب الحِكَم، فأجـدُ اهـتزازي للفوائِـد، والأريحيَّـة التي تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة، والـذي يغشَـى قلْبي مـن سرور الاستبانة وعزِّ التبيين أشدَّ إيقاظاً مِن نَهيـق الحميـر وهَـدَّةِ الهـدْم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجـوتُ منـه

الفائدة ورأيتُ ذلك فيه - فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقِهِ مخافَةَ استنفاده، وانقطاعِ المادَّة من قَلْبِه، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثير الورق، كثير العدد - فقد تَمَّ عيشي وكَمُلَ سروري.

وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه، فقال ابن الجهم: لكنِّي ما رغّبني فيه إِلاّ الذي زهّدك فيه؛ وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخْلاني من فائدة، وما أُحصِي كم قرأتُ من صغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلت.

وقال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ نَظَر في كتابِ الإقليدس مع جارية سَلْمَويه في يومٍ واحد، وساعة واحدة، فقد فرغتِ الجاريةُ من الكتابِ وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة، على أنَّه حُرٌّ مخيَّر، وتلك أمَةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءةِ الكتاب مِن سَلْمَوَيهِ على تعليمِ جارية، قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أنّه لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأُرَاك تزعم أنّه قد فرغ من مقالة قال العتبي: وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدب؟ قال: لأنِّي سمعتُه يقول لابنِه: كم أنفقتَ على كتابِ كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنَّما رَغّبَني في العلم أنّي ظننتُ أنّي

أنفق عليه قليلاً وأكتسِب كثيراً، فأمّا إذا صرتُ أنفِق الكثيرَ، وليس في يدي إلاّ المواعيدُ، فإنّي لا أريد العلمَ بشيء.

السماع والكتابة

فالإنسان لا يعلمُ حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه؛ ولا يعلمُ، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلَف إليه، حتى يكون الإنفاقُ عليه من ماله، ألذَّ عندَه من الإنفاق من مال عدوِّه، ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب، ألذَّ عنده مِن إنفاق عُشَّاق القيان، والمستهتَرين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضِيّاً، وليس يَنتفِع بإنفاقِه، حتَّى يؤثِر اتِّخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابي فرسَه باللبن على عياله، وحتَّى يؤَمِّل في العلم ما يؤَمِّل الأعرابي في فرسه، - حرص الزنادقة على تحسين كتبهم. وقال إبراهيم بن السِّنديّ مرة: ودِدْتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبرِ الأسودِ المشرِق البرَّاق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنِّي لم أَرَ كورَق كتبِهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطّاً، وإذا غرِمتُ مالاً عظيماً - مع حبِّي للمال وبُغْضِ الْغُرْم - كان سخاءُ النفس

بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيمِ العلمِ، وتعظيمُ العلم دليل علـى شـرف النفـس، وعلـى السـلامَة مـن سُـكْر الآفـات، قلـت لإبراهيم: إنّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البِيَع، ولو كـانت كتـبُ الزنادقـةِ كتـبَ حكـمٍ وكتـبَ فلسـفة، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ وتبيُّنٍ وتبيين، أو لو كانت كتُبهم كتباً تُعـرِّف الناسَ أبوابَ الصِّـناعات، أو سُـبُلَ التكسُّـب والتجـارات، أو كتـبَ ارتفاقـاتٍ ورياضـاتٍ، أو بعـض مـا يتعاطـاه النـاسُ مـن الفطـن والآداب - وإنْ كان ذلـك لا يقـرِّب مـن غِنًـى ولا يُبْعِـد مـن مـأثَم - لكانوا ممَّن قد يجـوز أن يُظَـنَّ بهـم تعظيـمُ البيـان، والرغبـةُ فـي التبيُّن، ولكنَّهم ذهبوا فيهـا مـذهبَ الدِّيانـة، وعلـى طريـقِ تعظيـم المِلّة، فإنّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجـوس علـى بيـت النـار، وكإنفاقِ النصارَى على صُلْبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سَـدَنةِ البِدَدَة، ولـو كـانوا أرادوا العلـمَ لكـان العلـمُ لهـم مُعرضـاً، وكتـبُ الحكمة لهم مبذولةً، والطرقُ إليهـا سـهْلةً معروفـة، فمـا بـالُهُم لا يصـنعون ذلـك إلاّ بكتُـب ديانـاتهم، كمـا يزخـرفُ النصـارى بيـوتَ عباداتهم ولو كان هذا المعنى مستحسَناً عند المسلمين، أو كــانوا يرون أنّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ على الخُشوع، لبلَغُوا فــي

ذلـــك بعَفْـــوهم، مـــا لا تبلُغُـــه النصـــارى بغايـــة الجَهْـــد.

مسجد دمشق وقد رأيتُ مسجِدَ دِمَشْق، حين استجاز هذا السبيل مِلِكٌ من ملوكها، ومَنْ رآه فقد علم أنّ أحداً لا يرومه، وأنَّ الـرومَ لا تسخوا أنفُسهم به، فلمَّا قام عمرُ بنُ عبد العزيز، جَلَّله بالجِلال، وغَطَّاه بالكرابيس، وطبَخَ سلاسلَ القناديلِ حتَّى ذهـب عنهـا ذلـك التلألؤُ والبريق؛ وذهب إلى أنّ ذلك الصنيعَ مجانِبٌ لسنَّة الإسـلام، وأنَّ ذلـك الحُسـنَ الرائـعَ والمحاسـنَ الـدِّقاق، مَذهَلـةٌ للقلـوب، وَمشغَلةٌ دونَ الخشوع، وأنّ البالَ لا يكون مجتمِعـاً وهنـاك شـيء يفرِّقـــــــــــه ويعـــــــــــــترض عليـــــــــــــه.

صفة كتب الزنادقة والذي يدلُّ على ما قلنا، أنّه ليس فـي كتبهـم مثلٌ سائر، ولا خبرٌ طَريـف، ولا صـنعةُ أدبٍ، ولا حكمـةٌ غرِيبـة، ولا فلسفةٌ، ولا مسألةٌ كلاميَّة، ولا تعريفُ صِـناعة، ولا اسـتخراجُ آلـة، ولا تعليمُ فِلاحةٍ، ولا تدبير حرب، ولا مقارَعة عن دِين، ولا مناضَــلة عن نِحْلة، وجُلُّ ما فيها ذِكـر النـور والظلمـة، وتناكُـحُ الشـياطين، وتسـافُدُ العفـاريت، وذكـر الصـنديد، والتهويـل بعمـود السـنخ، والإخبار عـن شـقلون، وعـن الهامـة والهمامـة، وكلُّـه هَـذْرٌ وعِـيٌّ وخُرافة، وسُخْريَة وتكذُّب، لا ترى فيه موعظـةً حسـنة، ولا حـديثاً

مُونِقاً، ولا تدبيرَ مَعاشٍ، ولا سياسةَ عامة، ولا ترتيبَ خاصَّـة، فـأيُّ كتـابٍ أجهـلُ، وأيُّ تـدبيرٍ أفسـدُ مـن كتـابٍ يـوجِب علـى النـاس الإطاعة، والبخوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبَّة، وليس فيه صلاحُ مَعـاشٍ ولا تصـحيحُ ديـن؟ والنـاسُ لا يحبُّـون إلا دينـاً أو دنيا: فأمَّا الدّنيا فإقامةُ سوقها وإحضار نفعها، وأما الدِّين فأقلُّ مـا يُطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصَّة، أنْ يصوَّر في صورةٍ مغلِّطة، ويموَّهَ تمـويهَ الـدِّينارِ الْبَهْـرَج، والـدرهمِ الزائـف الـذي لا يغلط فيه الكثير، ويعرفُ حقيقته القليل، فليس إنفاقُهم عليها من حيثُ ظننت، وكلُّ دين يكون أظهر اختلافاً وأكثرَ فساداً، يحتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له والتغليظ فيـه إلـى أكـثر، وقـد علمْنا أنَّ النصرانيَّةَ أشدُّ انتشاراً من اليهوديَّة تعبداً، فعلى حسـب ذلك يكون تزيُّدُهم في توكِيده، واحتفالُهم في إظهار تعليمه.

فضل التعلم

وقال بعضهم: كنتُ عندَ بعضِ العلماء، فكنتُ أكتب عنه بعضاً وأدَعُ بعضاً، فقال لـي: اكتـبْ كـلَّ مـا تسـمعُ، فـإن أخـسَّ مـا تسـمعُ خيـرٌ مـن مكـانه أبيـض.

وقـال الخليـل بـن أحمـد: تكثَّـرْ مـن العلـم لتعـرِف، وتقلّـلْ منـه لتحفَـظ.

وقـــال أبـــو إســـحاق: القليـــل والكـــثير للكتـــب، والقليـــلُ وحـــدَه للصـــدر.

وأنشد قول ابن يَسِير:

أعِي كلَّ ما أسمَـع ... وأحفَظُ من ذاكَ ما أجمعُ
أستَفِدْ غَيْرَ ما قد جمع ... لَقِيلَ هو العالِم المِصقَع
نفسي إلى كـلّ نـو ... عٍ من العلم تسمعُه تنـزِعُ
أحفظُ ما قد جَمـع ... تُ ولا أنا مِن جَمعه أشبعُ
بالعِيِّ في مجلسي ... وعِلميَ في الكُتْبِ مستودَعُ
يكُ في علمِه هـكـذا ... يكنْ دهرَهُ القهقَرَى يرجِعُ
تكنْ حافظـاً واعـياً ... فجمعُك للكِتبِ لا ينـفـع

التخصص بضروب من العلم وقال أبو إسـحاق: كلَّـفَ ابـنُ يسـيرٍ الكتـبَ مـا ليـس عليهـا، إن الكتـبَ لا تحيـي المـوتَى، ولا تحـوِّل الأحمقَ عاقلاً، ولا البليد ذكِيّـاً، ولكـنَّ الطبيعـةَ إذا كـان فيهـا أدنـى قَبُول، فالكتبُ تشحَذُ وتَفتِق، وتُرهِف وتَشفي، ومن أرادَ أن يعلـمَ كلَّ شيء، فينبغي لأهلِهِ أن يداووه فإنّ ذلك إنما تصوَّرَ لـه بشـيءٍ اعتراه فَمنْ كان ذكيّـاً حافظـاً فليقصِـد إلـى شـيئين، وإلـى ثلاثـة أشياء، ولا ينـزِع عـن الـدرس والمطارَحَـة، ولا يـدعُ أن يمـرَّ علـى سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدَر عليه من سـائر الأصـناف، فيكون عالماً بخواصّ، ويكون غيرَ غفلٍ مـن سـائرِ مـا يجـري فيـه الناسُ ويخوضون فيه، ومن كـان مـع الـدرس لا يحفـظ شـيئاً، إلاَّ نسيَ ما هو أكثرُ منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

جمع الكتب وفضلها

وحدَّثني موسى بنُ يحيى قال: ما كان في خِزانـةِ كتـبِ يحيـى، وفـــي بيـــت مدارســـه كتـــابُ إلاّ ولـــه ثلاثُ نســـخ. وقال أبو عمرو بنُ العلاء: ما دخلتُ علـى رجـل قـطُّ ولا مـررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفترٍ وجليسُه فارغُ اليـد، إلاّ اعتقـدتُ أنَّـه أفضلُ منه وأعقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: قِيـل لنـا يومـاً: إنّ في دار فلانٍ ناساً قد اجتمعوا علـى سَـوءة، وهـم جُلـوسٌ علـى خميرة لهم، وعندهم طُنبُـورٌ، فتسـوَّرنا عليهـمْ فـي جماعـةٍ مـن رجالِ الحيِّ، فإذا فتىً جالسٌ في وسط الـدار، وأصـحابُه حـوله، وإذا همْ بِيضُ اللِّحَى، وإذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شـعر، فقـال الذي سعى بهم: السَّوءة في ذلـك الـبيت، وإنْ دخلتمـوه عثَرتـم عليها فقلت: واللّه لا أكشفُ فتىً أصحابُه شيوخ، وفي يده دفـترُ علم، ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بنِ زكريَّاء وأنشـد رجـلٌ يُـونُسَ النحويَّ:

استودَعَ العلمَ قرطاساً فضيّعَـه ... فَبِئْسَ مستودَعُ العلمِ القراطيسُ

قال، فقال يونس: قاتَلَه اللّه، ما أشدَّ ضَنانَتَه بالعلم، وأحسنَ صِيانته له، إنَّ علمَك مِن روحِك، ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ بمكان الرُّوح، وضعْ مالَكَ بمكان البدن!.

وقيل لابن داحة - وأخرجَ كتابَ أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفيَّة، ودَفَّتَين طائفيّتَين، بخطٍّ عجيب - فقيل له: لقد أُضيع من تجوَّدَ بشعر أبي الشمَقْمق فقال: لا جرم واللّه إنَّ العلمَ ليُعطيكم على حسابِ ما تعطونه، ولو استطعتُ أن أودِعَه سُويداءَ قلبي، أو أجعلَه محفوظاً على ناظري، لفعلت.

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمْرته، فرأيتُ السِّماطَين والرجالَ مُثُولاً كأَنَّ على رؤوسهم الطير، ورأيتُ فِرْشَتَه وبِزَّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيتِ كتبِه، وحوالَيه الأسفاطُ والرُّقوق، والقماطِرُ والدفاتِر والمَساطر والمحابر، فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزَل منهُ في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَة المحبَّة، ومع الفَخامة الحَلاوة، ومع السُّؤدَد الحِكْمة.

وقال ابن داحة: كان عبدُ اللّه بنُ عبدِ العزيز بنِ عبد اللّهِ بن عمر بن الخطَّاب، لا يجالِسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبُرَةً من المقابر، وكان لا

يكادُ يُرى إلاَّ وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئِل عن ذلك، وعن نزولِه المقبُرة فقال: لم أرَ أَوْعظَ من قبر، ولا أمتَع من كتاب، ولا أسلَمَ من الوَحدة، فقيل له: قد جاء في الوَحدة ما جاء فقال: ما أفسَدَها للجاهِل وأصلحها للعاقل.

منفعة الخط

وضروبٌ من الخُطوطِ بعد ذلك، تدلُّ على قدرِ منفعَة الخطِّ. قال اللّه تبارَك وتعالى "كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون" وقال اللّه عزّ وجلَّ "فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بأَيْدِي سَفَرَةٍ" وقال "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه" وقال "وَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ" وقال "اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً". ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نِسيانٌ، ولكنَّه تعالى وعزَّ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه، أوكَدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور. وخط آخر، وهو خطُّ الحازي والعرَّاف والزَّاجِر. وكان فيهم حليس الخطَّاط الأسديّ، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم:

عضاريط الخَمِيسِ إذا غَناؤكم تِلْكَ الأخاطيطُ في التُّرْبِ

وخُطوطٌ أخَر، تكون مستراحاً للأسيرِ والمهموم والمفكِّر، كما يعتري المفكر من قَرْعِ السنِّ، والغضبانَ من تصفيقِ اليد وتجحيظ العين. وقال تأبَّطَ شَرَّاً:

لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السنَّ مِنْ نَدَمٍ تذكَّرتِ يوماً بعضَ أخلاقي

وفي خطِّ الحزينِ في الأرض يقول ذو الرُّمَّة:

ما لِي حِيلةٌ غيرَ أَنَّنِي الْحَصَى والخطّ في الدارِ مُولَعُ
وأَمحو الخطَّ ثم أُعِيدُه والغِرْبانُ في الدارِ وُقَّعُ

وذكر النابغةُ صنيعَ النساءِ، وفزَعَهنَّ إلى ذلك، إذا سُبِين واغتربن وفكّرن، فقال:

ويخْططْنَ بالِعيدانِ في كلِّ ويَخبَأنَ رُمَّانَ الثُّدِي النـواهـدِ

وقد يفزع إلى ذلك الخَجِلُ والمتعلِّل، كما يفزع إليه المهمومُ وهو قولُ القاسم ابن أمية بن أبي الصَّلْت:

ينقرون الأرضَ عند سُؤالهِم لتلمُّسِ العِلاَّتِ بـالـعِـيدانِ
يبسُطون وجوهَهم لها عندَ اللقاء كأحسَـنِ الألـوانِ

وقال الحارث بن الكِنْديّ، وذكرَ رجلاً سأله حاجةً فاعتراه العبثُ بأسنانه، فقال:

بكَفِّهِ يحتَكُّ ضِرساً يُرِينَا أنَّهُ وَجِعٌ بضِرْسِ

وربما اعتَرى هؤلاء عدُّ الحصى، إذا كانوا في موضعِ حصى، ولم يكونوا في موضـع تـراب، وهـو قول امرئ القيس:

رِدَائِي فوقَ رَأسِيَ أعدُّ الحصَى ما تَنْقَضِي حَسَراتِي

وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت:

جَارِياً وبيتـاً عِـلـيّاً يعتري المعتَفين فضلُ نداكا
تراخ من المكارم جَزْلٍ لم تعلِّلهمُ بلَقْطِ حَصاكَـا

وقال الآخر، وهو يصِف امرأةً قُتِل زوجُها، فهي محزونة تلقط الحصى:

مكسال كأنَّ وشاحَـهـاأمِّ أحوى المُقْلَتَـين خَـذُولِ
لها منْ زوجَها عَدَدَ الحصى الصُّبح أو في جُنحِ كلِّ أصيلِ

يقول: لم أُعْطِهَا عقْلاً عن زوجها، ولم أُورثها إلاّ الهمَّ الذي دعاها إلى لقط الحصى، يخبر أنَّـه لمنِعَتِـه، لا يُوصَـل منـه إلـى عقـلٍ ولا قَوَد.

أقوال الشعراء في الخط

وممّا قالوا في الخطّ، ما أنشدنا هشامُ بن محمد بن السائب الكلبي قال: قـال المقنَّع الكنـديُّ في قصيدةٍ له مدح فيها الوليدَ بنَ يزيد:

في كُتُبِ الغلام أجـادَه بِمداده، وأسَدَّ مـن أقـلامـهِ
كخُرطوم الحمـامـةِ مـائلٌ مُستَحفِظٌ للعلم من عـلاّمِـه
الحروفَ إذا يشاءُ بناءَها لبيانِها بالنَّقط مـن أرسـامـهِ
صُوفةٍ نَفث المداد سُخامـه حتى تغيَّرَ لونُها بسُـخـامِـه
فيُقْصَمُ من شَعيرة أنفِـه كقُلاَمة الأُظْفُورِ من قلاّمِـه
شَقٌّ تلاءَم فـاسـتَـوى سُقِيَ المدادَ، فزاد في تَلآمِـه
مُسْتعجِمٌ وهو الفصِيحُ بكلِّ مـا نطق اللسانُ به على استعجامِه
تراجِمةٌ بألـسـنـةٍ لـهـمْ تبيانُ ما يَتلُونَ من تَرجَـامِـه
من شيءٍ به كـتّـابـه إن يبوحُ به على استكتامِه
وهجاؤه قاف ولام بـعـدهـا ميم معلّقةٌ بـأسـفـلِ لامِـه

ثم قال:

لجارتها الغـزَيِّلُ إذ رأت وجهَ المقنَّع من وراءِ لِثامِـه
أبيضَ فاعـتـراه أدْمَةٌ فالعينُ تُنكره من ادْهِيمـامِـه
بُويزِل عامِها مهـرّية اليدينِ ومن بُويزِل عامِه
الوليدُ برَحْلها وزمامها وكذاكَ ذاكَ برَحلِهِ، وزِمامـه
وقويرحٍ عـتـدٍ أُعِـدَّ لِـنـيِّهِ اللَّقُوحِ فعادَ مِلءَ حِزامِهِ
الوليدُ بسَرْجها ولجامها وكذاك ذاكَ بسَرجه، ولِجَامـه
المقنّع للوَليدِ قـصـيدةً كالسيفِ أُرهِف حدُّه بحُسامه
المآثرُ في قريشٍ كلِّـهـا الخِلافةُ بعد موتِ هشامِه

وقال الحسن بن جَماعةَ الجُذامِيُّ في الخطّ:

بِسِرِّي بَـاتَ يُرقِـلُ عـالـمٌ الصدى مُحرورِفُ السِّنِّ طائعُ
بما يُوحَـى إليـه ومـا لَـهُ لسانٌ ولا أُذْنٌ بهـا هُـوَ سـامـعُ
ضميرَ القلـبِ بـاح بِـسـرِّه ديه، إذا ما حَثْحَثَتْهُ الأصـابـعُ

رِيقةٌ من غـير فـرثٍ تـمـدُّه مِنْ ضُلوعٍ صفَّقتها الأضالِـعُ

وقال الطائيُّ، يمدح محمَّدَ بن عبدِ الملك الزَّيات:

برِحتْ صُوراً إليكَ نـوازِعاً لَهَا مُذْ راسلَـتـك الـرسـائل

القلمُ الأعلى الذي بشـبـاتـه يُصَابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ

الخَلواتُ اللاءِ لولا نـجـيُّهـا لما احتفلت للمُلْكِ تلك المحـافـلُ

الأفاعي القـاتـلات لُعابُه وأَرْيُ الجَنَى اشتارَتْه أيدٍ عَـواسِـلُ

رِيقَةٌ طـلٌّ ولـكـنَّ وقـعَـهـا بآثارِها في الشرقِ والغـرب وابـلُ

إذا استنطقْتَـه وهـو أعـجـمُ وإن خاطبـتَـه وهـو راجِـلُ

امتطى الخمسَ اللِّطَافَ وأُفرغت شِعابُ الفكرِ وهـي حَـوافِـلُ

أطاعَتْه أطرافُ القَنـا وتـقـوَّضَـتْ لنَجواه تقويضَ الخيام الـجَـحـافـلُ

استغزر الذهن الجلِيّ وأقـبـلـتْ في القِرطاس وهي أسـافـلُ

رِفدته الخِـنْـصَـران وسـدَّدت ثلاثَ نواحِـيه الـثـلاثُ الأنـامِـلُ

جليلاً شأنُـهُ وهـو مُـرْهَـفٌ وسميناً خَطْبُه وهـو نـاحـلُ

ابنَ أبي مـروانَ أمَّا فذانٍ وأمَّا الحـكـمُ فـيه فـعـادلُ

وقد ذكر البُحتُريُّ في كلمةٍ له، بعض كهولِ العسكر، ومن أنبَـلِ أبناء كتّابهم الجِلّة فقال:

دجَتْ أقلامُه ثم انتـحَـتْ مصابيحُ الدُّجَى في كتبه

الكتابات القديمة

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقة مُرَكَّبةً في البُنْيان، فربَّما كان الكتابُ هو الناتئ، وربّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمر جَسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبَّةُ غُمْدَان، وعلى باب القَيرُوان، وعلى باب سَمَرْقَند، وعلى عمود مأرِب، وعلى ركن المشقَّر، وعلى الأبلَق الْفَرْد، وعلى باب الرُّها، يعمِدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعدِ المواضع من الدُّثور، وأمنَعِها من الدروس، وأجدرَ أَنْ يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالفات

وأقول: لولا الخطوطُ لبطَلت العهودُ والشروطُ والسِّجِلاَّتُ والصِّكاك، وكلُّ إقطاعٍ، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ جِوارٍ وحِلف، ولتعظيمِ ذلك، والثقة به والاستنادِ إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهليَّةِ مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحِلْف والهُدْنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال الحارثُ بن حِلِّزة، في شأنِ بكرٍ وتغلب:

واذكرُوا حِلْفَ ذِي المَجَازِ وما قُدِّمَ فيه العهودُ والكفلاءُ
الجَورِ والتَّعدِّي وهلْ يَنْقُضُ ما في المَهارِقِ الأهواءُ

والمهارق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مَهارقُ حتَّى تكونَ كتبَ دينٍ، أو كتبَ عهودٍ، ومِيثاقٍ، وأمان.

الرقوم والخطوط

وليس بين الرُّقومِ والخطوط فَرق، ولولا الرقوم لهلـكَ أصـحابُ البَـزِّ والغُـزول، وأصـحابُ السـاجِ وعامَّـةِ المتـاجر، وليـسَ بيـنَ الوُسومِ التي تكون على الحافر كلِّـه والخـفِّ كلِّـه والظِّـلـفِ كلِّـه، وبيـن الرقـومِ فـرق، ولا بيـنَ العقـودِ والرقـوم فـرق، ولا بيـن الخطوط والرقوم كلُّها فرق، وكلُّها خطوط، وكلها كتـابٌ، أو فـي معنى الخطِّ والكتاب، ولا بين الحروف المجموعةِ والمصورَّةِ مـن الصوت المقطَّع في الهواء، ومن الحـروف المجموعـة المصـوّرة من السواد في القرطاس فرق واللسان: يصنَع فـي جَوبـة الفـمِ وهوائه الذي في جـوفِ الفـم وفـي خـارجه، وفـي لَهـاته، وبـاطنِ أسـنانه، مثـلَ مـا يصـنع القلـمُ فـي المـدادِ واللِّيقـة والهـواءِ والقرطاسِ، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل، ودَلالات، فيعـرف منها ما كانَ في تلك الصُّوَر لكثرةِ تَردادها على الأسـماع، ويعـرف منها ما كان مصوَّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصـار،

كما استدلُّوا بالضَّحك على السـرور، وبالبكـاء علـى الألـم، وعلـى مثل ذلكَ عرفوا معاني الصوتِ، وضروبَ صورِ الإشـارات، وصـورِ جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لقَبه، والكلـبَ اسـمَه، وعلـى مثل ذلك فهم الصـبيُّ الزجـرَ والإغـراء، ووعـى المجنـون الوعيـد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدّ حُضْرُ الدابّة مع رفـع الصـوت، حتّـى إذا رأى سائسَـه حمحـم، وإذا رأى الحمـامُ القيِّـمَ عليـه انحـطَّ للقـطِ الحبّ، قبل أن يُلِقيَ له ما يلقطه، ولولا الوسومُ ونُقُوش الخواتم، لدخل على الأموالِ الخلـلُ الكـثير، وعلـى خزائـنِ النـاس الضـررُ الشديد.

الخط والحضارة

وليس في الأرض أمّةٌ بها طِرْق أَوْ لها مُسْكَة، ولا جيلٌ لهم قبـضٌ وبسْط، إلاّ ولهم خطّ، فأمّا أصحاب الملك والمملكـة، والسـلطانِ والجِبايـة، والدِّيانـة والعبـادة، فهنـاك الكتـابُ المتقَـن، والحسـاب المحكَم، ولا يخرج الخطُّ من الجزْم والمسـنَد المنمنـم والسـمون كيـف كـان، قـال ذلـك الهيثـمُ بـن عـدي، وابـن الكلـبي. تخليد الأمم لمآثرها قال: فكـلُّ أمّـةٍ تعتمـدُ فـي اسـتبقاءِ مآثرهـا،

وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكل من الأشـكال. تخليـد العـرب لمآثرهـا وكـانت العـربُ فـي جاهليَّتهـا تحتـال فـي تخليـدها، بـأن تعتمـد فـي ذلـك علـى الشـعر المـوزون، والكلام المقفَّى، وكـان ذلـك هـو ديوانهـا، وعلـى أنّ الشـعرَ يُفيـد فضـيلةَ البيانِ، على الشـاعر الراغـب، والمـادح، وفضـيلةَ المـأثُرة، علـى السيِّد المرغوبِ إليه، والممدوحِ به، وذهبت العجَـم عَلَـى أن تقيِّـد مآثرَهـا بالبُنيـان، فبنـوا مثـلَ كـرد بيـداد، وبنـى أرْدشـير بيضـاء إصطَخْر، وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقنـاطر والجسـور، والنـواويس، قـال: ثـمَّ إنّ العـربَ أحبَّـتْ أن تشـارك العجمَ في البناءِ، وتنفـرد بالشـعر، فبنـوا غُمـدان، وكعبـةَ نَجْـران، وقصرَ مارد، وقصر مـأرب، وقصـر شـعوب والأبلـق الفـرد، وفيـه وفي مارد، قالوا تمرَّدَ مارِدٌ وعـزَّ الأبلـق وغيـرَ ذلـك مـن البُنيـان، قال: ولذلك لـم تكـن الفـرسُ تبيـح شـريفَ البُنيـان، كمـا لا تبيـح شـريف الأسـماء، إلاّ لأهـل البيوتـات، كصـنيعهم فـي النـواويس والحمَّامـات والقِبـاب الخضـر، والشُّـرَف علـى حيطـان الـدار، وكالعَقْد على الدِّهليز وما أشبهَ ذلكَ ، فقال بعض من حضر: كُتُـبُ الحكمـاءِ وَمـا دَوَّنـت العلمـاءُ مـن صـنوف البلاغـات والصِّـناعات،

والآداب والأرفاق، من القرون السابقة والأمـم الخاليـة، ومـن لـه بقيَّة ومـن لا بقيّـة لـه، أبقـى ذكـراً وأرفـعُ قـدراً وأكـثر ردّاً، لأنَّ الحكمـةَ أنفـعُ لمـن ورثهـا، مـن جهـة الانتفـاع بهـا، وأحسـنُ فـي الأحدوثـــــــة، لمــــــن أحـــــــبَّ الــــــذكر الجميــــــل.

طمس الملوك والأمراء آثار من قبلهـم والكتـبُ بـذلك أولـى مـن بُنيان الحجارة وحِيطان المدَر؛ لأنَّ من شأن الملـوك أن يطمِسـوا على آثار مَن قبلَهمُ، وأن يُميتوا ذكـرَ أعـدائهم، فقـد هـدَموا بـذلك السبب أكثرَ المدنِ وأكثرَ الحصون، كذلك كانوا أيَّامَ العجَـم وأيَّـامَ الجاهليّـة، وعلـى ذلـك هـمْ فـي أيّـام الإسـلام، كمـا هـدم عُثمـانُ صومعةَ غُمدان، وكما هدمَ الآطامَ التي كانت بالمدينة، وكما هــدم زيادٌ كلَّ قصر ومصنَع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابُنا بناءَ مدن الشامات لبني مروان.

تاريخ الشعر العربي

وأما الشعرُ فحـديثُ الميلاد، صـغير السـنِّ، أوّلُ مـن نَهَـجَ سـبيلَه، وسـهَّل الطريـقَ إليـه: امـرؤ القيس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بنُ ربيعـة، وكُتُـبُ أرِسـطاطاليسَ، ومعلِّمِـه أفلاطـون، ثـم بَطْلَيمـوس، وديمقراطس، وفلان وفلان، قبـلَ بـدِءِ الشـعر بالـدهور قبـلَ الـدهور، والأحقـاب قبـلَ الأحقـاب. ويدلُّ على حداثةِ الشعر، قولُ امرئ القيس بن حُجْر:

عوفٍ ابتَنَوا حسناً ضيّعه الدُّخلُلُون إذ غَدَرُوا
إلى جارهم خفارته يَضِعْ بالمَغيب مَنْ نَصَرُوا
حِمْيَريٌّ وفى ولا عُدَسٌ است عَيرٍ يحكها الثَّفر
عُوَيرٌ وفَى بذمَّتِه لا عابَهُ ولا عَوَرُ

فانظُرْ، كم كان عمرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زُرارة ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام؟ فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له إلى أن جاء اللّه بالإسلام خمسين ومائةَ عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام.

قال: وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب، وعلى من تكلَّم بلسان العرب. والشعر لا يُستطاع أن يترجَم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوِّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه، وذهب حسنُه وسقطَ موضعُ التعجب، لا كالكلامِ المنثور، والكلامُ المنثور المبتدأُ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر.

قال: وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كلِّ ما أقام لهم المعاشَ وبوَّب لهم أبوابَ الفِطَن، وعرَّفهم وجوهَ المرَافق؛ حديثُهم كقديمهِم، وأسودُهم كأحمرِهم، وبعيدُهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملَة لهم.

صعوبة ترجمة الشعر العربي

وقد نُقِلَتْ كتبُ الهند، وتُرجمتْ حكم اليونانيّة، وحُوِّلت آدابُ الفرس، فبعضها ازدادَ حُسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن، مع أنَّهم لو حوَّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكرْه العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكمَهم، وقد نُقِلَتْ هذه الكتبُ من أمَّةٍ إلى أمّة، ومن قَرن إلى قرن، ومِن لسانٍ إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنَّا آخرَ مَنْ ورِثها ونظَر فيها، فقد صحَّ أَنَّ الكتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثِر، من البُنيان والشعر. ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له: إنَّ التَّرجُمان لا يؤدِّي أبداً ما قال الحكيمُ، على خصائِص معانيه، وحقائق مذاهِبه ودقائق اختصاراته، وخفيَّاتِ حدوده، ولا يقدِر أَنْ يوفيها حقوقها، ويؤدِّيَ الأمانة فيها، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجَرِيّ، وكيف يقدِر على أدائها وتسليمِ معانيها، والإخبار عنها على حقِّها وصدقها، إلاّ أَنْ يكونَ في العلم بمعانيها، واستعمالِ تصاريفِ ألفاظِها، وتأويلاتِ مخارجِها ، ومثلَ مؤلِّف الكتاب وواضعِه، فمتى

كان رحمه اللّه تعالى ابنُ البِطرِيق، وابن ناعمة، وابن قُـرَّة، وابـن فِهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفَّع، مثـلَ أرِسـطاطاليس؟ ومتى كان خالدٌ مثلَ أفلاطون؟

قيمة الترجمة

ولا بدَّ للتَّرجُمانَ من أن يكون بيانهُ في نفس الترجمـة، فـي وزْن علمه في نفسِ المعرفـة، وينبغـي أن يكـون أعلـمَ النـاس باللغـة المنقولة والمنقولِ إليها، حتَّـى يكـون فيهمِـا سـواءً وغايـة، ومـتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين، علمنا أنَّه قد أدخلَ الضيمَ عليهمـا، لأنَّ كل واحدةٍ من اللغتين تجـذب الأخـرى وتأخـذُ منهـا، وتعـترضُ عليها، وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكُّنِـه إذا انفـرد بالواحـدة، وإنَّمـا لـه قـوَّةٌ واحـدة، فَـإنْ تكلّـمَ بلغـةٍ واحـدة استُفْرِغَتْ تلك القوَّةُ عليهما، وكـذلك إنْ تكلَّـم بـأكثرَ مِـنْ لغـتين، وعلى حساب ذلك تكون الترجمةُ لجميع اللغات، وكلَّما كانَ البابُ مـن العلـم أعسـرَ وأضـيق، والعلمـاءُ بـه أقـلَّ، كـان أشـدَّ علـى المترجِم، وأجدرَ أن يخطئ فيه، ولن تجد البتَّةَ مترجماً يفِي بواحدٍ من هؤلاء العلماء.

ترجمة كتب الدين

هذا قولُنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتبَ دينٍ وإخبار عن اللّه عزَّ وجلَّ بما يجوز عليه ممَّا لا يجوز عليه، حتىَّ يريد أنْ يتكلَّم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد، ويتكلَّمَ في وجِوه الإخبار واحتمالاته للوُجوه، ويكونَ ذلك متضمِّناً بما يجوز على اللّه تعالى، ممَّا لا يجوز، وبما يجوزُ على الناس مما لا يجوز، وحتَّى يعلمَ مستقرَّ العامِّ والخاصّ، والمقابلاتِ التي تَلقَى الأخبارَ العامِّيةَ المخرَجَ فيجعلَها خاصيَّة، وحتى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر، ممَّا يخصُّه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصُّه العقل مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم، وحتَّى يعرفَ ما يكونُ من الخبر صِدقاً أو كذبا، وما لا يجوز أن يسمَّى بصدقٍ ولا كذب؛ وحتَّى يعرفَ اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أيِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المُحالِ من الصحيح، وأيّ شيءٍ تأويلُ المحال؛ وهل يسمَّى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأيّ القولين أفحشُ:

المُحال أم الكذب، وفي أيِّ موضع يكون المحالُ أَفْظَـع، والكـذب أشنع؛ وحتَّى يعرف المثلَ والبـديع، والـوحي والكنايـة، وفصْـل مـا بيـن الخطَـلِ والهَـذْر، والمقصـورِ والمبسـوط والاختصـار، وحتَّـى يعـرف أبنيـةَ الكلام، وعـاداتِ القـوم، وأسـبابَ تفـاهمِهم، والـذي ذكرنا قليلٌ من كثير، ومتى لـم يعـرفْ ذلـك المـترجم أخطـأَ فـي تأويل كلامِ الدين، والخطأُ في الدين أضرُّ من الخطأَ في الرياضـة والصناعة، والفلسفةِ والكَيْمِياء، وفي بعض المعيشة الـتي يعيـش بهـــــــــــــــــا بنـــــــــــــــو آدم.

وإذا كان المترجِم الذي قد تَرجَم لا يكمل لذلك، أخطـأ علـى قـدْرِ نقصانه من الكمال، وما عِلْمُ المترجِم بالدليل عـن شـبه الـدليل؟ وما علْمه بالأخبار النجوميّة؟ وما علمه بالحدود الخفيّة؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسـخين للكتـب؟ ومـا علمُـه ببعض الخطرفة لبعض المقدَّمات؟ وقد علمنا أنَّ المقدَّمات لا بـدَّ أنْ تكون اضطراريّة، ولا بدَّ أن تكـون مرتَّبـةً، وكـالخيط الممـدود، وابنُ البِطريق وابن قرّة لا يفهمـان هـذا موصـوفاً منـزَّلاً، ومرتَّبـاً مفصَّلاً، من معلِّمٍ رفيقٍ، ومن حاذقٍ طَبٍّ فكيف بكتابٍ قد تداولتْه اللغاتُ واختلافُ الأقلام، وأجنـاسُ خطـوطِ المِلـل والأمـم؟! ولـو

كان الحاذقُ بلسان اليونانيِّين يرمي إلى الحـاذق بلسـان العربيّـة، ثم كان العربيُّ مقصِّراً عن مقدار بلاغة اليونانيّ، لم يجـد المعنـى والناقل التقصير، ولم يَجِد اليونانيُّ الذي لم يـرضَ بمقـدار بلاغتـه في لسان العربيّة بُـدّاً مـن الاغتفـار والتجـاوز، ثـمّ يصـير إلـى مـا يعرض من الآفات لأصناف الناسخين، وذلك أن نسـختَه لا يَعـدَمها الخطأ، ثمَّ ينسخُ له من تلك النسخة مَن يزيـده مـن الخطـأ الـذي يجده في النسخة، ثمّ لا ينقص منه؛ ثـم يعـارِض بـذلك مَـن يـترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاحُ السَّقَط الذي لا يجدُه في نسخته.

مشقة تصحيح الكتب

ولربَّما أراد مؤلِّف الكتـاب أن يصـلِح تصـحيفاً، أو كلمـةً ساقطة، فيكون إنشاء عشرِ ورقاتِ من حرِّ اللفظ وشريفِ المعاني، أيسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يـردَّه إلـى موضـعه مـن اتِّصـال الكلام ، فكيف يُطيق ذلك المعرض المستأجَر، والحكيمُ نفسهُ قـد أعجزه هذا الباب وأعجب من ذلـك أنَّـه يأخـذ بـأمرَين: قـد أصلحَ الفاسدَ وزاد الصالحَ صَلاحاً، ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلـك نسـخةً

لإنسان آخَرَ، فيسير فيه الوَرَّاقُ الثاني سيرَةَ الوَرَّاقَ الأوَّل؛ ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأعْرَاض المفسِدة، حتَّى يصير غَلَطاً صِرفاً، وكذِباً مصَمتاً، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطَّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتابٍ متقادِم الميلاد، دُهْرِيّ الصنعة.

بين أنصار الكتب وأنصار الشعر

قالوا: فكيف تكون هذه الكتبُ أنفعَ لأهلها من الشعر المقفَّى؟

قال الآخر: إذا كان الأمرُ على ما قلتم، والشأنُ على ما نزَّلتم، أليس معلوماً أَنَّ شيئاً هذه بقيَّتُهُ وفضلتُه وسُؤرهُ وصُبَابته، وهذا مظهرُ حاله على شدَّة الضيم، وثبات قوته على ذلك الفسادِ وتداوُلِ النقص، حريٌّ بالتعظيم، وحقيقٌ بالتفضيلِ على البنيان، والتقديمِ على شعرٍ إن هو حُوِّل تهافَتَ، ونفعُه مقصورُ على أهله، وهو يُعدُّ من الأدب المقصور، وليسَ بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحيَّة وليست بحقيقة بيِّنة ، وكلُّ شيءٍ في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دونَ الأشعار، وهاهنا كتبٌ هي بينَنَا وبينكم، مثل كتاب أُقليدِس، ومثل

كتاب جالينوس، ومثل المجسْطي، مّما تولاّه الحَجّاج، وكتبٌ كثيرةٌ لا تحصى فيها بلاغٌ للناس، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغَيَّرة، فالباقي كافٍ شاف، والغائب منها كان تكميلاً لتسلُّط الطبائع الكاملة.

فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعِه إلى حيث انتهى بنا القول.

وحسُبُك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطبّ، والمنطق، والهندسة، ومعرفةِ اللُّحون، والفِلاحة، والتِّجارة، وأبواب الأصباغ، والعِطر، والأطعمة، والآلات، وهم أتَوكم بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمَّامات وفي الأصطرلابات والقَرِسطونات وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج والفُسَيفِساء، والأسرنج والزنجفور واللازَوَرد والأشربة، والأنْبَجَات، والأيارجات ولكم المينا، والنشادر والشَّبَه وتعليق الحيطان والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم، ولهم صبُّ الزردج، واستخراج النَّشَاسْتَج، وتعليق الخَيش، واتِّخاذ الجمَّازات، وعمل الحَرَّاقات، واستخراج شراب الداذِيّ وعمل الدّبابات.

ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل

وكان الحجَّاجُ أوّلَ مَن أجرى في البحـر السفن المقيَّـرة المسـمَّرة غيـرَ المخـرَّزة، والمدهونـة والمسطّحة، وغيرَ ذواتِ الجؤجؤ، وكان أوَّلَ من عمِل المحامل، ولذا قال بعضُ رُجَّاز الأكرياء:

خَلْقٍ عَمِلَ المحامِلا   أخزاَهُ ربِّي عاجلاً وآجِلا

وقال آخر:

أصداغِي فهُنَّ بيضُ   مَحَاملٌ لِقدِّها نَـقِـيضُ

وقال آخر:

أصداغِي فهن بـيَّضُ   مَحَامِلٌ فيها رجال قبَّـضُ

يتكون سنة لم يغرضوا

وقال القوم: لولا ما عرَّفوكم مـن أبـواب الحُمْلانـات لـم تعرفـوا صنعة الشَبَه، ولـولا غَضـارُ الصـين علـى وجـه الأرض لـم تعرفـوا الغَضار، على أَنَّ الذي عَمِلْتُم ظاهرٌ فيه التوليد، منقـوصُ المنفعـة عن تمام الصِّينيّ، وعلى أن الشَّبَهَ لم تستخرجوه، وإنَّما ذلـك مـن الأُمور التي وقعت اتّفاقـاً، لسـقوط النـاطف مـن يـد الأجيـر فـي الصُّفْر الذائب، فَخِفتم إفساده، فلَمَّا رأيتم مـا أعطـاه مـن اللـون عَمِلْتم في الزيادة والنقصان، وكذلك جميعُ مـا تهيَّـأ لكـم، ولسـتم تخرُجـون فـي ذلـك مـن أحـدِ أمرَيـن: إمَّـا أن تكونـوا اسـتعملتم الاشتقاق من علمِ ما أورثوكم، وإمّا أن يكون ذلـك تهيَّـأ لكـم مـن طريق الاتِّفاق!

الجمازات

وقد علمتم أَنَّ أَوَّل شأن الجَمَّازاتِ، أنَّ أُمَّ جعفر أمرت الرحَّـالِينَ أن يَزيـدُوا فـي سـيرِ النجيبـة الـتي كـانت عليهـا، وخـافت فـوتَ الرشيد، فلما حُرِّكـت مشَـت ضـروباً مـن المشـي، وصـنوفاً مـن السير، فجَمزت في خلال ذلك، ووافقـت امـرأةً تحسـن الاختيـار، وتفهـم الأمـور، فوجـدت لـذلك الجمـزِ راحـةً، ومـع الراحـة لـذَّة، فـأمرتْهم أن يسـيروا بهـا فـي تلـك السِّـيرة، فمـا زالـوا يقرِّبـون ويبعِّـدون، ويخطئـون ويصـيبون، وهـي فـي كـلِّ ذلـك تصـوِّبهم وتخطئُهم على قدر ما عرفَـتْ، حـتى شَـدَوا مـن معرفـة ذلـك مـا شَدَوا، ثمَّ إنّها فرّغتهم لإتمـام ذلـك حـتى تـمَّ واسـتوى، وكـذلك لا يخلو جميعُ أمركم، من أن يكون اتِّفاقاً، أو اتِّباعَ أثر.

الترغيب في اصطناع الكتاب

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصـطناع الكتـاب، والاحتجـاج على مَنْ زَرَى على واضِع الكتب، فأقول: إنّ من شكر النعمة فـي معرفـة مغـاوي النـاس ومَرَاشـدِهم، ومضـارِّهم ومنـافِعهم، أن يُحتَمَـل ثِقْـلُ مـؤونتهم فـي تقـويمهم، وأن يُتَـوَخَّى إرشـادُهم وإن

جهِلوا فضلَ ما يُسْدَى إليهم، فلن يُصانَ العلمُ بمثل بذْله، ولن تُستَبقى النعمةُ فيه بمثل نشره، على أَنَّ قراءة الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التّلاقي يشتدُّ التصنُّع، ويكثُر التظالُم، وتُفرط العصبيّة، وتقوَى الحَمِيَّة، وعند المواجَهةِ والمقابلَة، يشتدُّ حبُّ الغلَبة، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفِة من الخضوع؛ وعن جميعِ ذلك تحدُث الضغائن، ويظهرُ التباين، وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفِة وعلى هذه الهيئة، امتنعتْ من التعرُّف، وعمِيت عن مواضع الدلالة، وليست في الكتب عِلَّةٌ تمنَع من دَرْك البُغْية، وإصابة الحجَّة، لأنَّ المتوحِّد بِدَرْسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسَه ولا يغالب عقلَه، وقد عَدِم مَنْ له يُباهي وَمِنْ أجله يغالب.

الكتاب قد يفضل صاحبه

والكتابُ قد يفضلُ صاحبَه، ويتقدَّم مؤلِّفَه، ويرجِّح قلمَه على لسانِه بأمور: منها أنّ الكتابَ يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيه على كلِّ لسان، ويُوجَد مع كلِّ زمان، على تفاوتِ ما بينَ الأعصار،

وتباعُدِ ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب، ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوتِه، وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبُه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره، ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها، ودوَّنت من أنواعِ سِيَرِها، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان علينا، فجمَعنا إلى قليلنا كثيرَهم، وأدركنْا ما لم نكن ندركُه إلاّ بهم، لما حَسُنَ حظُّنا من الحكمة، ولضعُف سبَبُنَا إلى المعرفة، ولو لجأنا إلى قدر قوَّتِنا، ومبلغ خواطرِنا، ومنتهى تجارِبنا لما تدركه حواسُّنا، وتشاهدهُ نفوسنا، لقلَّت المعرفةُ، وسَقَطت الهِمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأيُ عقيماً، والخاطِر فاسداً، ولَكلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل.

أفضل الكتب

وأكثرُ مِنْ كتبهم نفعاً، وأشرف منها خَطَراً، وأحسنُ موقعاً، كتُبُ اللّه تعالى، فيها الهُدَى والرحمة، والإخبارُ عن كلِّ حكمة، وتعرِيفُ كلِّ سيِّئةٍ وحسَنة، ومازالت كتبُ اللّه تعالى في الألواح والصُّحُف،

والمهارِق والمصاحف، وقال اللّه عـزَّ وجـلَّ "الـمَ ذلـكَ الْكِتَـابُ لا رَيْبَ فِيهِ"، وقال: "مَا فَرَّطْنَا في الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ"، ويقـال لأهـل التَّوراةِ والإنْجيل: أهل الكِتاب.

مواصلة السير في خدمة العلم

وينبغي أن يكونَ سبيلُنا لمَنْ بعدَنا، كسـبيلِ مَـن كـان قبلنـا فينـا، على أنَّا وقد وجدْنا من العبرة أكثرَ ممّا وجدوا، كمـا أنَّ مَـن بعـدَنا يجدُ من العِبرة أكثرَ ممّا وجدْنا، فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عندَه، وما يمنَع الناصرَ للحقّ من القيـامِ بمـا يلزمُـه، وقـد أمكـن القـولُ وصلحَ الدهرُ وخوى نجم التَّقِيَّة، وهَبَّتْ رِيحُ العلمـاء، وكسَـدَ العِـيُّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم ؟! وليس يجـدُ الإنسـانُ فـي كل حينٍ إنساناً يدَرِّبه، ومقوِّماً يثقِّفه، والصبرُ على إفهـام الريِّـض شديد، وصرفُ النفسِ عن مغالبة العالم أشدُّ منه، والمتعلِّـم يجـدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً، وبما يحتاج إليـه قائمـاً ومـا أكـثرَ مَـن فرَّط في التعليم أيَام خُمولِ ذكره، وأيَّام حَداثـةِ سـنِّه ولـولا جِيـادُ الكتبِ وحسَنُها، ومُبَيَّنُها ومختَصرَها، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حبِّ الأدب، وأنِفَتْ من حال الجهل، وأَن تكون

في غِمار الحَشْو، ولَدخل على هؤلاء مـن الخَلـلِ والمضـرَّة، ومـن الجهل وسوء الحال، وما عسى ألا يمكن الإخبارُ عـن مقـداره، إلاّ بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضـي اللّـه تعـالى عنـه: "تفقَّهـوا قبلَ أن تسودوا"

كتب أبي حنيفة

وقد تجدُ الرجلَ يطلبُ الآثارَ وتأويلَ القـرآن، ويجـالس الفقهـاءَ خمسين عاماً، وهو لا يُعدُّ فقيهاً، ولا يُجعَل قاضياً، فمـا هـو إلاّ أن ينظرَ في كتب أبـي حنيفـة، وأشـباه أبـي حنيفـة، ويحفَـظَ كتـبَ الشروط في مقدارِ سنةٍ أو سنتين، حتى تمرَّ ببابه فتظن أنه من باب بعض العُمَّال، وبالحَرَا ألاّ يمـرَّ عليـه مـن الأيّـام إلاَّ اليسـير، حتَّى يصير حاكماً على مصرٍ مـن الأمصـار، أو بلـدٍ مـن البلـدان، وجوب العناية بتنقيح المؤلفات وينبغي لمن كَتـبَ كتابـاً ألا يكتُبَـه إلاّ على أَنَّ النَّاس كلَّهم له أعداء، وكلُّهـم عـالمٌ بـالأمور، وكلُّهـم متفرِّغ له، ثم لا يرضى بـذلك حـتى يـدع كتـابه غُفْلاً، ولا يرضـى بالرأي الفطير، فـإنَّ لابتـداءِ الكتـابِ فتنـةً وعُجُبـاً، فـإذا سـكنت الطبيعـةُ وهـدأت الحركـة، وتراجَعَـتِ الأخلاطٍ، وعـادت النفـسُ

وافرة، أعاد النَّظر فيه، فَيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقُّفَ من يكونُ وزنُ طمَعُه في السلامةَ أنقَصَ من وزَنِ خوفِه من العيب، ويتفهَّم معنى قول الشاعر:

الحديثَ تَغُرُّ القومَ خلوتُه　　　حتَّى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

ويقفُ عند قولهم في المثل: كلُّ مُجْرٍ في الخَلاءِ يُسَرُّ فيخاف أن يعتريه ما اعترى مَنْ أحرى فرسه وحدَه، أو خلا بعلمه عند فقدِ خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

تداعي المعاني في التأليف

وليعلم أنَّ صاحبَ القلم يعتريه ما يعتري المؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يَعزمِ على خمسةِ أسواط فيضرب مائة? لأنَّه ابتدأ الضربَ وهو ساكنُ الطباع، فأراه السكونُ أنَّ الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرَّك دمُه، فأشاع فيه الحرارةَ فزادَ في غضبه، فأراه الغضبُ أنّ الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثرَ من يبتدئ الكتابَ وهو يُريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة والحفظُ مع الإقلال أمكَن، وهو مع الإكثار أبعَد.

مقايسة بين الولد والكتاب

واعلم أَنَّ العاقلَ إنْ لم يكن بالمتتبِّع، فكثيراً ما يعتريه من ولـده، أَنْ يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيـره، فليعلـمْ أنَّ لفظـه أقربُ نسباً منه من ابنه، وحركَتَه أمسُّ بـه رِحْمـاً مـن ولـده، لأَنَّ حركتَه شيءٌ أحدثَه من نفسه وبذاتِهِ، ومن عيـن جـوهرِه فَصَلت، ومـن نفسِـه كـانت؛ وإنَّمـا الولـدُ كالمخْطَـةِ يتمخَّطها، والنُّخَامـةِ يقذِفها، ولا سواءٌ إخراجُك مِنْ جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارُك حركةً لم تكن حتَّى كانت منك، ولذلك تجِـدُ فتنـةَ الرجُـل بشِـعرِه، وفتنتَه بكلامِه وكتبِه، فوقَ فتنتِه بجميعِ نعمته.

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحـوجَ منـه إلـى إفهـام معـانيه، حَتَّـى لا يحتاجُ السامع لما فيه من الرويَّة، ويحتاجُ مِـنَ اللفـظ إلـى مقـدارٍ يرتفع به عَنْ ألفاظ السِّفْلَةِ والحَشْو، ويحطُّه من غريـب الأعـراب ووَحْشِيِّ الكلام، وليس له أَنْ يهذِّبَه جدّاً، وينقِّحَه ويصفِّيه ويروّقـه، حتى لا ينطِقَ إلاّ بِلُـبِّ اللُّـبِّ، وبـاللفظ الـذي قـد حـذف فُضُـولَه، وأسقطَ زوائِده، حتّى عاد خالصاً لا شَوْب فيه؛ فإنَّه إنّْ فعل ذلـك، لم يُفْهَمْ عنه إلا بأن يجدِّد لهم إفهامـاً مِـرَاراً وتَكـراراً، لأنَّ النَّـاسَ

كلَّهم قد تعوَّدوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها، ألا تَرَى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم، لو قرأتَه على جميعِ خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهموا أكثرَه، وفي كتاب إقليدِسَ كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولو سمِعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمه من يريد تعليمه، لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرَف جهةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرِج من جميع الكلام.

قول صحار العبدي في الإيجاز

قال معاويةُ بن أبي سفيان، رضي اللّه عنهما، لصُحَارٍ العبدي: ما الإيجاز؟ قال: أَن تجيبَ فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ، قال معاوية: أو كذلك تقول قال صحار: أقِلْنِي يا أمير المؤمنين لا تخطئ ولا تبطئ. فلو أنَّ سائلاً سأَلك عن الإيجاز، فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بنُ صفوان، لما عرَفَ بالبديهة وعندَ أَوَّل وهلة، أَنَّ قولَك لا تخطئ متضمِّنٌ بالقول، وقولَك لا تبطئ

متضمِّن بالجواب، وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضُوه، ولو أن قائلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننتُ أنّه يقول: الاختصار.

حقيقة الإيجاز

والإيجاز ليس يُعنَى به قلَّةُ عددِ الحروفِ واللفظ، وقد يكونُ البابُ من الكلام مَنْ أتى عليه فيما يسع بطن طُومارٍ فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنَّمَا ينبغي له أن يحذف بقدرِ ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردِّد وهو يَكتفي في الإفهام بشِطره، فَما فضَل عن المقدار فهو الخطل.

استغلاق كتب الأخفش وقلتُ لأَبي الحسن الأخفش: أنت أعلمُ الناسِ بالنَّحو، فلم لا تجعَلُ كتبَك مفهومة كلَّها، وما بالُنا نفهمُ بعضَها ولا نفهم أكثرها، وما بالُك تقدِّم بعضَ العويصِ وتؤخِّر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجلٌ لم أضَعْ كتبي هذه للّه، وليست هي من كتبِ الدين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلَّت حاجاتُهم إليَّ فيها، وإنَّما كانت غايتي المَنَالة، فأنا أضعُ بعضَها هذا الوضع المفهومَ ، لتدعوَهم حلاوةُ ما فهموا إلى التماس فهْم ما لم يفهموا، وإنَّما قد كسَبتُ في هذا التدبير، إذ كنتُ إلى التكسُّب

ذهبت، ولكنْ ما بالُ إبراهيم النظَّامِ، وفلانٍ وفلان، يكتبون الكتــبَ للّه بزعْمِهم، ثم يأخذُها مثلي في مواقفته، وحُسْنِ نظـره، وشـدَّةِ عنايته، ولا يفهمُ أكثرَها؟ وأقول: لو أنَّ يوسف السَّمْتيَّ، كتب هذه الشروطَ ، أيَّـام جلـسَ سَ لمان بـن ربيعـة شـهرين للقضـاء، فلـم يتقدَّم إليه رجُلان، والقلوب سليمةٌ والحقوقُ علـى أهِلهـا مـوفَّرة، لكان ذلك خطلاً ولغواً؛ ولو كتبَ في دهره شروطَ سَـلمان، لكـان ذلك غَرارةً ونقصاً، وجهلاً بالسياسةِ، وبما يصلحُ في كلِّ دهر.

مواضع الإسهاب

ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا في صلحٍ بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السِّـماطين فـي مديح الملوك أطالوا، وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطَل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلـك مـن عَجْـز. ولولا أنّي أتّكل على أنَّك لا تملُّ بابَ القولِ في البعير حتَّى تخرجَ إلى الفيـل، وفـي الـذَّرَّة حتَّـى تخرجَ إلى البعوضة، وفي العقربِ حتَّى تخرجَ إلى الحيّةَ، وفي الرجـل حتَّـى تخـرجَ إلـى المـرأة، وفي الذِّبان والنحل حتى تخرج إلى الغِرْبان والعِقْبان، وفي الكلبِ حتَّى تخرجَ إلـى الـديك، وفـي الذئب حتَّى تخرج إلى السبُع، وفي الظِّلفِ حتَّى تخرجَ إلى الحافر، وفي الحافر حتَّى تخـرج إلـى الخُفّ، وفي الخفِّ حتَّى تخرجَ إلى البُرْثُنِ، وفي البرْثُنِ حتَّى تخرج إلى المِخلَـب، وكـذلك القـول في الطيرِ وعامَّةِ الأَصناف، لَرأيتُ أنَّ جملة الكتاب، وإنْ كثُر عددُ ورقِه، أَنَّ ذلك ليس مما يُمِـلُّ، ويُعتَدُّ عليَّ فيه بالإطالة، لأَنَّه وإن كان كتاباً واحداً فإنَّه كتبٌ كـثيرة، وكـلُّ مُصـحَف منهـا فهـو أمٌّ على حِدَة، فإن أرادَ قراءةَ الجميع لم يَطل عليه الباب الأوّل حتَّى يهجمَ علـى الثـاني، ولا الثـاني حتَّى يهجمَ على الثالث، فهو أبداً مسـتفيدٌ ومسـتَطرِف، وبعضُـه يكـون جَمامـاً لبعـض، ولا يـزالُ نشاطُه زائداً، ومتى خرج منْ آي القرآن صارَ إلى الأَثر، ومتى خرج من أثـر صـار إلـى خـبر، ثـم

يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعِر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمٍ عقليّة، ومقاييس سِداد، ثم لا يترك هذا البابَ؛ ولعلَّه أن يكون أثقَلَ ، والملالُ إليه أسرع، حتَّى يفضِيَ به إلى مزحٍ وفكاهة، وإلى سُخْفٍ وخُرافة، ولست أراه سُخفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سِيرة الحكماءِ، وآدابَ العلماء.

مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم ورأينا اللّه تبارك وتعالى، إذا خاطب العربَ والأَعْرَابَ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم، جعلَه مبسوطاً، وزاد في الكلام، فأصوبُ العمل اتِّباعُ آثار العلماء، والاحتذاءُ على مثالِ القدماء، والأَخذُ بما عليه الجماعة.

أقوال بعض الشعراء في صفة الكتب قال ابن يسير في صفِة الكتب، في كلمةٍ له:

أهرُب لا آلو مُباعدةً ... الأَرض منهمْ فَلم يُحْصِنِّيَ الهربُ
أوسٍ فَما والت خنادِقُه ... النواويسُ فالماخورُ فالخَرب
موئِلٍ منها اعتصمتُ به ... فِمن ورائي حثيثاً منهمُ الطلبُ
رأيتُ بأني لستُ معجزَهم ... فوتاً ولا هَرَباً، قرَّبت أحتجِبُ
فصرتُ في البيت مسروراً جَذِلاً ... جارَ البراءة لا شكوَى ولاشَغَبُ
يحدِّثني الموتى وتنطِقُ لي ... عن علمِ ما غاب عنِّي منهمُ الكتبُ
مُؤْنِسون وأُلاَّف غَنِيتُ ... فليس لي في أنيسٍ غيرهم أَرَبُ
جُلَساءٍ لا جَليسهمُ ... ولا عشيرهُمُ للسُّوءِ مرتَقِبُ
بادراتِ الأَذَى يخشى رفيقُهمُ ... يُلاقِيه منهمْ مَنْطِقٌ ذَربُ
لنَا حِكماً تبقى منافِعُهَا ... أُخْرَى الليالي على الأَيَّام وانشعبوا

آدبٍ منهم مددتُ فهو قريبٌ من يَدِي كَثَبُ
شئتُ من مُحكَمِ الآثارِ يرفعُها النبيِّ ثِقَاتٌ خِيرةٌ نُجُبُ
شئتُ من عَرَبٍ علماً في الجاهليَّة أنبتْني به بأوَّلِهم العرب
شئتُ مِنْ سِيَرِ الأَملاكِ عَجَمٍ وتُخْبرُ كيف الرأيُ والأدبُ
كأنِّيَ قد شاهدتُ عصرَهُمُ وقد مضَتْ دونهم من دَهِرِهم حِقَبُ
قصُرَت في العلم إلى الجهل فيما قال ينتسِبُ أمسى
الأوائل قد بانوا بعلمهم خلافَ قولِك قد بانوا وقدْ ذهبوا
ماتَ منا امرؤ أبقَى لنا أدبَاً نكون منه إذا ما مات نَكتِسبُ

وقال أبو وَجْزة وهو يصف صحيفةً كُتب له فيها بِستِّينَ وَسْقاً:

بِسِتِّين وَسْقاً في حقيبته حُمِّلَتْ حِمْلَهَا الأَدنى ولا السِّدَدا
رأيتُ قلوصاً قبلها وَسقاً وما جابت به بلدَا

وقال الراجز:

أنَّ الدواةَ والقلَمْ ويُفْنِي حادثُ الدَّهر الغَنَمْ

يقول: كتابُكَ الذي تكتبُه عليَّ يبقى فتأخذني به، وتذهب غنَمي فيما يذهب.

نشر الأخبار في العراق وممّا يدلُّ على نفع الكتاب، أنَّه لولا الكتابُ لم يجُزْ أن يعلمَ أهل الرَّقَّة والموصِل وَبغدادَ وواسط، ما

كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفِـة فـي بيـاض يـوم، حتَّـى تكـون الحادثةُ بالكوفِـة غُـدوة، فتعلـمُ بهـا أهـل البصـرة قبـلَ المسـاءَ. وذلك مشهورٌ في الحمام الهدَّى، إذا جُعِلت بُرُداً، قـال اللّـه جـلّ وعزَّ وذكر سليمانَ وملكه الذي لم يؤت أحداً مثله فقال "وَتَفَقَّـدَ الطَّيرَ فَقَـالَ مَـا لـيَ لاَ أَرَى الهُدْهُـدَ" إلـى قـوله: "أَوْ لأَذْبَحَنَّـهُ أَوْ لَيَأتِيَنِّي بِسلُطَانٍ مُبِينٍ" فلمْ يلبـثْ أن قـال الهُدْهُـدُ: "جِئْتُـكَ مِـنْ سَبأ بِنَبَأ يَقِينٍ، إنِّي وَجَدْتُ امرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وأوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَـيءٍ، وَلَهَا عَـرْشٌ عَظِيـمٌ" قـال سـليمان: "اذْهَـبْ بكتـابي هـذا فَـأَلْقِهْ إليَهِـمْ" وقـد كـان عنـدَه مَـن يبلِّـغ الرسـالة علـى تمامهـا. مِـن عِفريت، ومِن بعض مَن عنده علمٌ من الكتاب، فرأى أنَّ الكتـابَ أبهى وأنبَلُ، وأكرمُ وأفخمُ مـن الرسـالة عـن ظهـر لسـان، وإن أحاطَ بجميعِ ما في الكتاب، وقالت مَلكةُ سَبَأ "يَا أَيُّهـا المَلأُ إنِّـي أُلْقِيَ إليَّ كِتَابٌ كرِيمٌ"، فهذا مما يـدل علـى قـدْر اختيـار الكتـب استخدام الكتابة في أمور الدين والـدنيا وقـد يريـد بعـضُ الجِلَّـةِ الكبارِ، وبعضُ الأُدباءِ والحكماءِ، أن يدعو بعضَ مَن يجري مَجْـراه في سلطانٍ أوْ أدبٍ، إلى مأدُبةٍ أو نِدام، أو خُروج إلى متنـزَّه، أو بعض ما يشبهُ ذلك، فلو شاءَ أن يبلِّغـهُ الرسـولُ إرادتـه ومعنـاه،

لأصابَ من يُحسن الأَداء، ويصدُق فـي الإبلاغ، فيـرى أنَّ الكتـاب في ذلك أسرى وأنبَه وأبلغ. ولو شاءَ النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم ، ألاّ يكتبَ الكتبَ إلى كسرَى، وقَيْصَرَ، والنَّجَاشـيِّ، والمقـوقِس، وإلى ابني الجُلَنْدَى، وإلى العباهلـة مـن حميـر، وإلـى هـوذَة بـن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسـادة النجبـاء، لفعـل، ولوجـد المبلِّـغَ المعصـوم مـن الخطـأ والتبـديل، ولكنّـهُ عليـه الصـلاة والسـلام، عِلـم أنَّ الكتـابَ أشـبهُ بتلـك الحـال، وأليـق بتلـك المراتـــب، وأبلـــغُ فـــي تعظيـــم مـــا حـــواه الكتـــاب.

ولو شاء اللّه أن يجعَل البشارات على الأَلسنة بالمرسـلين، ولـم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتمُّ وأكمل، وأجمـــــــــــــــــع وأنبـــــــــــــــــل.

وقد يكتب بعضُ من له مرتبةٌ في سـلطان أو ديانـة، إلـى بعـض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضـى بالكتـاب حتَّـى يخزمـه ويختمه، وربَّما لم يرض بذلك حتى يُعَنْوِنه ويعظمه، قال اللّه جلَّ وعز: "أمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِماَ في صُـحُفِ مُوسَـى وإبْراهيـمَ الَّـذِي وَفَّـى" فـذكر صـحف موسـى الموجـودة، وصـحفَ إبراهيـم البائـدة المعدومة، ليعرف الناس مقدارَ النفـع، والمصـلحة فـي الكتـب.

نظـام التـوريث عنـد فلاسـفة اليونانيـة قـالوا: وكـانت فلاسـفة اليونانية، تورث البنات العَين، وتورث البنين الدين: وكانت تصــل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقـول: لا تورثـوا الابـنَ من المال، إلاّ ما يكونُ عوناً له على طلب المال، واغذُوه بحلاوة العلم، واطبَعوه على تعظيم الحكمة، ليصـير جمْـع العلـم أغلـبَ عليـه مـن جمـع المـال، وليـرى أنَّـه العُـدَّة والعتـاد، وأنّـه أكـرم مســتفاد.

وكـانوا يقولـون: لا تورِّثـوا الابـن مـن المـال إلاّ مـا يسـد الخلـة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُـدَّ مـن الفضـول؛ فإنَّه إن كان فاسداً زادت تلـك الفضـول فـي فسـاده، وإن كـان صالحاً كان فِيما أورثتموه من العلم وبقّيتم لـه مـن الكفايـة، مـا يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأَنَّ المَال لـم يَـزَلْ تابعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصـاحب الفضـول بعـرَض فساد، وعلى شفا إضَاعة، مع تمام الحنكَة، واجتماع القـوَّة، فمـا ظنُّكم بها مـع غـرارة الحداثـة، وسـوء الاعتبـار، وقلـة التجربـة. وكانوا يقولون: خير ميراثٍ ما أكسـبك الأركـان الأَربعـة، وأحـاط بأصول المنفعة، وعجَّل لـك حلاوة المحبـة، وبقّـى لـك الأحدوثـة

الحسـنة، وأعطـاك عاجـل الخيـر وآجلـه، وظـاهره وبـاطنه. وليس يجمع ذلك إلاّ كرامُ الكتب النفيسة، المشتملة على ينـابيع العلـم، والجامعـة لكنـوز الأَدب، ومعرفِـة الصـناعات، وفوائـدِ الأَرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهـانه، تسـكن النفوس، وتثلج الصدور، ويعـود القلـب معمـوراً، والعـزُّ راسـخاً، والأَصـــــــــــــل فســـــــــــــيحاً.

وهـذه الكتـب هـي الـتي تزيـد فـي العقـل وتشـحذه، وتـداويه وتصلحه، وتهذبه، وتنفي الخَبَث عنـه، وتفيـدك العلـم ، وتصـادق بينك وبين الحجَّة، وتعوّدك الأَخذ بالثقة، وتجلب الحالَ، وتكســب المـــــــــــــــــــــــــــال.

وراثة الكتب ووراثة الكتب الشـريفة، والأَبـواب الرفيعـة، منبهـة للمورِّث، وكنز عند الوارث، إلا أنه كنـز لا تجـب فيـه الزكـاة، ولا حقُّ السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصـها مـا أخـذ منهـا، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده مـا أخـذ منـه، ولا يـزال بهـا المـورِّث مذكوراً في الحكماء ومنوّهاً باسمه في الأسماء، وإمامـاً متبوعـاً وعَلماً منصوباً، فلا يـزال الـوارث محفوظـاً، ومـن أجلـه محبوبـاً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبَّة ناميةً، ما كانت تلك الفوائد قائمـة،

ولن تزال فوائدها موجودةً ما كانت الدار دار حاجـة، ولـن يـزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان مـن فوائـدها علـى النـاس أثر، وقالوا: من ورَّثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغِل ولا يَستَغِلّ، وقـد ورثتـه الضـيعة الـتي لا تحتـاج إلـى إثـارة، ولا إلـى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكّار، ولا إلى أن تُثار، وليس عليهـا عُشـر، ولا للسـلطان عليهـا خَـرْج، وسوَاء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواءٌ دفْعُك إليه الكفايــةَ، أو ما يجلب الكفاية، وإنما تجري الأمور وتتصـرف الأفعـال علـى قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلاّ على دفع السبب، ولم يجب عليـه إحضـار المسـبَّب، فكتُـب الآبـاء، تحـبيب للأحيـاء، ومحـي لـذكر الموتى. وقالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعـاً، وكـانت مـواريثه كتباً بارعة، وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يـرى التعلُّـم حظـاً، وأجدر أن يسرع التعليمُ إليه، ويرى تركه خطأً، وأجدرَ أن يجــري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطـئ لـه، وأجـدرَ أن يسري إليه عِرقْ مَـن نَجلـه، وسـقي مـن غرسـه، وأجـدر أن يجعل بدل الطلب للكسْب، النظر في الكتب ، فلا يأتي عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف فـي سـماع العلـم،

إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة، وإنَّما تُفسد الكفاية من له تمت آلاته، وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدَث الغرير، والمنقوص الفقير. فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب، فخير ميراثٍ وُرّث كتبٌ وعلم، وخير المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرِّق،، ويبصِّر ولا يُعمي، ويُعطي ولا يأخذ، ويجود بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكنزَ الذي ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكازَ الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمةَ التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للُّصُوصِ فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجَّة، ولا على الجار فيه مَؤونة.

قول ديمقراط في تأليف كتب العلم وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بدَّ من أن يكون لكلِّ كتابٍ علمٍ وضعَه أحدٌ من الحكماء، ثمانيةُ أوجه: منها الهمَّة، والمنفعة، والنسبةُ، والصحَّةُ، والصِّنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير، فَأَوَّلُها أن تكون لصاحبه هِمَّة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنْسَب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له

تـــــــــــــــــــــــــــــــدبير موصـــــــــــــــــــــــــــوف.

فذُكِر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه فـي هـذا الكتـاب، وهـو كتـابه الـذي يسـمى أفوريسـموا تفسـيره كتـاب الفصـول.

مقاولة في شأن الكلب وقولك: وما بلغَ من قدر الكلب مع لـؤم أصله ، وخُبث طبعه، وسـقوط قـدره، ومهانـة نفسـه، ومـع قلَّـةِ خيـره وكـثرة شـره، واجتمـاع الأمـم كلِّهـا علـى استسـقاطه، واستسفاله، ومع ضربهم المثل في ذلك كلِّه به، ومع حاله الــتي يعرف بها، ومن العجز عن صولة السِّباع واقتدارها، وعن تمنُّعهـا وتشـرُّفها، وتوحُّشـها وقلـة إسـماحها، وعـن مسـالمة البهـائم ومواداعتها، والتمكين مـن إقامـة مصـلحتها والانتفـاع بهـا، إذ لـم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسـها، ولا الاحتيـال لمعاشـها، ولا المعرفـة بالمواضـع الحريـزة مـن المواضـع المخُوفـة، ولأنَّ الكلب ليس بسبع تـام، ولا بهيمـة تامـة، حـتى كـأنه مـن الخلْـق المركَّب والطبائع الملفَّقة، والأخلاط المجتلبـة، كالبغـل المتلـوِّن فـــي أخلاقـــه، الكـــثير العيـــوب المتولِّـــدة عـــن مزاجـــه. وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضـادَّة، والأخلاق المتفاوتـة، والعناصر المتباعـدة، كالراعبيِّ مـن الحمـام، الـذي ذهبـت عنـه

هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطـل عنـه عمـر الورَشان، وقـوَّة جنـاحه وشـدة عصـبه، وحسـنُ صـوته، وشَـحْو حلقه، وشـكل لحـونه، وشـدَّة إطرابـه، واحتمـاله لوقـع البنـادق وجرح المخالب، وفي الراعـبي أنّـه مُسـرْوَل مثقـل، وحـدث لـه عِظَـــمُ بـــدن، وثقـــل وزن لـــم يكـــن لأبيـــه ولا لأمِّـــه. وكـذلك البغـل، خـرج مـن بيـن حيـوانين يلـدان حيوانـاً مثلهمـا، ويعيش نتاجُهما ويبقـى بقاءَهمـا، وهـو لا يعيـش لـه ولـد وليـس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر، فلو كان البغل عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيدَ في قوتهما، وأتـمَّ لشـدتهما، فمـع البغل من الشّـبق والنَّعـظ مـا ليـس مـع أبيـه، ومـع البغلـة مـن السَّوَس، وطلب السفاد، ما ليس مع أمِّها، وذلك كلُّـهُ قـدح فـي القوَّة، ونقـص فـي البنيـة، وخـرج غرمـوله أعظـم مـن غراميـل أعمامه وأخواله، فترك شبههما، ونزع إلـى شـيء ليـس لـه فـي الأرض أصل، وخرج أطول عمراً من أبويه، وأصبرَ علـى الأثقـال مـــــــــــــن أبـــــــــــــويه.

أو كابن المذكَّرة من النساء، والمؤنث من الرجـال، فـإنه يكـون أخبث نتاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً مـن السِّـمع، وأكـثر عيوبـاً

من العِسبار، ومنْ كلّ خلقٍ خلق إذا تركب مــن ضــدّ، ومــن كــل شـــــــــــــــجرة مُطَعَّمَــــــــــــــــــةٍ بخلاف.

وليس يعترِي مثلُ ذلك الخِلاسيّ من الــدجاج، ولا الــورداني مــن الحمـــام.

وكلُّ ضعف دخل على الخلقة، وكل رقَّة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه، وعلى وزن مقداره وتمكنــه، يظهــر العجــزُ والعيــب. وزعــم الأصــمعيُّ، أنَّــه لــم يســبق الحلبــةَ فــرسٌ أهضــم قــط. وقال محمد بــن ســلاّم: لــم يســبق الحلبــة أبلــق قــط ولا بلقــاء. والهداية في الحمام، والقوَّة على بعد الغاية، إنما هــي للمصْــمَتَة مـــــــــــــــــــــــــــن الخضـــــــــــــــــــــــــــــــــر.

الشــــــــيات فــــــــي الحيـــــــــوان ضـــــــــعف ونقـــــــــص.

وزعموا أنَّ الشِّياتِ كلَّها ضعف ونقص والشِّــيَةَ: كــلُّ لــون دخــلِ على لون - وقال اللّه جلّ وعزّ: "إنَّه يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولاَ تَسْــــقِي الحَــــرْثَ مُسَــــلَّمَةٌ لاَ شِــــيَةَ فيهَــــا".

ابــن المــذكرة مــن المــؤنث وزعــم عثمــان بــن الحكــم أنَّ ابــن المذكرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصــال أمــه، فتجتمع فيه عظــام الــدواهي، وأعيــان المســاوي، وأنَّــه إذا خــرج

كذلك، لم ينجع فيه أدب، ولا يَطمع في علاجه طـبيب، وأنَّـه رأى في دور ثقيف، فتًى اجتمعتْ فيه هـذه الخصـال، فمـا كـان فـي الأرض يومٌ، إلاَّ وهم يتحدثون عنه بشيءٍ، يصغُر فـي جنْبِـه أكـبرُ ذنـــــــــبٍ كـــــــــــان يُنسَـــــــــــب إليــــــــــــه.

وزعمتَ أنَّ الكلب في ذلك كالخنثى، والذي هو لا ذكر ولا أنـثى، أو كالخصي الذي لمَّا قُطع منه ما صار به الذَّكر فحلاً، خـرجَ مـن حـدِّ كمـالِ الـذكَر بفقـدان الـذكَر، ولـم يكمـلُ لأن يصـير أنـثى، للغريـــــــــــزة الأصـــــــــــلية، وبقيّـــــــــــةِ الجوهريّــــــــــــة.

وزَعَمْتَ أنَّه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراطُ الحرّ، فيخرجه من حـــــــدِّ الخـــــــل، ولا يـــــــدخلهُ فـــــــي حـــــــدِّ النبيـــــــذ.

وقال مرداس بن خذام:

عِقالاً بالثَّـويّةِ شَـرْبةً   فمالت بلُبِّ الكاهلِيِّ عِقـالِ
اصطبِحْها يا عِقالُ فإنَّما هي الخمرُ خَيَّلْنا لها بِخَـيالِ
بأُمِّ الخلِّ حبَّةَ قلـبِـه   فلم ينتعش منها ثلاثَ لـيالِ

فجعل الخمر أُمَّ الخـلّ قـد يتولـد عنهـا، وقـد يتولّـد عـن الخـل - إذ كـان خمـراً مـرة - الخمـرُ.

وقال سعيد بن وهب:

وأنت بماءِ وجهِك تُشْتَهَـى   رَوْدَ الشَّبابِ قليلَ شَعْرِ العارضِ
حين بدَتْ بخـدِّك لـحـية   بِملحك مثل كفِّ القابضِ
السلافة عادَ خمرُ عصيرها اللَّذاذة خَلَّ خمرٍ حـامـضِ

ويصير أيضاً كالشعر الوسط، والغناء الوسط، والنـادرة الفـاترة، التي لم تخرج من الحرِّ إلى البرد فتضحك السِّن، ولـم تخـرُج مـن البرد إلى الحر فتضحك السِّن.

ما يعتري الإنسان بعد الخصاء

وكيف ما كان قبل الخصاء

قالوا: كلُّ ذي ريح مُنتِنةٍ، وكُـلُّ ذي دَفْـرٍ وصُـنَانٍ كريـهِ المشَـمَّةِ، كالنَّسر وما أشبهه، فإنَّه متى خُصي نقص نتنُه وذهبَ صُـنانه، غيـرَ الإنسان، فإنَّ الخصيَّ يكون أنتنَ، وصنانُه أحـدَّ، ويعـمُّ أيضـاً خبْـثُ العـرقِ سـائرَ جسـدَه، حـتى لَتُوجَـد لأجسـادهمْ رائحـةٌ لا تكـون لغيرهـــــــــــــم، فهـــــــــــــذا هـــــــــــــذا. وكلُّ شيءٍ من الحيوان يُخصَى فإنَّ عظمَه يـدِقُّ، فـإذا دقَّ عظمُـه استرخَى لحمه، و تبرَّأ من عظمه، وعاد رَخْصاً رطْباً، بعـد أن كـان عَضِلاً صُلباً، والإنسـان إذا خُصِـيَ طـال عظمُـه وعـرُض، فخـالف أيضـــــاً جميـــــعَ الحيـــــوان مـــــن هـــــذا الـــــوجه. وتعرض للخصيان أيضاً طـول أقـدامٍ، واعوجـاج فـي أصـابع اليـد، والتـواءٌ فـي أصـابع الرِّجْـل، وذلـك مِـن أوَّلِ طعْنهم فـي السـنِّ،

وتعرِض لهم سرعة التغيُّر والتبدُّل، وانقلاب من حدِّ الرطوبة والبضاضة ومَلاسة الجلد، وصفاءِ اللون ورقَّته، وكثرةِ الماء وبريقه، إلى التكرُّش والكمود، وإلى التقبُّض والتخَدُّد، وإلى الهُزال، وسوء الحال، فهذا الباب يعرِض للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجي النبات من الأكرة مِن أهل الزرع والنخل، لأنَّكَ ترى الخصيَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع في لونه، وكأنَّه مِرْآةٌ صينيَّة، وكأنه وَذيلة مجلوَّة، وكأنه جُمَّارَة رَطْبة، وكأنه قضيبُ فِضَّةٍ قد مسَّهُ ذهب، وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبثُ كذلك إلا نُسَيْئاتٍ يسيرةً، حتى يذهبَ ذلك ذَهاباً لا يعود، وإن كان ذا خِصبٍ، وفي عيش رَغَد، وفي فراغ بالٍ، وقلَّةِ نصَب.

من طرائف عبد الأعلى القاصّ

وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاصّ، قوله في الخصي، وكان لغلبة السلامة عليه يُتوهَّم عليه الغفلة، وهو الذي ذكر الفقيرَ مرة في قصصه فقال: الفقير مرقته سُلْقة، ورداؤه عِلْقة، وجَرْدَقته فِلْقة، وسمكته شِلقَة، وإزاره خرقة. قالوا: ثمَّ ذكر الخَصيَّ فقال: إذا قُطِعت خُصيته، قَوِيت شَهوته وسخُنت

مَعِدته، ولانَتْ جِلدتُه، وانجردت شَعْرته، واتَّسعت فَقْحته، وكثُـرتْ دمعتـه.

وقالوا، الخصيُّ لا يصلَع كما لا تصلَع المرأة، وإذا قطع العضوُ الذي كان به فحلاً تامّاً، أخرجه ذلك من أكثرِ معاني الفحـول وصـفاتهم، وإذا أخرجه من ذلك الكمال، صيَّره كالبغل الذي ليس هـو حمـاراً ولا فرساً، وتصيرُ طباعُه مقسومةً على طباعِ الذكر والأنثى، وربما لم يَخْلُص له الخلـقُ ولـم يَصْـفُ، حتّى يصير كـالخلق مـن أخلاق الرجال، أو يلحـق بمثلـه مـن أخلاق النسـاء، ولكنَّـه يقـع ممزوجـاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلـى هـؤلاء ولا إلـى هـؤلاء، وربمـا خرجـت النتيجـة ومـا يولّـده الـتركيب، عـن مقـدار معـاني الأبوين، كما يجوزُ عمرُ البغْل عمـرَ أبـويه، وكـذلك مـا عـددنا فـي صدر هذا الكلام.

طلب النسل

وقـالوا: وللإنسـان قـوًى معروفـةُ المِقـدارِ، وشـهواتٌ مصـروفةٌ فـي وجـوهِ حاجـاتِ النفـوس، مقسومةٌ عليها، لا يجوزُ تعطيلُها وتركُ استعمالِها مـا كـانت النفـوسُ قائمـةً بطبائعهـا ومِزاجاتهـا وحاجاتهـا، وبـابُ المنكَـح مِـن أكبرِهـا، وأقواهـا، وأعمِّهـا.

ويدخل في باب المنكَح ما في طبائِعهم من طلبِ الولد، وهو بابٌ من أبوابهم عظيم؛ فمنهم من

يطلبه للكثرة والنُّصرة، وللحاجة إلى العدد والقوَّة، ولذلك استلاطت العربُ الرجالَ، وأغضتْ على نسب المولود على فراش أبيه، وقد أحاط علمُه بأنَّه من الزوج الأوَّل، قال الأشهبُ بن رُمَيلة:

الأقاربُ لا تغرُرْكَ كثرتُنا وأَغْنِ نفسَكَ عنَّا أيها الرجُلُ
بَنِيَّ يشدُّ اللّهُ كثرتَهم والنَّبْعُ يَنْبُتُ قُضْباناً فيكتهل

وقال الآخَر:

صِبْيَةٌ صَيْفِيُّون أَفْلَحَ مَنْ كان لَهُ رِبْعِيُّونْ

يشكو كما ترى صِغَر البنين، وضعف الأسر.

وما أكثر ما يطلب الرجل الوَلَدَ نفاسةً بماله على بني عمِّه، ولإشفاقِه من أن تليه القضاةُ وترتع فيه الأمناء، فيصيرَ مِلكاً للأولياء، ويقضيَ به القاضي الذِّمامَ ويصطنع به الرجال. وربما همَّ الرجلُ بطلب الولد لبقاء الذكْر، وللرغبة في العقب، أو على جهة طلَبِ الثواب في مباهاة المشركين، والزيادةِ في عدد المسلمين، أو للكسب والكفاية، وللمدافعة والنُّصْرة، وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع اللّه تعالى تعالى بني آدم عليه، من حبِّ الذُّرِّيَّةِ وكثرةِ النسل، كما طبع اللّه تعالى الحمام والسنانير على ذلك، وإن كان إذا جاءه الولد زاد في هَمِّه ونصبه، وفي جُبْنِه وبخْله، وقد قال النبي: "الْوَلَد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ فيحتمل في الولد المُؤَن المعروفة، والهموم الموجودة لغير شيء قصَد له، وليس في ذلك أكثرُ من طلب الطباع، ونزوعِ النفس إلى ذلك.

وذكر أبو الأخزَر الحِمَّاني عَير العانة بخلاف ما عَليه أصحابُ الزِّواج من الحيوان، فقال عند ذكر سِفاده:

مُبتَغِي الذرْء ولا بالعازِلِ

لأنَّ الإنسانَ من بين الحيوان المُزَاوِج، إذا كرِهَ الولدَ عزَل، والمزاوج من أصناف الحيوانات إنَّما غايتُها طلبُ الذرْء والولد، لذلك سُخِّرت، وله هيِّئت، لِما أراد اللّه تعالى من إتمامِ حوائِج الإنسانِ، والحمارُ لا يطلبُ الولدَ، فيكون إفراغه في الأتان لذلك،

ولا إذا كان لا يريد الولد عـزَل كما يعـزل الإنسان، غيـر أنّ غـايتَه قضاءُ الشهوة فقط، ليس يَخْطُر علـى بـاله أنَّ ذلـك المـاءَ يُخلَـق منـــــــــــــــــــــــــــــــه شـــــــــــــــــــيء.

وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيـدة قـال: ليـس فـي البهـــائم شـــيء يعمـــل عمـــل قـــوم لـــوط إلا الحمـــار.

وعامَّة اكتساب الرجال وإنفاقهم، وهمِّهـم وتصـنُّعهم، وتحسـينهم لما يملكون، إنَّما هـو مصـروفٌ إلـى النسـاء والأسـباب المتعلقـة بالنساء، ولو لم يكن إلاّ التنمُّـص والتطيُّـب والتطـوُّس والتَعـرُّس والتخضُّب، والذي يُعَدُّ لها من الطيب والصِّبغ، والحَلْـيِ، والكِسـاءِ، والفُرُش، والآنية، لكـان فـي ذلـك مـا كفـى، ولـو لـم يكـن لـه إلاّ الاهتمامُ بحفظها وحراسـتها، وخـوفُ العـارِ مـن جنايتهـا والجنايـة عليها، لكان في ذلك المؤْنةُ العظيمة، والمشقة الشديدة.

قوله في الغرائز وبيان سبب شره الخصي

فإِذا بطل العضوُ الذي من أجله يكون اشتغالُ النفس بالأصـناف الكثيرة، من اللذَّة والألَم، فباضطرارٍ أنْ تعلَـمَ أنَّ تلـك القـوَى لـم تَبطل من التركيب، ولم تَعـدَمْها الخلقـة، وإنَّمـا سُـدَّ دونَهـا بسـدٍّ،

وأدخل عليها حجاب، فلا بدَّ لها إذا كانت موجودةً من عمل ، لأنَّ عملَ كلِّ جوهرٍ لا يُعدَم إلاّ بعدم ذاته، فإذا صُرِفَتْ من وجهٍ فاضَتْ من وجه، ولا سيما إذا جمَّت ونازعتْ، ولا بُدَّ إذا زخرت وغَزُرت، وطغت وطَمَتْ، من أن تفيضَ أو تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح بابٌ له موقعُ كموقعِ المطعم، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكَح وما يشتمل عليه باب المنكح، إلى القوَّة التي عنده للمطعم، فإذا اجتمعت القوَّتان في بابٍ واحد كان أبلغ في حكمِهِ، وأبعدَ غايةً في سبيله، ولذلك صارَ الخَصيُّ آكَلَ من أخيه لأمِّه وأبيه، وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه، وعلى قدر حاجةِ طبعه وحركة نفسه والحرارةِ المتولّدةِ عن الحرَكة يكونُ الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة.

تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام

ودوامُ الأكل في الإناثِ أعمُّ منه في الذكور، وكذلك الحِجْرُ دون الفَرَس، وكذلك الرَّمَكة دونَ البِرذَون، وكذلك النعجة دونَ الكبش، وكذلك النساءُ في البيوت دونَ الرجال، وما أشكُّ أنَّ

الرجلَ يأكلُ في المجلسِ الواحِد ما لا تأكل المرأة، ولكنَّها تستوفِي ذلك المقدارَ وتُربِي عليه مقطَّعاً غيرَ منظوم، وهي بدوامِ ذلك منها، يكون حاصلُ طعامِها أكثرَ، وهنَّ يُناسِبْن الصبيانَ في هذا الوجه، لأنَّ طبعَ الصبيِّ سريعُ الهضم، سريعُ الكلَب، قصيرُ مدَّةِ الأكل، قليلُ مقدارِ الطُّعْم، فللمرأةِ كثرةُ معاودتها، ثمَّ تَبِينُ بكثرةِ مقدارِ المأكول، فيصير للخَصيِّ نصيبان: نصيبُه من شِبْه النساء، ثم اجتماعُ قوى شهوتيه في بابٍ واحد، أعني شهوةَ المنكَح التي تحولت، وشهوةَ المطعم. قال، وقيل لبعض الأعراب: أيُّ شيء آكَلُ؟ قال: بِرْذَونَة رَغُوث. ولشدَّةِ نَهَمِ الإناثِ، صارت اللبؤة أشدَّ عُرَاماً وأنزقَ، إذا طلبت الإنسانَ لتأكله، وكَذلك صارت إناثُ الأَجناس الصائدة أصيَدَ، كالإناثِ من الكلاب والبُزاةِ وما أشبهَ ذلك، وأحرصَ ما تكونَ عندَ ارتضاع جِرائها من أطبائها، حتَّى صار ذلك منها سبباً للحرص والنَّهم في ذلك.

صوت الخصي

ويعرض له عند قطع ذلك العضوِ تغيُّرُ الصوت، حتى لا يخفى على من سمِعه من غير أن يرى صاحبَه أنَّه خَصِيٌّ، وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابنَ عمِّه، أو بعضَ أترابه مِن فُحولة جنسه، وهذا المعنى يعرض لخِصيان الصقالِبَة أكثر ممَّا يعرِض للخراسانية، وللسودان من السِّنْد والحُبْشان، وما أقلَّ مَن تجده ناقصاً عن هذا المقدار، إلاّ وله بيضة أو عِرْق، فليس يُحتاج في صِحَّةِ تمييزِ ذلك، ولا في دقة الحسِّ فيه، إلى حِذقٍ بقيافة، بل تجد ذلك شائعاً في طباع السِّفلة والغَثْرَاءِ، وفي أجناس الصِّبيان والنساء.

شَعر الخصي

ومتى خُصي قبلَ الإنباتِ لم يُنْبِتْ، وإذا خُصِي بعد استحكام نباتِ الشعر في مواضعه، تساقط كله إلاَّ شعرَ العانة، فإنه وإن نقَص من غَلظه ومقدارِ عَدده فإنَّ الباقيَ كثير، ولا يعرِضُ ذلك لشعر الرأس، فإنَّ شعرَ الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن. وقد زعم ناسٌ أنَّ حكمَ شعر الرأس خلافُ حكم أشفار العينين،

وقد ذكرنا ذلك في موضعه من باب القول في الشعر، وهذه الخصال من أماكن شَعر النساء، والخصيان والفحولة فيه سواء، وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعر الحادثِ الأصول، الزائدِ في النبات، ألا ترى أن المرأة لا تصلَعُ، فناسبها الخصيُّ من هذا الوجه، فإنْ عرضَ له عارضٌ فإنما هو من القرَع، لا من جهة النَّزَع والجَلَح، والجَلَه والصَّلَع وكذلك النساء في جميع ذلك.

والمرأة ربَّما كان في قَصَاص مقاديم شعرِ رأسها ارتفاع، وليس ذلك بنزَعٍ ولا جلَح، إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ في السنّ. وتكون مقاطعُ شعر رأسه ومنتهى حدود قُصاصه، كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قُصاصها، وليس شعرُها كلما دنا من موضع الملاسَة والانجراد يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلَّ، ولكنه ينبُت في مقدارِ ذلك الجلد على نبات واحد، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً، والمرأة ربَّما كانت سبلاءَ، وتكون لها شَعَراتٌ رقيقة زَغَبِيَّةٌ كالعِذار موصولاً بأصداغها، ولا يعرض ذلك للخَصي إلا من علة في الخصاء، ولا يرى أبداً بعد مقطَع من صُدْغَيه شيءٌ من الشَّعر، لا من رقيقه ولا من كثيفه

ذوات اللحى والشوارب

وقد توجد المرأة ذات لحية، وقد رأيت ذلك، وأكثرُ ما رأيته في عجائِز الدَّهاقين، وكذلك الغَبَب والشارب، وقد رأيت ذلك أيضاً، وهي ليست في رأي العين بخُنْثى، بل نَجِدها أنثى تامَّة ، إلا أن تكون لم تضرِب في ذلك بالسبب الذي يقوَى، حتى يظهر في غير ذلك المكان، ولا تعرض اللحى للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض، وليس يعرض ذلك للخَصي.

وقد ذكر أهلُ بَغداد، أنَّه كان لابنةٍ من بناتِ محمَّدِ بنِ راشدٍ الخنَّاق، لحيةٌ وافرة، وأنّها دخلت مع نساءٍ متنقِّباتٍ إلى بعض الأعراس لتَرَى العُرس وجَلْوَةَ العَرُوس، ففطِنت لها امرأة فصاحت: رجلٌ واللّه وأحال الخدم والنساءُ عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلةٌ إلا الكشفَ عن فرْجِها، فنزَعن عنها وقد كادت تموت.

ويفضل أيضاً الخصيُّ المرأةَ في الانجراد والزَّعَر، بأن تجدَ المرأة زَبَّاءَ الذراعين والساقين، وتجد رَكَب المرأة في الشعْر كأَنَّه عانَةُ الرجل، ويعرض لها الشعر في إبطيها وغير ذلك، ولا يعرِض

للخصـيِّ مـا يعـرض للـديك إذا خُصـي: أن يـذبُلَ غُضـروفُ عُرْفِـه ولحيتـــه.

والخصاءُ ينقُص من شـدَّة الأسـر، وينقُـض مُبْـرَمَ القُـوَى، ويُرْخِـي مَعاقِدَ العَصَب، ويقرِّب من الهرَم والبِلى

مشي الخصي

ويعرِض للخصيِّ أن يشتدَّ وقعُ رجله على أرض السَّطح، حتى لـو تفقَّدتَ وقعَ قدمه وقدَم أخيه الفحل الذي هو أعبـلُ منـه لوجـدتَ لوقْعِه ووطْئه شيئاً لا تجده لصاحبه، وكأنَّ العضوَ الذي كـان يشـدُّ توتير النَّسَا، ومَعاقد الوركين ومعاليق العصـب، لَمَّـا بطـل وذهـب الذي كان يمسكُه ويرفعه، فيخفّ لذلك وقْعُ رجلِه، صـار كالـذي لا يتماسَكُ ولا يحمل بعضه بعضاً.

أثر الخصاء في الذكاء

ويعرض له أنَّ أخوين صَقْلَبِيَّيْنِ مِن أمّ وأبٍ، لو كان أحدهُما تـوءمَ أخيه، أنَّه متى خُصِيَ أحـدُهما خـرَج الخَصـيُّ منهمـا أجـوَدَ خِدمـةً، وأفطن لأبـواب المعاطـاة والمُنَاولـةِ، وهـو لهـا أتقَـنُ وبهـا أليـق،

وتجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة، فيُخصُّ بذلك كلِّه، ويبقى أخوه على غثارة فطرته، وعلى غباوة غريزته، وعلى بلاهة الصَّقْلَبيَّة، وعلى سوءِ فهم العجَميّة.

ويدُ الإنسان لا تكون أبداً إلا خرْقاءَ، ولا تصير صَناعاً ما لم تكنْ المعرفةُ ثِقافاً لها، واللسان لا يكون أبرأَ، ذاهباً في طريق البيان، متصرفاً في الألفاظ، إلاّ بعد أن تكونَ المعرفةُ متخلِّلَةً به، منقّلة له، واضعةً له في مواضع حقوقِه، وعلى أماكن حظوظِه، وهو علَّةٌ له في الأماكن العميقة، ومصرِّفةٌ له في المواضع المختلفة.

فأوَّلُ ما صنع الخِصاءُ بالصَّقْلَبِيِّ تزكيةُ عقلهِ، وإرهافُ حدِّه، وشحْذُ طبعِه، وتحريكُ نفسه، فلما عرَف كانت حركته تابعةً لمعرفته، وقوَّته على قدر ما هيّجه.

فأمَّا نساءُ الصقالبة وصبيانهم، فليس إلى تحويل طبائعهم، ونقْل خَلْقهم إلى الفطنة الثاقبة، وإلى الحرَكَة الموزونة، وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة، سبيلٌ، وعلى حسَب الجهْل يكون الخُرْق، وعلى حسب المعرفة يكون الحِذق، وهذا جملةُ القول في نسائهم، وعلى أنّهنَّ لا حظوظَ لهنَّ عند الخلوة، ولا نفاذَ لهنَّ في صناعة؛ إذ كنَّ قد مُنِعن فهمَ المعاطاة ومعرفةَ المناولة.

والخِصيانُ معَ جودة آلاتهـم ووَفَـارة طبـائعهم فـي معرفـةِ أبـوابِ الخِدْمة، وفي استواءِ حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحـداً منهـم قطُّ نفَذَ في صناعةِ تنُسب إلى بعضِ المشقَّة، وتضافُ إلى شـيءٍ من الحكمة، ممَّا يُعرَف ببُعْد الرَّوِيَّةَ، والغـوصِ بإدامـة الفكـرة، إلا ما ذكرُوا من نَفَاذ ثقف في التحريك للأوتـار، فـإنَّه كـانَ فـي ذلـك مقـدَّماً، وبـه مـذكوراً، إلاَّ أنَّ الخصـيَّ مـن صـباه، يُحسِـن صـنعة الـدّابوق، ويُجِيـد دُعـاءَ الحمـام الطـوُّريِّ، ومـا شـئتَ مـن صـغار الصـــناعات.

وقد زعم البصريُّون أَن حَديجاً الخصـيّ، خـادمَ المُثنّـى بـن زُهَيـر، كان يُجـاري المُثَنّى فـي البصَـر بالحمـام، وفـي صـحّة الفِراسـة، وإتقان المعرفة، وجودة الرياضة، وسنذكُر حـالَه فـي بـاب القـول فـــي الحمـــام إن شـــاء اللّـــه تعـــالى.

هذا قولهم فيمن خُصـي مـن الصـقالبة، وملوكُنـا لعقـول خِصـيان خُراسانَ أحمد، وهـم قليـل، ولـذلك لـم نـأتِ مـن أمرهـم بشـيءٍ مشهور، وأمر مذكور.

خصيان السند

وأما السِّند، فلم يكن فيهم أيضاً من الخِصيان إلاّ النَّفرُ الذين كان خصاهم موسى بنُ كعب، وقد رأيت أنا بعضَهم، وزعم لي أنَّه خَصَى أربعةً هو أحدهم، ورأيتُ الخِصاء، قد جذبَه إلى حبِّ الحمام، وعمل التكك، والهراش بالديوك، وهذا شيءٌ لم يُجْرِ منه على عِرق، وإنما قاده إليه قطعُ ذلك العضو.

خصيان الحبشة والنوبة والسودان

فأمَّا الخصيان من الحُبْشان والنُّوبة وأصناف السودان، فإنّ الخصاءَ يأخذُ منهم ولا يعطيهم، وينقُصهم ولا يزيدهم، ويحطُّهم عن مقادير إخوانهم، كما يزيد الصقالبةَ عن مقادير إخوتهم، لأن الحبشيَّ متى خُصِي سقطَتْ نفسه، وثقُلت حركته، وذهب نشاطه، ولا بدَّ أن يعرض له فساد، لأنه متى استُقْصي جِبابُه لم يتماسك بوله، وسلُس مخرجه، واسترخى الممسك له، فإن هم لم يستقصوا جِبابه، فإنما يُدخل الرجل منزله مَن له نصفُ ذلك العضو، وعلى أنك لا تجد منهم خَصِياً أبداً، إلاّ وبِسُرَّتِه بُجْرَةٌ، ونفخة شنيعة، وذلك عيبٌ شديد، وهو ضرب من الفتق، مع قُبحِه في العَين، وشُنعَته في الذِّكْر، وكلُّ ما قَبُح في العين فهو مؤلم،

وكل ما شنُع في النفس فهو مؤذٍ، وما أكثَرَ ما تجـد فيهـم الألطَـع، وذلك فاشٍ في باطن شفاههم، ومتى كانت الشفاه هُدْلاً، وكــانت المشـافرُ منقلبـة، كـانت أَظهـر للَّطَـع، وهـو ضـرب مـن الـبرص، والبياض الذي يعرض لغَرَاميل الخيل وخُصَـاها، ضـربٌ أيضـاً مـن البرص، وربما عَرَض مثل ذلك لحشفةِ قضيب المختون، إمَّا لَطَبَع الحديد، وإمّا لقـرب عهـده بالإحـداد وسـقْيِ المـاء، إِلاّ أنَّ ذلـك لا يعدُو مكانه، وكلما عظُمت الحشفةُ انبسَطَ ذلك البياضُ على قـدر الزيادة فيها، وإنَّمـا ذلـك كالبيـاض الـذي يعـرِض مـن حَـرْق النـار وتشييطها، وكالذي يعـرض للصـقالِبَة مـن التَّعالُـج بـالكيِّ، وربَّمـا اشتدَّ بياضُه حتى يفحُـشَ ويُردِيـه، إلا أنَّـه لا يفشـو ولا ينتشـر، إلاّ بقدر ما ينبسط مكانه، ويتحـوَّل صـاحبه رجُلاً، بعـد أن كـان صـبيّاً، وليس كالذي يعرِض من البلغم ومن المِرَّة، وبعضُ البرص يــذهب حتى كأنه لم يكن، وبعضُه لا يذهب ولا يقـف، بـل لا يـزال يتفشَّـى ويتَّسع حتى ربَّما سلخه، ولا يذهب إلاّ بأنْ يذهب بـه نـبي، فيكـون ذلك علامةً له، ومن البهق الأبيض ما يكـاد يلحـق بـالبَرَص، ولكـن الــذي هــوَّن أمــره الــذي تــرونَ مــن كــثرَةِ بُــرءِ النــاس منــه. ثمَّ الخصاءُ يكونُ على ضروبٍ، ويكون في ضروب، فمـن ذلـك مـا

يعرِض بعدَ الكِبَر للأحرار، كما يعرض للعبيد، وللعرب كما يعرض للعجم، كما خَصَى بعضُ عَبَاهلةِ اليمن علقمةَ بنَ سهلٍ الخَصيّ

علقمة الفحل وعلقمة الخصي

وإنما قيل لعلقمةَ بن عَبَدَةَ الفحلُ، حين وقعَ على هذا اسمُ الخصي، وكان عبداً صالحاً، وهو كان جَنَبَ الجدِيل وداعراً، الفحلين الكريمين، إلى عمان، وكان من نازليها، وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامة بنِ مَظْعونٍ في شرب الخمر، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه: أتَقبَلُ شهادةَ الخصيِّ؟ قال: أما شهادتك فأقبَلُ، وهو عَلقمةُ بن سهْلِ بن عمارة، فلمَّا سمّوه الخصيّ، قالوا لعلقمةَ ابن عَبَدة: الفحل، وعلقمةُ الخصيّ، الذي يقول:

يَعْدَمَ الباقون قبراً لجثَّتي — يعدَم الميراثَ منِّي المواليا
على ما كنت أجمعُ لهمْ جَمْعِي وما كنتُ والِيا
في زَوْراءَ ثُمَّتَ لشأنهِمُ قَدْ أَفْرَدُونِي وشَانِيا
مالي من طريفٍ وكانَ المالُ بالأمس ماليا

وكما عرَض للدَّلال ونَومَةِ الضُّحى، مِن خصاءِ عُثمانَ بن حيَّان المرّيّ والي المدينة لهما، بكتابِ هشام بن عبد الملك.

أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك فمِنْ بني مرْوان من يدَّعي أنَّ عاملَ المدينةِ صحَّف، لأنه رأى في الكتاب: أَحصِ مَنْ قِبَلَكَ مِنَ المخنَّثين فقرأها: اخْصِ مَنْ قِبَلَك من المخنَّثين، وذكر الهيثمُ عن الكاتب الذي تولَّى قراءَة ذلك الكتاب، أنَّه قال: وكيف يقولون

ذلـك ولقـد كـانت الخـاء معجمـةً بنقطـةٍ، كأنهـا سُـهيل أو تمْـرةُ صيحانية؟ فقال اليقطري: ما وجْهُ كتابِ هشامٍ فـي إحصـاءِ عـدَد المخنَّثين؟ وهذا لا معنى له، وما كان الكتـابُ إلاّ بالخـاء المعجمـة دون الحـــــــــــــــــاء المهملـــــــــــــــــة.

وذُكِر عن مشايخَ من أهل المدينـة أنهـم حكَـوا عنهمـا أنهمـا قـالا: الآن صِرنَا نساءً بالحقّ كأَنَّ الأمرَ لو كـان إليهمـا لاختـارا أن يكونـا امرأتين قال: وذُكِر أنهما خرجا بالخصلتين من الخصاء والتخنيـث، من فُتورِ الكلام ولِين المفاصل والعظـام، ومـن التفكُّـك والتثنِّـي، إلى مقدار لـم يـرَوا أحـداً بلغـه، لا مـن مخنَّثـات النسـاء، ولا مـن مؤنَّثي الرجال أبو همام السنوط وكما عرَض لأبي همام السَّـنُوط مِن امتلاخِ اللُّخْم مـذاكيرَه وخصـيَيه، أصـابَه ذلـك فـي البحـر فـي بعضِ المغازي، فسقطت لحيتُـه، ولقِّـب بالسَّـنُوط، وخَـرَج لـذلك نَهِمـــــــــــــــاً وشَـــــــــــــــرِهاً.

وقال ذات يوم: لو كان النخلُ بعضُه لا يحمل إلاَّ الرُّطَـب، وبعضُـه لا يحمل إلاّ التمرَ، وبعضُه لا يحمـلُ إلاّ المجـزَّع، وبعضُـه لا يحمـل إلاّ البُسـر، وبعضُـه لا يحمـل إلا الخَلاَل، وكنَّـا مـتى تناولْنـا مـن الشِّمْراخ بُسْرَةً، خلقَ اللّهُ مكانها بُسَرتين، لَمَا كان بذلك بأس ثـم

قال: أستغفرُ اللّه لو كنتُ تمنيَّتُ أن يكونَ بـدل نـواةِ التمـر زُبـدة كـان أصـوَب!! ومنـه مـا يعـرض مـن جهـة الأوجـاع الـتي تعـرِض للمذاكير والخصـيتين، حـتى ربمـا امتلخَهمـا طـبيبٌ، وربَّمـا قطَـع إحداهما، وربما سقطتا جميعاً من تلقاءِ أنفسهما

نسل منزوع البيضة اليسرى

والعوامُّ يزعمون أنَّ الولدَ إنّما يكونُ مـن البيضـة اليسـرى، وقـد زعمَ ناسٌ من أهل سليمان بـن علـيٍّ ومـواليهم، أنَّ ولـدَ داود بـن جعفـر الخطيـب المعـتزليِّ، إنَّمـا وُلِـد لـه بعـد أن نُزِعـت بيضـتُه اليُسـرى، لأمـر كـانَ عـرض لـه. والخصيُّ الطيّان، الذي كان في مسجد ابن رَغبـان، وُلِـدَ لـه غلام، وكـان ليـس لـه إِلاَّ البيضـةُ اليُمنـى، فجـاء أشـبهَ بـه مـن الـذُّباب بالذُّباب والغـرابِ بـالغرابِ، ولـو أبصَـرَه أجهـلُ خلـقِ اللّـه تعـالى بِفراسةٍ، وأبْعـدُهم مـن قِيافـةٍ، ومـن مخالَطَـةِ النخَّاسـين، أو مـن مجالسةِ الأَعراب، لعِلمَ أنَّـه سُـلالَتُه وخلاصـته، لا يحتـاج فيـه إلـى مجزِّز المُدْلجِيّ، ولا إلى ابن كريز الخُزاعي

خصاء الروم

ومن أهل الملل من يَخْصي ابنَه ويقفُه على بيت العبادَة، ويجعلـه سادناً، كصنيع الرُّوم، إلا أنهـم لا يُحـدثون فـي القضـيب حـدثاً، ولا يتعرضون إلا للأنثيين، كأنهم إنما كرهـوا لأولادهـم إحبـالَ نسـائِهم ورواهبهم فقط فأما قضاءُ الوَطَر وبلوغُ اللـذة، فقـد زعمـوا أنهـم يبلُغـون مـن ذلـك مبلغـاً لا يبلُغـه الفحـل، كـأنهم يزعُمـون أنـه يستقصي جميعَ ما عِندها ويستَجْلبه، لفَرْط قوَّته علـى المطاولـة. الروم أول من ابتدع الخصاء وكلُّ خصاءٍ في الدنيا فإنما أصلُه من قِبَل الروم، ومن العجب أنهم نصـارى، وهـم يـدَّعون مِـن الرأفـة والرحمة، ورقَّة القلبِ والكَبِد، ما لا يدَّعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالِخصاء مُثْلةً وحسـبك بصـنيع الخاصـي قسـوة ولا جَـرَم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخِصيان، من طَلَب الطوائـل وتـذكُّر الأحقـاد، مـا لـم يظنُّـوه عنـدَهم، ولا خـافوه مـن قِبَلِهـم، فلا هـم ينزِعون، ولا الخِصيانُ يَنْكِلون، لأنَّ الرِّمايةَ فيهم فاشـية، وإن كـان الخصيُّ أسواراً بلغَ منهم، وإن كان جمع معَ الرماية الثَّرْوة، واتخذ بطَرَسُوس، وأذَنَة، الضِّياعَ واصطنعَ الرجال، واتخـذ العُقَـد المُغِلَّـة فمضرَّة كلِّ واحدٍ منهم عليهم، تَفِي بمَضَرَّةِ قائـدٍ ضـخم، ولـم تـرَ عَداوةً قطُّ تجوز مقدارَ عداوتهم لهم، وهذا يدلُّ على مقدار فـرطِ

الرغبة في النساء، وعلى شهوةٍ شديدةٍ للمباضَعة، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا، وهذه خصلةٌ كريمة مع طلب المثوبة، وحسن الأحدوثة

خصاء الصابئة

فأما الصابئون، فإنَّ العابدَ منهم ربَّما خصى نفْسَه، فهو في هذا الموضع قد تقدم الروميَّ، فيما أظهرَ من حُسْنِ النيَّة، وانتحل من الديانةِ والعبادة، بخصاء الولد التامِّ، وبإدخاله النقصَ على النَّسلِ، كما فَعَل ذلك أبو المبارك الصابي، وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويَسمَر عندَهم، للَّذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام، وطُرَف الأخبار، ونوادر الكتب، وكان قد أربى على المائة، ولم أسمعْ قطُّ بأغزَلَ منه، وإنْ كان يصدُق عن نفسه فما في الأرض أزنى منه حديث أبي المبارك الصابي حدَّثني محمد بن عباد قال: سمعته يقول وجرى ذكرُ النساء ومحلِّهن من قلوب الرجال، حتَّى زعموا أنَّ الرجلَ كلما كانَ عليهن أحرصَ كان ذلك أَدلَّ على تمام الفُحولة فيه، وكان أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقِته ومعناهُ وطبعهِ، إذ كان قد جُعِل رجلاً ولم يُجعل

امرأة قال ابن عبّاد، فقال لنا: ألستْم تعلمون أنِّي قد أربَيتُ علــى المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهْنُ الكِبَرِ، ونفـاذُ الـذِّكْرِ، ومـوتْ الشـهوة، وانقطـاعُ ينبُـوع النطْفـةِ، قـد أمـاتَ حنينـه إلـى النساء وتفكيرَه في الغزَل؟ قال: قلنا: صَدقتَ، قـال: وينبغـي أن يكون مَن عوَّد نفسه تركَهنَّ مُدداً، وتخلى عنهن سِـنينَ ودهـراً، أن تكون العادة وتمرينُ الطبيعة، وتوطينُ النفسِ، قد حـطَّ مـن ثقـل منازعة الشهوة، ودواعي الباءة، وقد علمتمْ أنَّ العـادة الـتي هـي الطبيعة الثانية، قد تستحكم ببعض عمـدِ هَجْـرٍ لملامسـةِ النسـاء، قال: قلنا: صـدقت، قـال: وينبغـي أن يكـونَ مَـن لـم يـذُقْ طعـم الخَلوة بهنَّ ولم يجالسهنَّ متبذلات، ولم يسمَعْ حديثَهنَّ وخِلاَبتهــنَّ للقلوب، واستِمالتهن للأهواء، ولم يَرَهُـنَّ منكشـفاتٍ عاريـاتٍ، إذا تقدم له ذلك معَ طولِ التَّـرك، ألا يكـون بقـي معـه مـن دواعيهـن شيء؟ قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي أن يكون لِمَنْ قد عِلم أنه محبوبٌ، وأنَّ سببه إلى خِلاطهـنَّ محسـوم، أن يكـون اليـأسُ مـن أمتن أسبابه إلى الزهد والسلوة، وإلى موت الخواطر، قال: قلنا : صدقت، قال: وينبغي أن يكونَ من دعاةُ الزُّهدُ فـي الـدنيا، وفيمـا يحتويه النساءُ مع جمالهنَّ وفتنةِ النُّسَّاكِ بهنّ، واتخاذِ الأنبياء لهـنّ،

إلـى أن خَصَـى نفسـه، ولـم يُكْرهُـه عليـه أبٌ ولا عـدوٌّ، ولا سَـباه ساب، أن يكون مقدارُ ذلك الزهد هو المقـدار الـذي يُميـت الـذِّكْرَ لهنَّ، ويُسَرِّي عنه ألم فقد وُجودِهنَّ، وينبغي لمن كان فـي إمكـانه أن ينشئ العزم ويختارَ الإرادة التي يصير بها إلى قطع ذلك العضوِ الجامع لِكبار اللذَّات، وإلـى مـا فيـه مـن الألـم، ومـع مـا فيـه مـن الخطر، وإلى ما فيه من الْمُثلة والنَّقصِ الداخل علـى الخلقـة، أن تكون الوساوس في هذا الباب لا تعرُوه، والدواعي لا تقْروه، قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي لِمَنْ سَخَتْ نفسـه عـن السَّـكَن وعـن الوَلد، وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح، أن يكون قـد نسـيَ هذا البابَ، إن كان قد مرَّ منه على ذُكْـرِ، هـذا وأنتـم تعلمـونَ أنِّـي سَمَلْتُ عيني يومَ خصَيت نفسي، فقد نسيتُ كيفية الصُّـوَرِ وكيـف تَرُوع، وجَهِلت المراد منها، وكيف تُراد، أفما كـان مَـنْ كـان كـذلك حَرِيًّا أن تكون نفسُه ساهيةً لاهية مشغولةً بالبابِ الذي أحتمل لــه هذه المكاره؟ قال: قلنا: صدقت، قال: أَو لوْ لم أكنْ هَرِمـاً، ولـم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ، وكانت الآلة قائمةً أليس في أنِّي لـم أذقْ حيواناً منذُ ثمانينَ سنة ولـم تمتـلِ عُروقـي مـن الشـرابِ مخافـةَ الزيادة في الشهوة، والنقصانِ مـن العـزم - أليـسَ فـي ذلـك مـا

يقطع الدواعي، ويُسْكِن الحركة إن هاجت؟ قـال: قلنـا: صـدقت، قال: فإنِّي بعدَ جميع ما وصفتُ لكم، لأَسْمَعُ نغْمـة المـرأةِ فـأظنُّ مرَّةً أنّ كَبِدي قد ذابت، وأظنُّ مرّةً أنها قد انصدعت، وأظنُّ مــرّةً أنّ عقلي قد اختُلِس، وربَّما اضطرب فُؤادِي عند ضـحِك إحـداهُنّ، حتَّى أظنّ أنَّه قد خرجَ من فمي، فكيف ألومُ عليهـنَّ غيـري؟ فـإن كان - حفظك اللّه تعالى - قد صدقَ على نفسه فـي تلـك الحـال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنُّك بهذا قبل هذا الــوقت بنحـو سِتِّين سـنة أو سـبعين سـنةً؟ ومـا ظنَّـك بـه قبـلَ الخصـاء بساعة؟ وليس في الاستطاعةِ ولا في صـفِة الإمكـان، أن يحتَجِـز عن إرادة النسـاء، ومعِـه مـن الحاجِـة إليهـنَّ والشـهوةِ لهـنَّ هـذا المقـدارُ اللّـه تعـالى أرحـمُ بخلقِـه، وأعـدَلُ علـى عبـاده، مـن أن يكلِّفَهم هِجرانَ شيءٍ، قد وصلَه بقلوبهم هذا الوصـلَ، وأكَّـدَه هـذا التأكيـــد.

وقد خصى نفسـه مـن الصـابئين رجـالٌ، قـد عرَفنـاهم بأسـمائهم وأنسابهم، وصفاتهم وأحاديثهم، وفي الـذي ذكرنـا كفايـةٌ إن شـاء اللّه تعالى

استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء

وقد ذُكرِ أَنَّ عثمانَ بن مَظْعونٍ، اسْـتَأْذنَ النـبي صـلى اللّـه عليـه وسلم في السياحة فقال: سِيَاحَةُ أُمَّتِـي الجَمَاعَـة، واسـتأْذَنَه فـي الخصاءِ فقال: خِصاء أمَّـتي الصـوم، والصـوم وِجـاء، فهـذا خِصـاءُ الديانة.

خصاء الجلب وقسوته

فأمَّا من خصى الجَلَبَ على جهـة التجـارة، فـإنه يَجُـبُّ القضـيب، ويمتلخ الأنثيين، إلا أن تقلَّصت إحداهما مـن فَـرْط الفَـزَع، فتصـيرُ إلى موضعِ لا يمكن ردُّها إلا بعلاج طويل، فللخاصي عند ذلك ظلمٌ لا يفي به ظُلم، وظلم يُربي على كلِّ ظلم، لأنّه عندَ ذلك لا يحفِـل بفوت المتقلِّص، ويقطع ما ظهر له، فإن برئ مجبوبَ القضـيب أو ذَا بيضةٍ واحدة، فقد تركه لا امرأةً ولا رجُلاً ولا خَصِيًّا، وهـو حينَئـذٍ ممَّن تخـرُج لحيتُـه، ومِمَّـن لا يـدعه النـاسُ فـي دُورهـم ومواضعِ الخُصوص مـن بيـوتهم، فلا يكـونُ مـع الخصـيان مقرَّبـاً ومكرَّمـاً، وخَصِيبَ العَيش منعَّماً، ولا هو إذا رُمِي به في الفحول، كان له مـا للفحول من لذَّةِ غِشيان النساء، ومِـن لـذّةِ النسـل والتمتُّعِ بشـم

الأولاد؛ فلم يزَل عندَ الفحولِ مستضعَفاً محتقراً، وعند الخِصيان مجرَّحاً مطرحاً، فهو أسوأُ حالاً من السَّدِمِ المعنَّى فلا أعلم قتْلَهُ إذا كان القتلُ قِتلةً صريحة مُرِيحة إلا أصغَر عند اللّه تعالى، وأسهلَ على هذا المظلوم من طول التعذيب، واللّه تعالى بالِمرصاد.

خصاء البهائم

وأمّا خصاءُ البهائم، فمنه الوِجاءُ، وهو أن يشدَّ عصَبُ مجامع الخُصيةِ من أصل القضيب، حتَّى إذا نَدَرت البيضة، وجَحَظت الخُصية، وجأَها حتى يرضَّها، فهي عند ذلك تذبُل وتنخسف، وتذوِي وتستَدِقّ، حتى تذهبَ قُواها، وتنسدَّ المجاري إليها، ويسريَ ذلك الفسادُ إلى موضع تربيةِ النُّطْفة، فيمنعَها من أن تكثُر أو تعذب أو تخثُر.

ومنها ما يكون بالشدِّ والعصْب، وشدَّةِ التحزيق، والعَقْدِ بالخيط الشديد الوَتير الشديد الفتل، فإذا تركه على ذلك عِمل فيه وحزَّ، أَو أَكلَّ ومنعَه من أن يجزيَ إليه الغذاءُ، فلا يلبثُ أن ينقطعَ

ويسـقط.

ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين

خصاء الناس

فأمَّا خصاءُ الناس، فـإنّ للخاصـي حديـدةً مرهَفَـةً مُحْمـاة، وهـي الحاسمة، وهي القاطعة، قال أبو زيد: يقال خصَيت الدابة أَخصِيها خِصاءً، ووجأتها أجَؤُها وِجـاءً، ويقـال: برئـتُ إليـك مـن الخصـاء أو الوجاء، ولا يقال ذلك إلاّ لما كان قريبَ العهـد لـم يـبرأ منـه، فـإذا بـرئ لـم يُقـل لـه.

وأما الخِصـاءُ فهـو أنْ يسـلَّ الخُصـيتين، والوجـاء أن توجَـأ العـرقُ والخصيتان على حالهما، والمعصـوب مـن الـتيوس الـذي تُعصَـب خُصيتاه حـتى تسـقطا، والواحـد مـن الخصـيان خَصِـيٌّ ومخصـيّ، ويقال ملست الخصيتَين أملُسهما ملْسـاً، ومَتَنْتُهمـا أمتنهمـا متْنـاً، وذلك أن تشقّ عنهما الصَّفَن فتسلَّهُما بعروقهما، والصَّفَن: جلـدة الخُصيتين.

خصاء البهائم والديكة

والخِصاءُ في أَحداثِ البهائم، وفي الغنم خاصةً، يدع اللَّحمَ رَخْصاً وندِيًّا عذباً، فإنْ خَصَاه بعد الكبر، لم يقو خِصاؤُه بعدَ استحكامِ القوَّة على قلْب طباعه، وأجود الخِصاء ما كانَ في الصِّغَر، وهو يسمَّى بالفارسية ثربخت يُعنى بذلك أنّه خُصِيَ رطباً، والخَصيُّ من فحولها أحَملُ للشحم، لعدم الهيْج والنَّعْظ، وخروج قواه مع ماء الفِحْلة، وكثرةُ السِّفاد تورث الضَّعْفَ والهُزالَ في جميعِ الحيوان، وقد ذُكِر لمعاوية كثرة الجماع فقال: ما استُهتِرَ به أحدٌ إلاّ رأيت ذلك في مُنَّته، والديك يُخصى ليَرطب لحمُه ويطيب ويحملِ الشحم.

خصاء العرب لفحولة الإبل

وكانت العربُ تَخصِي فُحولَةَ الإبل لئلاَّ يأكلَ بعضُها بعضاً، وتستبقي ما كان أجودَ ضِراباً، وأكثرَ نَسْلاً، وكلَّ ما كان مئناثاً وكان شابًّا ولم يكن مذكاراً، وهم يسمُّون الإذكار المحْقَ الخَفِيّ، وما كان منها عَيَاياءَ طَبَاقاءَ، فمنها ما يجعل السّدِمَ المعنَّى، وإذا كان الفحلُ لا يُتَّخذ للضِّراب، شدُّوا ثِيلَه شدّاً شديداً، وتركوه يهدِر ويُقَبقِب في الهَجْمة، ولا يصل إليهنَّ وإن أردنَه، فإذا طلبْنَ الفحلَ جِيءَ لهنَّ بفحلٍ قَعْسريٍّ ويقولون: لَقْوَةٌ لاقتْ قَبيساً، والقَبيس من الجِمال: السريع الإلقاح، واللَّقوة: السريعة القَبول لماءِ الفحلِ.
وشكت امرأةٌ زوجَها، وأخبرتْ عن جهِله بإتيان النساء، وعِيِّه وعجْزِه، وأنَّه إذا سقط عليها أطَبقَ صدرَه - والنساءُ يكرهْنَ وقُوعَ صدورِ الرجال على صدورهنَّ فقالت: زَوْجِي عَيَاياءُ طَبَاقاء، وكلُّ داءٍ لَهُ داءُ وقال الشاعر:

لم يَشْهدْ خُصوماً ولم إلى أكوارِها حينَ تعكف

خصاء العرب للخيل

وكانوا يخْصُون الخيل لشبيه بذلك، ولعلَّة صهيلها ليلةَ البَيَات، وإذا أكمنوا الكُمَناء أوْ كانو هُرَّاباً.

القول في كلمة خنذيذ ويزعم من لا علم له، أنَّ الخنذيذ في الخيل هو الخصيُّ، وكيف يكون ذلك كما قال، مع قول خُفَاف بن نَدْبة:

وخناذيذ خصيةً وفُحولا

وقال بشرُ بنُ أبي خَازم:

تَرَى الغُرْمُولَ منهُ كَطيِّ البُرْدِ يَطويه التِّجَارُ

وليس هذا أرادَ بِشر، وإنَّما أراد زمانَ الغزو، والحالَ التي يعتري الخيلَ فيها هذا المعنى ، كما قال جد الأحيمر:

أعقُّ ولا أحُو ب ولا أُغِيرُ على مُضَرْ
لكنَّما غزوِي إذا ضجَّ المطيُّ من الدَّبَرْ

وإنَّما فخر بالغزْو في ذلك الزمان.

وأما الخنذيذ فهو الكريم التامُّ، وربَّما وصفوا به الرجل، وقال كثير:

كل خنذيذ الضُّحَى متمطِّرٍ وخَيْفانةٍ قد هذَّب الجريُ آلَها

وقال القطامي:

كلِّ خنذيذ السَّراة مُقلِّصٍ تخثَّثَ منه لحمُه المتكاوِسُ

ومن الدليل على أنَّهم ربما جعَلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيذاً، قولُ بعضِ القيسيين، مِن قيس بن ثعلَبة:

بني سعدٍ إليَّ فشمَّرتْ خناذيذُ مِن سعدٍ طِوالُ السواعد

عبد اللّه بن الحارث وعبد الملك بن مروان وقال عبدُ اللّه بن الحارث، وكتب بها إلى عبدِ الملكِ بن مرْوان حينَ فارقَ مُصعباً:

بلاءٍ أم بأيَّةِ عِلَّةٍ قبلي مُسلِمٌ والمهلَّبُ

ابنُ منجوفٍ أمامي دنا للماءِ من غير مَشْرَبِ

فقلت ليونس: أقوى فقال: الإقواءُ أحسَنُ من هذا قال: فلمَّا أخذتْه قيسٌ نصبُوه، فجَعلوا يرمُونه بالنبل ويقولون: أذاتَ مغازل تَرَى؟ يريدون بيت ابن الحرّ:

قيساً قيسَ عَيلانَ لِحاهَا وباعت نبلها بالمغازل

فلما أتي مُصعبٌ برأسِه، قال لسُويد: يا أبا المِنهال كيف ترى؟ قال: أيُّها الأمير هو واللّه الذي أتَى الماءَ من غير مَشْرَب.

وقال أعشَى هَمْدان:

بُريذِعةَ الذي حُدِّثْتَهُ أذَلُّ مِن الخَصيِّ الدَّيزجِ

وتعرِض للخصيِّ سُرعة الدَّمعة، وذلك مِن عادةِ طبائعِ الصبيان ثم النِّساءِ، فإنَّه ليس بعدَ الصبيان أغزَر دَمعةً من النساء، وكفاك بالشيوخ الهرمين أخلاق الخصي

ويعرض للخصيِّ العبثُ واللَّعِبُ بالطير، وما أشبهَ ذلك من أخلاق النساء، وهو من أخلاق الصبيان أيضاً.

ويعرض له الشَّرَه عندَ الطعام، والبخل عليه، والشحُّ العامُّ في كلِّ شيء، وذلك مِن أخلاق الصِّبيانِ ثم النِّساء.

وقال الشاعر:

رُومان قيساً إذا غدَا خَصِيٌّ بَراذينٍ يُقَاد رَهيصُ
معْدَةٌ لا يشتكي الدهرَ وحَنجرةٌ بالدورقين قموصُ

ويعرض للخصيِّ سرعةُ الغضبِ والرضا، وذلك من أخلاق الصِّبْيان والنِّساء، ويعرض له حبُّ النميمة، وضيقُ الصدرُ بما أُودِع

من السرّ، وذلـك مـن أخلاق الصـبيان والنسـاء، ويعـرض لـه دون أخيه لأُمِّـه وأبيـه، ودون ابـنِ عمِّـه وجميـعِ رهطـه، البصَـرُ بـالرَّفْع والوضْـع، والكنـسِ والـرشِّ، والطَّـرح والبسْـطِ، والصـبرُ علـى الخدمة، وذلك يعرِض للنساء، ويعـرض لـه الصـبرُ علـى الرُّكـوب، والقوَّة على كـثرةِ الركْـض حتَّى يجـاوز فـي ذلـك رجـالَ الأتـراكِ وفرسانَ الخوارِج، ومتى دفَع إليه مَولاه دابَّتَه ودخل إلـى الصـلاة، أو ليغتسل في الحمام، أو ليعودَ مريضاً، لم يـترُكْ أن يُجـرِيَ تلـك الدابَّـــةَ ذاهبـــاً وجائيـــاً، إلـــى رجـــوع مـــولاه إليـــه.

ويعرض له حبُّ الرمي بالنَّشَّاب، لِلَّذي يدور فـي نفسِـه مـن حـبِّ غزو الرُّوم، ويعرض له حبُّ أن تَمْلكَه الملوك، على أَلاَّ تقيمَ له إلاَّ القوتَ ،ويكونُ ذلك أحبَّ إليه من أنْ تملكَه السُّـوقةُ، وإن ألحقتْـه بعيـــــــــــــــــــشِ الملـــــــــــــــــــوك.

ومن العجب أنَّهم مـع خروجِهـم مـن شَـطْر طبـائع الرجـال، إلـى طبائع النساء، لا يعرِض لهم التخنيـث، وقـد رأيـت غيـرَ واحـدٍ مـن الأعرابِ مخنَّثاً متفكِّكاً، ومؤنثاً يَسِيلُ سيلاً، ورأيـتُ عـدّةَ مجـانينَ مخنَّثين، ورأيتُ ذلك في الزَّنج الأقْحاح، وقد خبَّرني من رأى كُردِيّاً مخنثاً، ولم أَر خَصيّاً قط مخنَّثاً، ولا سمعتُ به؛ ولا أدري كيف ذلك

ولا أعرف المانعَ منه، ولو كان الأمرُ في ذلـك إلـى ظـاهِر الـرأي، لَقَــدْ كـــان ينبغـــي لهـــم أن يكـــونَ ذلـــك فيهـــم عامّـــاً.

ومما يَزيدني في التعجُّب من هذا الباب، كثرةُ ما يعرِض لهـم مـن الحُلاَق، مع قلّةِ ما يعرِض لهم من التخنيث، مع مفـارقتِهم لشـطرِ معـــــــاني الرجـــــــال إلـــــــى شـــــــبه النســـــــاء.

ويزعم كثير من الشيوخ المعمَّرين؛ وأهل التجرِبة المميِّزين، أنّهـم اختبروا أعمارَ ضُروبِ الناس، فوجدوا طولَ الأعمارِ في الخصـيان أعمَّ منـه فـي مثـلِ أعـدادهم مـن جميـع أجنـاس الرجـال، وأنّهـم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتِهم وبني أعمامهم الذين لم يُخصَــوْا، فَوجدُوا طول العُمُر في الخِصـيان أعـمَّ، ولـم يجـدوا فـي عمـومِ طــوال العمــر فيهــم واحــداً نــادراً، كفلانٍ وفلان مــن الفحــول.

وزعموا أنّهم لم يجدوا لطول أعمارِهِمْ علّةً إلاَّ عدَمَ النِّكـاح، وقلّـةَ اســـــــتفراغِ النُّطـــــــف لقُـــــــوى أصـــــــلابهم.

قالوا: وكذلك لم نجدْ فيما يعايشُ الناسَ في دُورهـم، مـن الخيـل والإبل، والحميـر، والبقـر، والغنـم، والكِلابِ، والـدَّجاج، والحمـام، والدِّيَكـــة، والعصـــافير، أطـــول أعمـــاراً مـــن البغـــال.

وكذلك قالوا: وجدْنا أقلّها أعماراً العصافيرَ، وليس ذلك إلاَّ لكثْـرةِ

ســـــــــفادِ العصـــــــــــافير وقلّـــــــــةِ سِـــــــــفادِ البغــــــــال.

وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمر البغلِ على عمرٍ أبويَه دليلاً على أنّ قول الناسِ: لا يعيشُ أحدٌ فوق عمر أبويه خطأ، وأولئك إنما عنــوا الناسَ دونَ جميع الحيوان

النتاج المركب

وقالوا: قـد وجـدنا غُرمـولَ البغـل أطـولَ مـن غرمـول الحمـار والفرس والبرذون، وهؤلاء أعمـامُه وأخـواله، فقـد وجـدْنا بعـض النِّتاجِ المركَّبِ، وبعضَ الفروعِ المستخرجة، أعظَـم مـن الأصـل؛ ووجدنا الحمام الرَّاعبي أعظمَ من الوَرَشان الذي هو أبوه، ومِن الحمامة التي هي أمُّه، ولَم نجدْه أخذَ من عمـر الوَرَشـان شـيئاً، وخرج صَوْتهُ من تقديِر أصـواتهما، كمـا خـرج شَحِيح البغْـل مـن نهيق الحمار وصهيل الفرَس، وخرَجَ الرَّاعبِي مُسروَلاً، ولم يكــن ذلك في أبويه؛ وخرَجَ مُثْقَلاً سَيِّءَ الهداية، وللوَرشَان هداية، وإن كان دونَ الحمام؛ وجاءَ أعظمَ جُثّة من أبويه، ومقدارُ النّفَس مِن ابتداءِ هَدِيله إلى منقطعه، أضعافُ مقـدارِ هـديل أبـويه. وفَوالـجُ البُخْتِ إذا ضرَبت فـي إنـاث البُخْـت، ولـم يخـرُج الحُـوَارُ إلاّ أدَنّ

قصيرَ العُنق، لا ينال كلأً ولا ماءً إلاَّ بأنْ يُرفعا إليه، فيصيرُ لمكـانِ نُقْصـان خلقـه جَـزورَ لحـم، ولا يكـون مـن اليعمَلات ولا مـن السابقة، ولو عالُوه وكفَوه مُؤْنة تكلف المأكولِ والمشروب، ثـم بلَغَ إلى أن يَصيرَ جملاً يمكنه الضِّراب، وكذلك الأنـثى الـتي هـي الحائل إلى أن تصيرَ ناقة؛ فلو ألقحها الفحلُ لجـاء ولـدُها أٍقصـرَ عنقاً من الفيل، الذي لو لم يجعل اللّه تعالى له خرطوماً يتنـاولُ به طعامَه وشرابه، لمات جُوعـاً وهُـزالاً؛ وليـس كـذلك العِـرَاب، وإذا ضربت الفوالجُ فـي العـراب جـاءت هـذه الجـوامز والبُخْـت الكريمة التي تجمع عامَّة خصال العراب وخصالِ البُخت، فيكـونُ ما يُخـرِج الـتركيبُ مـن هـذين الجنسـين أكـرمَ وأفخـمَ وأنفـس وأثمن، ومتى ضربت فحولُ العرَاب في إناث البُخْت جاءت هـذه الإبل البَهْوَنِيَّة والصَّرصرانية فتخرج أقبح منظراً من أبويها، وأشدَّ أسْراً من أبويها، وقال الراجز:

بهونيٌّ من الأباعرِ

وبعد؛ فإنّ هذه الشّهْرِيَّة الخُراسانية، يخرج لها أبدانٌ فـوقَ أبـدانِ أمّهاتِها وآبائها من الخيل والبراذين، وتأخذ من عِتْـق الخيـل، ومـن وثاجة الـبراذين، وليـس نِتاجهـا كنتـاج البِـرذَونِ خالصـاً والفـرس

خالصاً.

وما أشبهَ قرابةَ الحمارِ بالرَّمكة والحِجْرِ، من قرابة الجمل الفالج البُخْتيِّ بقرابةِ القَلوص الأعرابيَّة.

الحمر الوحشية

ويقال إن الحمرَ الوحشيَّة، وبخاصّةٍ الأخدريَّة، أطولُ الحَمير أعماراً وإنما هي من نِتَاج الأخدَر، فرس كانَ لأَرْدَشير بن بابَك صار وحشيّاً فحمَى عِدَّة عاناتٍ فضرب فيها، فجاء أولادُه منها أعظمَ من سائر الحمر وأحسنَ، وخرجتْ أعمارُها عن أعمارِ الخيل وسائر الحُمُر أعني حمر الوحش فإنَّ أعمارَها تزيد على الأهليَّة مِراراً عِدَّة.

عير أبي سيارة ولا يعرفون حماراً وحشيّاً عاشَ أكثر وعُمِّر أطول من عير أبي سيَّارَة عُمَيلة بن أعزل؛ فإنهم لا يشكُّون أنّه دَفَع عليه بأهلِ الموسم أربعين عاماً!! قال الأصمعيُّ: لم يكن عيراً وإنما كان أتاناً.

لهج ملوك فارس بالصيد

وزعمـوا وكـذلك هـو فـي كتبهـم أنَّ ملـوكَ فـارسَ، كـانت لهجـة بالصـيد؛ إلا أنَّ بهـرام جـور هـو المشـهور بـذلك فـي العـوامّ.

وهم يزعمون أنّ فيروز بن قباذ الملك الفارسيّ، ألـحَّ فـي طلـب حمار أخدري؛ وقد ذُكر له ووُصف؛ فطاوَله عنـد طلبـه والتماسـه، وجدَّ في ذلك فلجَّ به عند طلبه الاغترام،وأخرجته الحفيظةُ إلى أن آلى ألاَّ يأخذهَ إلا أسراً، ولا يطاردَه إلا فرداً، فحمـل فرَسـه عليـه، فحطَّه في خبَار فجمع جَراميزه وهو على فرسه ووثَـب؛ فـإذا هـو على ظهره؛ فقمَص به، فضم فخـذيه فحطّـم بعـض أضـلاعه، ثـم أقبل به إلى معظم الناس، وهم وقوف ينظرون إليـه وهـو راكبـه.

قالوا: وكان الملك منهـم إذا أخـذَ عَيـراً أخـدريًّا وغيـرَ ذلـك؛ فـإذا وجدَه فتياً وسمَه باسمه وأرَّخ في وسمِه يومَ صيده وخلَّى سبيله، وكان كثيراً إذا ما صاده الملكُ الذي يقوم به بعدَه، سار فيـه مثلَـه تلك السِّيرةَ وخلَّى سبيله، فعـرَف آخرُهـم صـنيعَ أوّلهـم؛ وعرفـوا مقدارَ مقاديرِ أعمارها.

الحكمة في تخالف النزعات والميول

ولولا أنَّ ناساً مـن كـلِّ جيـل، وخصـائص مـن كـلِّ أمَّـة، يلهجـون ويَكْلَفون بتعرُّف معاني آخرين لدرسـتْ، ولعـلَّ كـثيراً مـن هـؤلاء يُـزْري علـى أولئـك، ويعجِّـب النـاسَ مـن تفرُّغهـم لمـا لا يجـدي، وتركهم التشاغلَ بما يُجْدِي، فالذي حبَّب لهذا أن يرصُد عمر حِمار أو وَرَشَانٍ أو حيَّـة أو ضـبٍّ، هـو الـذي حبَّـب إلـى الآخـر أن يكـون صـيَّاداً للأفـاعي والحيَّـات، يتتبَّعُهـا ويطلُبهـا فـي كـلِّ واد وموضـع وجَبَلٍ للترياقات، وسخَّرَ هذا ليكون سائسَ الأُسْدِ والفُهود والنُّمُور والببـور، وتـرك مـن تِلقـاء نفسِـه أن يكـونَ راعـيَ غنـم. والذي فرَّق هـذه الأقسـام، وسـخَّر هـذه النفـوسَ، وصَـرف هـذه العقول لاستخراجِ هذه العلـوم مـن مـدافِنها، وهـذه المعـاني مـن مخابِيها، هو الذي سخَّر بَطْليمُوس مع مُلْكِه، وفلاناً وفلانـاً للتفـرُّغِ للأمور السماويَّة، ولِرعايةِ النجوم واختلاف مَسير الكواكب، وكـلٌّ ميسَّرٌ لَمِا خُلِـق لـه، لتَتـمَّ النعمـة ولتكمُـل المعرفـة، وإنمـا تـأبَّى التيسير للمعاصـي. فأمَّـا الصـناعاتُ فقـد تقصُـر الأسـباب بعـضَ النـاس علـى أن يصـير حائكـاً، وتقصـرُ بعضَـهم علـى أن يكـون صَيْرَفيّاً، فهي وإن قصَرتْه على الحِياكِة، فلـم تقصُـرْه علـى خُلْـف المواعيد وعلى إبدال الغُزُول، وعلى تشقيق العملِ دونَ الإحكـام

والصدق وأداءِ الأمانة، ولم تقصر الصيرفيَّ على التطفيف في الوزِن والتغليط في الحساب، وعلى دسِّ المموَّه؛ تعالى اللهّ عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً.

خضوع النتاج المركب للطبيعة

ولو كان أمرُ النِّتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقربُ إلى الظنِّ، لكانت الأظْلاف تجري مَجْرى الحوافر والأخفاف، ألا ترى أنَّ قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البخْت من العراب، والخيل من الحمير !! وسبيل نتائج الظِّلْف على خلافِ ذلك؛ لأنَّ التيسَ على شدَّة غُلمته لا يعرض للنعجة إلاّ بالقليل الذي لا يُذكر، وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك: إمَّا ألاّ يتمّ خَلقُه، وإما ألاّ يعيش؛ وكذلك الكبشُ والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج؛ لأنه قد يضرِب الجنس في الجنس الذي لا يُلْقحه، ولا يكون اللِّقاح إلا بعد ضراب. وطلبَ التيسِ للنعجة قليل وأقلُّ من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقلُّ من ذلك أنْ تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة.

وقد تجاسَرَ ناسٌ على توليدِ أبوابٍ من هذا الشكل، فادَّعوا أموراً، ولم يحفِلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان.

زعم في الزرافة

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية، وبين الذِّيخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنّهم لَّما رأَوا أنَّ اسمها بالفارسية أشتر كاو بلنك؛ وتأويل أشتر بعير، وتأويل كاو بقرة، وتأويل بلنك الضبع؛ لأن الضباعَ عُرْج؛ كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُمَاع؛ كما عرض للذئِب القزَل - وكلُّ ذئبٍ أقزَل - وكما أنَّ كلَّ غرابٍ يحجِل كما يحجِل المقيَّد من الناس؛ وكما أنَّ العصفورَ لا يمشي؛ ومشيُه أن يجمَع رجليه أبداً معاً في كلِّ حركةٍ وسكون، وقولهم للزرافة أشتر كاو بلنك اسم فارسيٌّ، والفُرس تسمِّي الأشياءَ بالاشتقاقات؛ كما تقول للنعامة: اشتر مرغ، وكأنَّهم في التقدير قالوا: هو طائر وجمل؛ فلم نجد هذا الاسم أوجبَ أن تكون النعامةُ نِتاجَ ما بين الإبل والطير، ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقارِبين؛ سمَّوها بذينك الشيئين، وهم يسمون الشيء المرَّ الحلو تَرْش شِيرِين وهو في التفسير حلوٌ

حـامض، فجسَـر القـومُ فوضـعوا لتفسـير اسـم الزرافـة حـديثاً؛ وجعلوا الخِلقَةَ ضرْباً من التراكيب؛ فقالوا: قد يعـرض الذيـخ فـي تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها، فتلقح بولـدٍ يجيـء خلقُـه مـا بين خلْق الناقـة والضـبع؛ فـإن كـان أنـثى فقـد يعـرض لهـا الثـور الوَحشي فيضربها؛ فيصير الولد زرافة، وإن كان ولدُ الناقـة ذكـراً عرَض للمهاة فألقحها فتلد زرافة، فمنهم من حجر البتَّةَ أن تكـون الزرافة الأنثى تلقَح من الزرافة الذكر، وزعموا أنَّ كلَّ زرافـةٍ فـي الأرض، فإنَّما هي من النِّتاج الذي ركَّبوا؛ وزعموا أَنَّ ذلـك مشـهورٌ في بلاد الحبَشة، وأَقاصي اليمن، وقـال آخـرون: ليـس كـلُّ خلـقٍ مركَّب لا ينسِل ولا يبقَى نجلُه ولا يتلاقَح نسله، على ما حكينـا مـن شأن الوَرشان والرَّاعبي، وهـؤلاء ومـا أشـبههم يُفسـدون العلـم، ويتَّهمـون الكتـب، وتغرّهـم كـثرةُ أتبـاعهم مَّمـن تجـدُه مسـتهتَراً بسماع الغريب، ومُغرَماً بالطرائف والبدائع، ولـو أُعطُـوا مـع هـذا الاستهتارِ نصيباً من التثبُّتِ، وحظًّا من التوقي، لسَلِمت الكتبُ من كثير من الفساد.

النتاج المركب في الطيور

وأنا رأَيتُ طائراً له صوتٌ غير حسن، فقال لي صاحب الطيور: إنّه من نِتاج ما بين القُمْريِّ والفاختة. وقنَّاص الطيرِ، وَمن يأتي كلَّ أوقة وغيضةٍ في التماس الصيد، يزعمون أنَّ أَجناساً من الطير الأوابد والقواطعِ، تلتقي على المياه فتتسافد؛ وأنَّهم لا يزالون يرون أَشكالاً لم يروها قطُّ، فيقدِّرون أَنَّها من تلاقح تلك المختلفة.

زعم بعض الأعراب في الحرباء

وقال أَبو زيدٍ النحويّ، وذكر عّمن لقي من الأعراب أَنَّهم زعموا أَنَّ ذكرَ أمِّ حُبَين هو الحرباء، قال: وسمعت أَعرابيًّا من قيسٍ يقول لأمِّ حُبين حُبينة، والحُبينة هو اسمها، قال: وقيسٌ تسمِّي ذكر العَظاءة العَضْرفوط. وقال يحيى الأغر: سمعتُ أعرابياً يقول: لا خيرَ في العَظاءَة، وإنْ كان ضَبًّا مَكُوناً، قال: فإذاً سامٌّ أبرَص، والوَرَل، والوَحَر، والضَّبّ والحَلَكاء، كلُّها عندَه عَظاءة.

ولد الثعلب من الهرّة الوحشية

وزعم يحيى بن نُجَيم أنَّ الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج بينهما ولدٌ، وأنشد قول حسان بنِ ثابت رضي الله تعالى عنه:

أبوك وأنت ابنُـه فبئس البُنَيُّ وَبئس الأبُ
سَـوْدَاءُ نُـوبـيَّة كأنَّ أناملها العنـظـب
أبوكَ بها معرسـاً كما ساورَ الهرَّةَ الثعلبُ

وأنشد أبو عبيدة قولَ عبد الرحمن بن الحكم:

مُعاوية بـنَ حـرب مُغلغلَةً عن الرجُل اليمانـي
أتغضبُ أَنْ يقال أبوك عَـفٌّ وتَرضى أن يُقال أبوك زَاني
أنّ رِحْمَكَ مِن قُرَيشٍ كَرِحْم الفيل مِنْ وَلَدِ الأَتَـانِ

قال كَيسان: ولأي شي قال:

الفيل من ولد الأَتان

إنما كان ينبغـي أن يقـول: كرِحْـم الفِيـل مـن الخنزيـر، قـال أبـو عبيدة: أرادها هو التبعيدَ بعينه؛ وأنت تُريد ما هو أقرب.

زعم بعض المفسرين والإخباريين في حيوان سفينة نوح

وزعم بعض المفسِّـرين وأصـحابِ الأخبـار: أنَّ أهـلَ سـفينةِ نـوحٍ كانُوا تأذَّوا بالفأر، فعَطَس الأسدُ عَطْسةً فرمى من مِنْخَريه بـزوج سنانير، فلـذلك السِّـنَّوْرُ أشـبهُ شـيءٍ بالأسـدِ، وسلَح الفيـلُ زوجَ خنازير؛ فلذلك الخنزيرُ أشبهُ شيءٍ بالفيل، قـال كيسـان: فينبغـي أن يكون ذلك السِّنَّورُ آدَمَ السنانير، وتلك السِّـنَّورة حَوَّاءَهـا، قـال أبو عبيدة لكيسان: أولم تعلمْ أنت أنّ لكل جنس من الحيـوان آدم وحواء؟ وضحك فضحك القوم.

شره سعد القرقرة

ولمَّا رأى أبو قُردُودةَ سعدَ القرقرة، أكلَ عند النُّعمان مسلوخاً بعظامه قال:

النعامِ وبينَ الكلبِ مَنْبِتُهُ وفي الذئاب له ظئر وأخْوالُ

يقول: إنَّ سعداً ضربَ في أعراقه نجر النعام الذي يلتهم الجمر، ويلتقم الحجارة، فيطفئ الجمرَ ويميع الصخْر، وضرب في أعراقه نَجْرُ الكلبِ الذي يرضُّ كلَّ عظم، ولا يقبِض عليه بكفِّه إلاّ هو واثق بفتّه، ولا يسيغه إلاّ وهو على ثقةٍ من استمرائه، فأمَّا الذئب فإنَّه لا يروم بفكَّيه شيئاً إلاّ ابتلعَه بغير معاناةٍ، عظماً كان أَو غيرَه، مصمتاً كان أو أَجْوفَ.

ولذلك قال الراجز:

يُخْفِي شخصَه غُبَارُه في فمِهِ شَفْرتُه ونارُه

فأبو قُردُودةَ لم يُردْ أنَّ الذئب والكلب خالاه، وأَنَّ النعام نَجَلَه، وإنما قال ذلك على المثَل والتشبيه، ولم يردْ أَنَّ له ظئراً من الكلاب، وخالا من الذئاب.

وشبيهُ ذلك قول أَمير المؤمنين المأمون لبعض الناس: يا نُطَفَ الخمَّارين، ونزائع الظُّؤورة، وأشباه الخُؤولة.

وعلىَ شبيهٍ بذلك قال سلم بن قُتَيبة لبعض من ذَكره، وهو عند سليمان بن عليٍّ: أيُّها الأمير، إنَّ آلَ فلانٍ أعلاجُ خلقِ اللّه وأوباشُه، لئامٌ غُدر، شرَّابون بأَنْقُع، ثمَّ هذا بعدُ في نفْسه، نُطفَةُ خَمَّار في رَحِم صَنَّاجة.

زواج الأجناس المتباينة من الناس

وقال لي أبو إسحاق: قال لي أبو العباس وأبو العبـاس هـذا كـانَ ختنَ إبراهيمَ على أخته، وكانَ رجلاً يَدِين بالنجوم، ولا يقـرُّ بشـيءٍ من الحوادث إلاّ بما يجري على الطباع، قـال أبـو إسـحاق: وقـال لي مرَّة: أتعرفُ موضِع الحُظْوةِ من خَلْوة النساء?، قُلْتُ: لا واللّه لا أعرفُه، قال: بل اعلـم أن لا يكـونُ الحـظُّ إلاَّ فـي نِتـاج شِـكلين متباينين، فالتقاؤهما هـو الأكسـير المـؤدِّي إلـى الخلاص: وهـو أن تُزاوِج بين هِنديَّةٍ وخُراسانيٍّ، فإنها لا تلد إلاَّ الذهبَ الإبريـز، ولكـن احرُس ولدَها، إن كان الولدُ أنـثى فاحـذَر عليهـا مـن شـدَّة لِـواطِ رجال خراسان وزِناء نساء الهند، واعلمْ أن شهوتَها للرجـال علـى قدرِ حُظْوتِها عندَهم، واعلـمْ أنَّهـا ستسـاحق النسـاءَ علـى أعـراقِ الخراسانيَّة، وتزْني بالرجال على أعراق الهند، واعلمْ أنّه مّما يزيد في زِناها ومساحَقَتها معرفتُها بالحُظوة عند الزُّنـاة، وبـالحظِّ عنـد السحاقات.

مما زعموا في الخلق المركب

وقالوا فـي الخلـق المركَّـب ضُـروباً مـن الحـقِّ والباطـل، ومـن الصدق والكذب، فمن الباطِل زعُمهم أنَّ الشَّبُّوط ولد الزَّجْر مــن

البُنِّيِّ، وأنَّ الشَّبُّوط لا يُخْلَق من الشَّبُّوط، وأنَّه كالبغلِ في تركيبِـه وإنسالِه، ورووا ذلك عـن أبـي واثِلـة إيـاسِ بـنِ معاويـة بـن قـرّة.

وزعموا أنّ أمَّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، حصَـرت فـي حـوضٍ لها ضخمٍ أو بركةٍ كبيرةٍ عدداً كثيراً من الزجـر والبُنِّـيِّ، وأنَّهـا لـم تخِلطْ بهما غيرَهما، فمات أكثره وبقيتْ بقيـةٌ كـانت الصـميمَ فـي القوَّة، وفي احتمال تغيُّر المكان فلم تحمل الـبيضَ حِينـاً، ثـمَّ إنّهـا حملت بالشبابيط.

مطر الضفادع والشبابيط

وزعم حُريثٌ أنّه كان بأيذَج، فإذا سحابة دهماء طخياء تكاد تمـسُّ الأرض، وتكاد تمسُّ قِممَ رُؤُوسهم، وأنَّهم سـمعوا فيهـا كأصـوات المجانيق، وكَهدير الفحول في الأشوال، ثم إنَّها دفَعَت بأشدِّ مطر رُئي أو سُمِع به، حتى استسـلموا للغـرق، ثـمَّ انـدفعتْ بالضـفادع العظام، ثم اندفعت بالشبابيط السِّمان الخِدال فطبخوا واشـتَوَوا، وملَّحوا وادَّخَروا.

غرور أبي واثلة والخليل بن أحمد

ورووا عن أبي واثلة أنَّـه زعـمَ أنَّ مـن الـدليلِ علـى أنَّ الشَّـبُّوط كالبغل، أنَّ الناسَ لـم يجـدوا فـي طـولِ مـا أكلـوا الشـبابيطَ فـي جوفِها بَيْضاً قطُّ، فإن كـان هـذا الخـبرُ عـن هـذا الرجُـلِ المَـذكُورِ بشدَّة العقل، المنعوتِ بثُقُوب الفِراسة ودِقَّةِ الفطنة صحيحاً، فما أعظم المصيبةَ علينا فيه، وما أخلَقَ الخبَرَ أن يكون صحيحاً، وذلك أنِّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسامِ الأجناس، يدلُّ على أنَّ الرجلَ حينَ أحسَنَ في أشياءَ وهَّمـه العُجْـبُ بنفسِـه أنَّـــــه لا يَـــــــروم شـــــــيئاً فيمتنــــــــعُ عليـــــــه. وغرَّه مِن نفسِه الذي غرّ الخليل بنَ أحمدَ، حينَ أحسَنَ في النحــوِ والعَرُوض، فظنَّ أنَّه يُحسِن الكلامَ وتأليف اللُّحـون، فكتـبَ فيهمـا كتابَين لا يُشِير بهما ولا يُدلُّ عليهما إلاّ المِرَّةُ المحترِقة، ولا يــؤدِّي إلى مثل ذلك إلاّ خِـذلانٌ مـن اللّـه تعـالى، فـإنّ اللّـه عـزَّ وجـلَّ لا يُعجزه شيء.

بيض الشبوط وتناسله

والشَّبُّوط حفظك اللّه تعالى جِنسٌ كثيرُ الذكور قليـلُ الإنـاث، فلا يكون إناثه أيضاً يجمعْن البيض، وإذا جمعنَ فلو جمعتَ بيضَ عشرٍ

منهنَّ لَمَا كان كشَطْر بيضِ بُنِّيَّةٍ واحدةٍ، وقد رأيـتُ بَيْـضَ الشَّـبُّوط وذقتُه للتعرُّف فوجدته غيرَ طائل، ولا مُعجِـبٍ، وكـلُّ صـيّادٍ تسـأله فهـو يُنْبيـك أنّ لـه بيضـاً، ولكنَّـه إذا كـانَ يكـونُ ضـئيلاً قليلاً، لأنَّ الشبابيطَ في أصلِ العدد من أقلِّ السمك، وكذلك الجنس منه إذا كـانت الأنـثى منـه مِـذكاراً.

مواطن الشبوط على أنَّـه رُبّ نهـرٍ يكـونُ أكـثرُ سَـمكه الشَّـبُّوط، وذلك قليل، كنهـر رَامَهُرْمـز، والشَّـبُّوط لا يـتربَّى فـي البحـار، ولا يسكن إلاّ في الأوديةِ والأنهار، ويكره الماءَ الملحَ ويطلبُ الأَعـذبَ فالأَعـذب، ويكـون فـي المـاء الجـاري، ولا يكـون فـي السـاكن، وسنذكر شأنَه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

رد على ما زعموا في الزرافة

ولم يصب أبو واثلة، وكذَبوا على أمِّ جعفر، فإذا قالوا في الزَّرافةِ ما قالوا فلا تأمَنْهم علـى مـا هـو دونَـه، وإن كـان مَـن كـذَب علـى الموتى واستشهد الغُيَّـبَ أحـذقَ، فصـاحبُ الزرافـة قـد اسـتعمل بعـض هـذه الحيلـة، وصـاحب الشَّـبُّوط يكـذِب علـى الأحيـاء، ويستشهد الحضور، وإن كان الذي دعـا إلـى القـول فـي الزرافـة

أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب الخلق، فالجاموس بالفارسية كاوماش، وتأويله ضأنيّ بقريّ، لأنهم وجدوا فيه مشابهةَ الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أنّ الكِباشَ ضربت في البقر فجاءت بالجواميس.

رأي الفرس في تقسيم الحيوان

وزعم الفرسُ أنّ الحيوان كلَّه الذي يلد حيواناً مثلَه مِّما يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن، والجواميسُ عندهم ضأن البقر،والبُخْت عندهم ضأن الإبل، والبَراذين عندهم ضأن الخيل

زعم في الإبل

والناس يقولون في الإبل أقاويلَ عجيبةً: فمنهم مَن يزعمُ أن فيها عِرقاً من سِفاد الجنّ، وذهبوا إلى الحديث: أنهم إنما كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها خُلِقَتْ من أعناق الشياطين فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته، وقال ابن ميّادة:

أتاني ما تقول مُحارِبٌ   تغنَّتْ شياطين وجُنَّ جنُونُها

قال الأصمعي المأثور من السيوف الذي يقال: إنّ الجنَّ عمِلته. وهم يسمُّون الكِبر والخُنزُوانةَ والنَّعَرَة التي تضاف إلى أنف المتكبِّر شيطاناً، قال عمر: حتَّى أنزِعَ شيطانَه، كما قال: حتى أنزِع النَّعَرة التي في أنفه، ويسمُّون الحيَّة إذا كانت داهية منها شيطاناً، وهو قولهم: شيطان الحَماطة، قال الشاعر:

مَثنَى حَضْرميٍّ كأنه　　شَيْطانٍ بذي خِروعٍ قَفْرِ

شبَّه الزِّمام بالحيَّة، وعلى مثل ذلك قال الشاعر:

شناحية فيها شناح كأنها　　حباب بكف الشأو من أسطع حشر

والحباب: الحية الذكر، وكذلك الأيم، وقد نُهي عن الصلاةِ عند غيبوبة الشمس، وعند طلوع القرص إلى أن يتتامّ ذلك، وفي الحديث: إنّها تطلُع بين قَرْنَي شيطان.

ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم

فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبِنية، وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذ دَلالات أخر، فمن لم يعرفْها جَهِل تأْويل الكتابِ والسُّنَّة، والشاهد والمثلِ، فإذا نظَر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أَهل هذا الشأن، هلك وأَهلك.

الإبل الوحشية

وزعم ناسٌ أنَّ من الإبل وحشيًّا وكذلك الخيل، وقاسوا ذلك على الحمير والسَّنانير والحمام وغيرِ ذلك، فزعموا أنَّ تلك الإبلَ تسكنُ أرض وَبَارِ، لأنَّها غيرُ مسكونة، ولأنَّ الحيوانَ كلَّما اشتدَّت وحشيَّتهُ كان للخَلاء أطلب، قالوا: وربَّما خرجَ الجملُ منها لبعضِ ما يعرِض، فيضرب في أدنى هَجْمةٍ من الإبل الأهلية، قالوا: فالْمَهْرِيَّةُ من ذلك النِّتاج. وقال آخرون: هذه الإبلُ الوحشيَّة هي الحُوش، وهي التي مِن بقايا إبل وَبَار، فلمَّا أهلكهم اللّه تعالى كما أهلك الأمم مثلَ عادٍ وثمودَ والعمالقة وطَسْمٍ وجَدِيسَ وجاسم، بقيَتْ إبلُهم في أماكنهم التي لا يَطُورها إنْسيٌّ فإن سقَطَ إلى تلك الجِيزة بعض الخلعاء، أَوْ بَعْضُ من أضلَّ الطريق حثَت الجنُّ في وجهه، فإنْ ألحَّ خَبَلته، فضرَبَتْ هذه الحوش في العُمَانيّة، فجاءَت هذه المَهْرِيَّة، وهذه العسجديَّة التي تسمى الذهبيَّة.

وأنشدني سعدان المكفوف عن أبي العميثل قول الراجز:

إبْلِي عَجَمٌ ولا عَرَبْ جُلودُها مِثلُ طَواويسِ الذَّهبْ

وقال الآخر:

اصطكَّتْ بضيق حَجْرَتاها تلاقَى العَسجديَّةُ واللَّطِيمُ

والعسجد من أسماء الذهب.

وإنَّما سُمِّيتْ صاحبةُ يزيد بن الطَّثَريَّة حُوشِيَّةً على المعنى.

وقال رؤبة:

رحانا من بلاد الحُوش

رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط

وأما الذي زعم أنَّهم مُطِروا الشَّبوط، فإنه لما ظنّ أنَّ الضفادعَ التي تُصابُ بعَقِبِ المطر، بحيثُ لا ماءٌ ولا وحلٌ ولا عينٌ ولا شريعة - فإنهم ربَّما رأَوها وسط الدَّوِّ والدَّهناء والصَّمَّان - ولم يشُكَّ أنَّها كانت في السحاب وعلم أنَّها تكون في الأنهار ومنابع

المياه، وليس ذلـك مـن الـذكر والأنـثى، قـاسَ علـى ذلـك الظـنِّ السمك، ثم جسَرَ فجعلَ السمك شَبُّوطاً، وتلك الضفادعُ إنما هــي شيءٌ يُخلَق تلك الساعة، من طباع الماء والهـواء والزمـانِ وتلـك التُّرْبة، على مقاديرَ ومقابلات، وعلى مـا أجـرى اللّـه تعـالى عليـه نشأة الخلق.

امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة

وقد تُعرف القرابةُ التي تكون في رأي العيـن بيـن الشـكلين مـن الحيوان فلا يكون بينهما تسافُدٌ ولا تلاقُح، كالضأن والمعز، وكالفأر والجُرْذان، فليس بالعجَب في البقر والجواميس أن تكـون كـذلك، وقد رأينا الخِلاسيَّ من الدجاج والدِّيَكة، وهو الذي تخلَّـقَ مـن بيـن المولَّـدات والهِنـديَّات، وهـي تحمـل اللحـم والشـحم. وزعـم لـي مسعود بن عثمان، أنه أهدى إلى عمرو بن مَسْعَدة، دجاجـة ووُزنَ فيها سبعة عشرَ رِطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس

ورأينـا الخِلاسـيَّ مـن النـاس، وهـو الـذي يتخلَّـق بيـن الحبشـيِّ والبيضاء، والعادةُ من هـذا الـتركيب أنـه يخـرج أعظـمَ مـن أبـوَيه وأقوى من أصلَيه ومثْمِرَيه، ورأينا البَيْسَريَّ من الناس، وهو الـذي يُخلَق من بين البيض والهند، لا يخرج ذلك النِّتاجُ على مقدار ضخم الأبوين وقوّتهما، ولكنه يجيءُ أَحسنَ وأملـح، وهـم يسـمُّونَ المـاءَ إذا خالطته الملوحة بيسراً قياساً على هذا الـتركيب الـذي حكَينـا عن الـبيض والهنـديات، ورأينـا الخِلاسـيَّ مـن الكلاب، وهـو الـذي يُخلْق بين السَّـلُوقيِّ وكلـب الراعـي، ولا يكـون ذلـك مـن الزِّئنـي والقلطـي، ومـن كلاب الـدُّور والحـرَّاس، وسـنقول فـي السِّـمْع والعِسبار، وفي غيرِهما من الخَلْقِ المركَّـب إن شـاء اللّـه تعـالى.

أطول الناس أعماراً وذكروا أنَّهم وجدوا أطولَ أعمار النـاس فـي ثلاثة مواضع: أوَّلها سَرْوحمير، ثـم فَرغانـة، ثـم اليمامـة، وإنّ فـي الأعراب لأعماراً أطول، على أَنَّ لهم في ذلك كِذْباً كـثيراً، والهنـدُ تُربـي عليهـم فـي هـذا المعنـى، هكـذا يقـول علمـاء العـرب.

أثر النبيذ في عمر الإنسان وكـان عثمـانُ مـاش ويـزال وجـذعان، يذكرون أنّهم عدُّوا أربعينَ فتًى مِـنْ فتيـانِ قريـش وثقيـف أعـذارَ عامٍ واحد فأحصَـوْا عشـرينَ مـن قريـش، وعشـرين مـن ثقيـف،

وتوخَّـوا المتجـاوِرين فـي المحلَّـة والمتقـارِبين فـي الـدُّور مـن الموفَّرين على النبيذ، والمقصورين علـى التنـادُم، وأنّهـم أحصَـوا مثلَ ذلك العدد وأشباهَ أولئك في السِّـن ممَّـن لا يـذوق النبيـذَ ولا يعرفُ شراباً إلا المَاءَ، فذكَرُوا أَنَّهُمْ وجدُوا بعـدَ مـرورِ دهـرٍ عامَّـةَ من كان يشرَبُ النبيذَ حيّاً، ومن لا يشربه قد مات عامَّتُهم، وكـانوا قد بلغوا في السنِّ، أما عثمان ويزال فكانـا مـن المعمَّريـن، وقـد رأيتهما جميعاً ولم أَسمع هذا منهما، وسنأتي على هذا البـابِ فـي موضعه من ذكر المعمَّرين، ونميِّز الصـدقَ فيـه مـن الكـذب، ومـا يجوز وما لا يجوز إن شاء اللّه تعالى

بعض ما يعرض للخصيان

وما أَكثر ما يعرض للخصيان البولُ فـي الفـراش وغيـرِ ذلـك، ولا سـيّما إذا بـات أحـدُهم ممتلئـاً مـن النبيـذ. ويعرض لهـم أيضـاً حـبُّ الشـراب والإفـراط فـي شـهوته وشـدَّة النَّهـم.
ويعرض لهمْ أيضاً إيثار المخْفِس وحبُّ الصِّرْفِ، وذلـك أيضـاً مّمـا يعرض للنساء، والإفراط في شهوتهنَّ وشدَّة الهمَّة لهـنَّ والغيـرة

عليهنَّ، ويحتلمون، ويجنبُون ويغتسلون، ويرون الماءَ غَير الرائق ولا الغليظ، الذي له ريح طلع الفُحَّال.

ويعرض للخصيِّ شدَّةُ الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثيرٍ أو جاهٍ عريض، حتَّى ربَّما كان عند مولاه بعضُ من عسى أن يتقدَّم هؤلاء المذكورين الذين يكون الخصيُّ كلِفاً بهم وبتعظيمهم، ومُغرَماً بخدمتهم، في الأدبِ والحسب، وفي بُعْدِ الهمَّة وكرم الشِّيمة، فيعمِد عند دخول ذلك الرجل الذي له السلطانُ والجاهُ والمالُ إلى متَّكأ هذا الأديب الكريم، والحسيبِ الشريف، فينزِعه من تحت مِرْفَقهِ، غيرَ محتفل بذلك ولا مكترث لما فيه، ويضعُه له من غير أَنْ يكونَ موضع المرافقَ بعيداً، أَو كان ذلك ممَّا يفُوت بعضَ الفوت، ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسَر وصاحبَ الجاهِ أبداً.

أقوال في خصاء الخيل وقد حرَّم بعضهم خِصاءَ الخيل خاصَّة، وبعضُهُم زاد على ذلك حتَّى حَرَّم خِصاء البهائم، وقال بَعْضُهُمْ: إذا كان الخِصاءُ إنَّمَا اجتلَبه فاعله أَوْ تَكَلّفهُ صاحبُهُ على جهة التماسِ المنفعَة، أَو على طريقِ التجارة، فذلك جائز، وسبيلُه سبيل

المِيسَم، فَإنّ المِيسم نـار، و أَلمـه يجـوزُ كـلَّ ألـم وقـد رأينـا إبـلَ الصدَقة موسُومة، ووسمَت العربُ الخيـلَ وجميـعَ أصـنافِ النَّعـم في الإسلام، على مِثل صنيعِها في الجاهليَّة، وقـد كـانت القَصـواءُ ناقة النـبي صـلى اللّـه عليـه وسـلم موسـومة، وكـذلك العضْـباءُ.

أقـوال فـي وسـم الحيـوان وقـال آخـرون: الخِصـاء غيـرُ شـبيه بالميسم، لأنَّ في الخصاء من شدَّة الألمِ، ومن المُثلة، ومن قطْـع النَّسْل، ومن إدخال النقصِ على الأعضاء، والنقصِ لمـوادِّ القـوى، ما ليس في الميسم وغيره، وهو بقطع الأَلية أشبَه، والسِّـمَةُ إنَّمَـا هـــي لَذْعـــة، والخصـــاءُ مجـــاوِزٌ لكـــلِّ شـــديدة.

قال القوم: ولا بأسَ بقطع الأَليةِ إذا مَنعت بِثِقلِهَا أو عِظَمها الشاةَ من اللَّحاقِ بالقطيع وخيف عليها من الذئب، وقطعُ الألية في جواز العقول أشبهُ مـن الميسـم، لأنَّ المِيسـمَ ليـس للبعيـر فيـه حـظٌّ، وإنَّما الحظُّ فيه لربِّ المال، وقطعُ الأليةِ من شكل الخِتـان، ومـن شكل الْبَطِّ والفصْد، ومن جنـس الوَجُـور والـبيطرة، ومـن جنـس اللَّدُود والحِجامة، ومن جنس الكيِّ عنـد الحاجـة، وقطـع الجارحـة إذا خِيف عليها الأَكِلَة وسم الإبل قال الأوَّلون: بل لعمري إنَّ للإبل في السِّمات لأعظمَ المنافع، لأنهَّا قد تشْرَب بِسماتها ولا تُذَاد عن

الحوض إكراماً لأربابها، وقد تضِلُّ فتُؤْوَى، وتُصاب في الهُوَاشات فتُردّ.

قالوا: فإنا لا نسألكم إلاّ عن سماتِ الخيل والبغالِ والحمير والغنم، وبعدُ فكيف نستجيز أنْ نَعمَّها بالإحراق بالنار، لأمَر عسى ألاَّ يحتاج إليه من ألفِ بعيرٍ واحد، ثم عسى أَلاَّ يحتاج من جميع ذلك في جميع عمره إلاّ إلى شَرْبةٍ واحدة.

وقال القوم: إنَّمَا المياسم في النَّعَم السائمة كالرُّقوم في ثياب البَزَّاز، ومتى ارتفعت الرقومُ ومُنِعت المياسم، اختلَطَت الأموال، وإذا اختلطت أمكَنَ فيها الظلم، والمظلومُ باذلٌ نفسَه دونَ المعيشة والهَضِيمة.

وقالوا: ليس قطعُ الأليةِ كالمجثَّمة وكالشيء المصبور، وقد نُهِينا عن إحراق الهوامِّ، وقيل لنا: لا تعذِّبوا بعذاب اللّه تعالى، والميسمُ نار، وقطعُ الأَلية من شكل قَطْعِ العروق، وصاحبُ المجثَّمة يقدِر أن يرميَ - إن كان به تعلُّم الرماية - شيئاً لا يألم ولم يُنْهَ عن تعذيبه، فَمَا يَردُّ الشيء المصبور من العذاب مَرَدّاً بوجه من الوجوه القول في نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلامها

وقال آخرون: ليس لك أن تُحدِث في جميع الحيوانِ حدثاً من

نقْضٍ أو نقص أو إيلام، لأنك لا تملك النشأَة، ولا يمكنك التعويض له، فإذا أذن لك مالك العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو اللّه عزَّ وجلَّ، حلَّ لك من ذلك ما كان لا يحلّ، وليس لك في حُجَّة العقل أن تصنعَ بها إلاّ ما كان به مصلحةٌ، كعلاج الدَّبَر وكالبيطرة.

وقال آخرون: لنا أن نصنعَ كلَّ ما كان يُصنَع على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وبعدَه، ممّا لم يكن مدفوعاً عندَ بعضهم، إلاّ أن يكون نَهْيُ ذلك البعضِ من جماعتهم، في طريق الخلافِ والردِّ والمفارقة ولا يكون عندهم قولاً من الأقاويل، فإنَّ ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلِّف يَعْرِفُ وجهَ الملام، والمذهب في ذلكَ معروف وإن كان خارجاً من ذلك الحدِّ، فقد علمنا أنَّه أُبيح من طريق التعبُّد والمحنة، كما جعل اللّه تعالى لنا ما أحلَّ ذبحَه من البهائم، وكما جعَل لنا أن نقتُل القملَ والبراغيثَ والبعوض، وإن لم يكن منها إلاّ مقدارُ الأذى فقط، والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى، ولكن لمَّا أباح لنا خالقُ الشيء والقادر على تعويضه قتلَه، كان قتلُه أسوغَ في العقل مع الأذى، مِنْ ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى.

قال: وليس كل مؤذٍ ولا كل ذي أذى حكم اللّه تعالى فيه بإباحة القتل، واللّه عزَّ وجلَّ، بمقادير الأمورِ وبحكم المختلف والمتَّفِق، والقليلِ من ذلك والكثير، أحكَمُ وأعلم. وقد أمرَ اللّه تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأطاع الوالدُ وطاوع الولد. والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض، وهو قول النظَّام، وأكثرُ المتكلِّمين يعترِضون عليه فيه.

منع خصاء الإنسان وإباحته

ولا يزال - يرحُمك اللّه تعالى - بعضُ الملحِدين من المعاندين، أو بَعْضُ الموحِّدين من الأغبياء المنقوصين، قد طعَن في مِلْكِ الخصيِّ وبيعِه وابتياعه، ويذكرون الخصيَّ الذي كان المقوقِس عظيمُ القِبط أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، مع مارية القِبطيَّة أمِّ إبراهيم عليه السلام، قالوا: فقد ملك عليه الصلاة والسلام خَصِياً بعد أن عرَفه وأحاط علمُهُ بأنَّه خصيٌّ، وأنتم تزعمون أنَّ الخِصاء حرام، وأنَّ من اشترى من الخاصي خَصِيَّاً ثم زاد على قيمته وهو فحل، فقد أعان على الخصاء وحثَّ

عليه، ورغَّب فيه، وأنَّه من أفحش الظلم وأشدِّ القسوة، وزعمتـم أنَّ من فعَل ذلك فهو شريكُ الخاصي في الإثـم، وأنَّ حـالَه كحـال المعروفين بالابتياع من اللصوص، وقلتم: وكذلك من شهد القِمـار وهِـراشَ الكلاب، ونِطـاحَ الكِبـاش وقتـال الـديوك، وأصـحاب المجارحات وحرب الفئتين الضالَّتين، وقلتم: لأنَّ هذه المواضعَ لو لم تحضرها النَّظَّارةُ لما عمِلوا تلك الأعمال، ولو فَعلوها مـا بَلغـوا مقدارَ الشَّطر، لغلَبة الرياءِ والسُّمعة على قلوب النـاس، فكـذلك الخاصي، والمشتري، والمبتاع من المشتري، شـركاءُ متعـاوِنون، وخُلَطاءُ مترادفون، وإذا كان المبتاع يَزيد في السِّلْعةَ لهذه العلَّـة، والبائع يزيد في السَّوْم لهذا السبب، وقد أقررتم بأنَّ النـبي صـلى اللّه عليـه وسـلم قـد قَبِـل لـه مـن المقـوقس، كمـا قبـل ماريـة، واستخدمه، وجرى عليه ملكُه وأمرُه، فافهمْ فهّمك اللّه تعـالى مـا أنا مجيبٌ به في هذه المسألة، واللّـه الموفِّـقُ، وعلـى اللّـه قَصْـدُ السـبيل.

أقول: قبلَ كلِّ شيء لا يخلو هذا الحـديث الـذي رويتمـوه مـن أن يكون مرضيَّ الإسناد،صحيحَ المخرج، أو يكونَ مسـخوط الإسـناد، فاسدَ المخرج، فإن كان مسخوطاً، فقد بطلت المسألة، وإن كان

مرضيّاً، فقد علمنا أنّه ليس في الحديث أنَّه قَبِله منه بعـد أنْ عِلـم أنَّه خصيٌّ، وعلى أنَّ قبولَ الهديّة خلاف الابتياع، لأَنَّ بـائعَ الخصـيِّ إنَّما يحرُم عليه التماسُ الزيادة، وكذلك المبتـاع إنَّمـا يحـرم عليـه دفعُ الزيادة إذا كان لـو سـلم إليـه بـذلك الثمـن فحلاً أجمـلَ منـه وأشبَّ وأخدمَ منه لم يزدْه، والبائع أيضاً لا يستام بالفحـل سَـومَه بالخصي، وقبول الهديَّـة، وقبـول الهِبَـة، وسـبيلُ الـبيع والابتيـاع لا بأس به إذا كان على ما وصفنا، وإنَّما هديَّة الخِصيِّ كهديَّـة الثـوب والعِطـر، والدابَّـةِ والفاكهـة، ولأَنَّ الخصـيَّ لا يحـرم مِلكُـه ولا استخدامُه، بل لا يحلُّ طـرده ونفيُـه، وعتقُـه جـائز، وجـوازُ العِتـق يوجب الملك، ولو باعه المالك على غير طلبِ الزيادة، أو لـو تـاب من الخِصاء أو استحلَّه مما أتى إليه، لَمَاَ حرم على الخاصي نفسِه استخدامه، والخصيُّ مالٌ وملك، واسـتخدامه حسَـنٌ جميـل، ولأنَّ خِصاءه إيّاه لا يَعتِقه عليه، ولا يُزيل عن ملكه إلا بمثل ما وَجَبَ بـه مِلكُـه.

وأخرى: أنَّ في قَبول هديَّةِ ذلك الملِـكِ، وتلَّقـي كرامِتـه بـالإكرام تدبيراً وحكمة، فقد بطلت المسْـألة، والحمـدُ للّـه كمـا هـو أهلـه.

وقد رووا مع ذلك أيضاً: أنَّ زِنباعاً الجُذَاميّ، خصى عبـداً لـه، وأنَّ

النبي صلى الله عليه وسلم أعتقَه عليـه فيمـا بلغنـا، واللّـه أعلـم.
وربَّما سألوا عن الشيء وليس القولُ فيـه يقَـع فـي نسـق القـول
في الخصيّ، وفي الخلْق المركَّب، ولكنْ إذ قـد أجبْنـا فـي مسـألةٍ
كلاميَّة من مسائل الطعْـن فـي النبـوَّة، فلا بـأسَ أن نُضـيف إليهـا
أخــرى، ولا ســيَّما إذا لــم تَطُــلْ فتَزِيــدَ فــي طُــول الكتــاب.
وقد لا يزال الطاعنُ يقول: قد علمْنا أنَّ العربَ لم يَسِمُوا حــروب
أيّـام الفِجـار بـالفجور وقريـش خاصّـة، إلاّ أنّ القتـال فـي البلـد
الحرام، في الشهر الحرام كان عندهم فجـوراً، وتلـك حـروبٌ قـد
شهدها النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله، وهو ابن أربَع عشـرَ
سنةً، وابن أربعَ عشرة سـنة يكـونُ بالغـاً، وقـال: شَـهِدتُ الفِجَـارَ
فكنْتُ أنبُلُ على عمومتي. وجوابنـا فـي ذلـك: أنَّ بنـي عـامر بـن
صعصعة، طالبوا أهلَ الحرَم من قريشٍ وكنانـة، بجريـرة الـبرَّاض
بن قيس، في قتله عروة الرحَّال، وقد علموا أنَّهم يُطالِبون مَنْ لم
يجنِ ومن لم يعاونْ، وأنَّ البرَّاض بنَ قيس كـان قبـل ذلـك خليعـاً
مطروداً، فأتوَهمَ إلى حَرَمهم يُلزِمونهم ذنبَ غيرهم، فدافعوا عــن
أنفسِهم، وعن أموالهم، وعن ذراريهم، والفاجر لا يكون المسْــعِيَّ
عليه، ولذلك أشهدَ اللّه تبارك وتعالى نـبيَّه عليـه الصلاة والسـلام

ذلك الموقف، وبه نُصروا كما نُصرت العربُ على فـارسَ يـوم ذي قارٍ، به عليه الصلاة والسلام وبمخرجه، وهـذان جوابـان واضـحان قريبان، واللّه الموفِّق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر محاسن الخصي ومساوِيه

ثـــــم رجَـــــعَ بنـــــا القـــــولُ إلـــــى ذكـــــرِ مَحاسِـــــن الخصـــــيّ ومســـــاويه. الخصيُّ يَنْكِحُ ويتّخذ الجواري ويشتدُّ شغفه بالنساء، وشغفُهنَّ به، وهـو وإن كـان مجبـوب العضـو فإنَّه قد بقي له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجبُ إليهنَّ، وقد يحتلم ويخرجُ منـه عنـد الوطء ماءٌ، ولكنَّه قليلٌ متغيِّر الريح، رقيقٌ ضعيف، وهو يباشِر بمشقّة، ثم لا يمنعه من المعـاودة الماءُ الذي يخرج منه إذْ كان قليل المقدار لا يخرجه من القوّة إلـى الضـعف، مثـل الـذي يعـتري من يخرج منه شيء يكون من إنسان، وهو أخـثرُ، وأكـثر، وأحـدُّ ريحـاً، وأصـحُّ جـوهراً، والخصـيُّ يجتمع فيه أُمنيَّةُ المرأة، وذلك أنَّها تبغض كلَّ سريعِ الإراقة، بطيء الإفاقة، كمـا تَكـرهُ كـلَّ ثقيـل الصدر، وخفيف العَجْز، والخصيُّ هو السريع الإفاقة، البطيـء الإراقـة، المـأمونُ الإلقـاح، فتقيـمُ المرأةُ معَه، وهي آمنة العـار الأكـبر، فهـذا أشـدُّ لتـوفير لـذّتها وشـهوتها، وإذا ابتـذلن الخِيصـانَ، وحَقَرن العبيد، وذهبت الهيبةُ من قلوبهنّ، وتعظيمُ البعول، والتصنُّع لذوي الأقدار باجتلاب الحيـاء وتكلّفِ الخجل، ظهَر كلُّ شـيء فـي قـوى طبـائِعهنّ وشَـهوَاتهنّ، فأمكنَهَـا النَّخيـر والصِياح، وأن تكون مرَّةً من فوقُ، ومرَّةً من أسفل، وسمحت النفسُ بمكنونهـا، وأظَهـرت أقصـى مـا عنِـدها. وقد تجد في النسـاء مَـنْ تـؤْثر النسـاءَ، وتجـدُ فيهـنَّ مـن تُـؤثر الرجـال، وتجـد فيهـنَّ مَـنْ تـؤْثرُ الخِصيان، وتجد فيهنَّ من تجمعُ ولا تفرِّق، وتعـمُّ ولا تخـصُّ، وكـذلك شـأنُ الرجـال فـي الرجـال، وفي النساء والخصيان فالمرأة تنازِع إلى الخصيِّ لأَنَّ أمرَه أستر وعاقبتهُ أسـلم، وتحـرِص عليـه لأنَّه ممنوعٌ منها، ولأنَّ ذلك حرام عليها، فلها جاذبان: جاذبُ حـرصٍ كمـا يُحْـرَص علـى الممنـوع، وجاذبُ أَمْنٍ كما يُرغَب في السلامة، وقال الأَصـمعيّ: قـال يـونس بـن عُبَيـد: لـو أُخِـذْنا بـالْجَزَعِ لصَبَرنا، قال الشاعر:

كَلَفاً بالحبِّ أَنْ منـعَـتْ وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

والحرصُ على الممنوعِ بابٌ لا يَقْدِر على الاحتجاز منه، والاحتراسِ من خُدَعه، إلاَّ كلُّ مبرِّزٍ في الفطنة ومتمهِّل في العزيمة، طويلِ التجارب، فاضِل العقل على قُوَى الشهوات، وبئس الشيءُ القرينُ السوء، وقالوا: صاحب السُّوءِ قِطعةٌ من النار.

وبابٌ من هذا الشكل، فَبِكم أعظَم حاجةٍ إلى أن تعرِفوه وتقِفُوا عندَه، وهو ما يصنع الخَبَرُ السابق إلى السمع، ولا سيَّما إذا صادفَ من السامع قلَّةَ تجرِبة، فإنْ قرَن بين قلَّة التجربةِ وقلَّةِ التحفُّظِ، دخل ذلك الخبر السابقُ إلى مستقرِّه دُخولاً سهلاً، وصادفَ موضعاً وطيئاً، وطبيعة قابلة، ونفساً ساكنة؛ ومتى صادفَ القلبَ كذلك، رسَخَ رسوخاً لا حيلة في إزالته، ومتى أُلقِيَ إلى الفِتيان شيءٌ من أمور الفَتيات، في وقت الغَرَارةِ، وعند غلَبةِ الطبيعة، وشَبابِ الشهوَةِ، وقلَّة التشاغُل؛ وكذلك متى أُلقِي إلى الفِتيان شيءٌ من أمورهنَّ وأُمُورِ الغِلْمان، وهناك سُكْر الشَّباب، فكذلك تكون حالهم، وإنَّ الشُّطّار ليَخلُو أحدُهم بالغلام الغَرير فيقول له: لا يكون الغلامُ فتًى أبداً حتَّى يصادِقَ فتًى وإلاّ فهو تِكش، والتكش عندهم الذي لم يؤدِّبه فتًى ولم يخرِّجه، فما الماءُ العذْبُ البارد، بأسرعَ في طباع العطشان، من كلمته، إذا كان للغُلام أدنى هوًى في الفتوَّة، وأدنَى داعيةٍ إلى المنالة، وكذلك إذا خلَت العجوز المدربة بالجارية الحَدَثة كيف تخلبها، وأنشدنا:

فأتـتْـهـا طَـبَّةٌ عـالـمةٌ تخلط الجِدَّ بأصنافِ اللعـبْ

الصوتَ إذا لانت لهـا وتَنَاهَى عند سَورات الغَضَب

وقال الشاعر فيما يشبهُ وقوعَ الْخَبَرِ السابق إلى القلب:

فؤادَك حيثُ شئْتَ من الحبُّ إلاَّ للـحـبـيبِ الأَوَّلِ

منزلٍ في الأرضِ يألَفُه وحنينُـه أبـداً لأوَّلِ مَـنْـزِلِ

وقال مجنون بني عامر:

هَواهَا قَبْلَ أنْ أعرِفَ فصادفَ قلباً خالياً فتـمـكَّـنَـا

أثر التكرار في خلق الإنسان

وبابٌ آخر ممَّا يدعو إلى الفساد، وهو طولُ وقوعِ البصرِ على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابلٍ، وأدنى حركةٍ عند مثله، وطولُ التداني، وكثرةُ الرؤيةِ هما أصلُ البلاء، كما قيل لابنة الخُسّ: لم زَنيتِ بعبْدِك ولم تزني بحرٍّ، وما أغْرَاك به؟ قالت: طُولُ السِّواد، وقُرْبُ الوِساد.

ولو أنَّ أقبحَ الناسِ وجهاً، وأنتنَهم ريحاً، وأظهرَهم فقراً، وأسقطَهم نفساً، وأوضعَهم حسَباً، قال لامرأةٍ قد تمكَّنَ من كلامِها، ومكَّنته من سَمْعِها: واللّهِ يا مولاتي وسيِّدتي، لقد أسهَرْتِ ليلي، وأرَّقْتِ عَيني، وشغلْتِني عن مُهِمِّ أمري، فما أعقِلُ أهلاً، ولا مالاً، ولا ولداً؛ لنَقَض طِباعَها، ولفسَخ عَقْدَها، ولو كانتْ أبرعَ الخلْقِ جمالاً، وأكملَهم كمالاً، وأملحهم مِلحاً، فإنْ تهيّأَ مع ذلك مِن هذا المتعشِّق، أَنْ تدمَع عينهُ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها وَرَعُ أمِّ الدرداء، ومُعاذة العدويّة، ورابعةَ القيسيَّة، والشجَّاء الخارجيَّة.

زهد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه

وإنَّمَا قال عمر بن الخَطَّاب رضي اللّه تعالى عنهُ: اضربُوهنَّ بـالعُرْي لأَنَّ الثيـابَ هـي المـدعاةُ إلى الخُروج في الأَعراس، والقيامِ في المَناحات، والظهورِ في الأعيـاد، ومتَـى كـثر خروجُهـا لـم يعدمها أن ترى من هو من شكل طبعها، ولو كان بعلُها أتمَّ حسناً، والذي رأتْ أنقَصَ حسناً، لكان ما لا تملكه، أطرفَ ممَّا تملكُه، ولكان ما لم تنلْه، ولم تَستكثر منهُ، أشدَّ لهـا اشـتغالاً وأشـد لهـا اجتذاباً، ولذلك قال الشاعر:

مَلْهًى بالـتِّـلادِ ولـم يقُـدْ هوى النفس شيءٌ كاقتيادِ الطرائف

وقال سعيد بن مسلم: لأَن يـرى حرمـتي ألـفُ رجـل علـى حـالٍ تكشَف منها وهي لا تراهم، أحبُّ إلـيّ مـن أن تـرى حُرْمـتي رجلاً واحـــــــــــداً غيـــــــــــرَ منكشـــــــــــف.

وقال الأوَّل: لا يضرُّك حُسْنُ من لم تعرف؛ لأنَّك إذا أتبعتها بصَرك، وقد نقضت طبعك، فعلمْتَ أنَّك لا تصـل إليهـا بنفسـك ولا بكتابـك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحلم، وكما يتصور للمتمنِّــي، فإذا انقضى ما هـو فيـهِ مِـنَ المنـى، ورجعـت نفسُـه إلـى مكانهـا الأوَّل، لم يكن عليه من فقدها إلاّ مثلُ فقـد مـا رآه فـي النـوم، أو مثَّلته له الأمانيّ.

عقيل بن علفة وبناته

وقيل لعَقِيل بن عُلَّفة: لو زوَّجْـتَ بناتِـك فـإنَّ النسـاءَ لحـمٌ علـى وَضَـمٍ إذا لـم يكـنَّ غانيـات قـال: كلا، إنِّـي أُجِيعُهـنَّ فلا يأشَـرْنَ،

وأُعْرِيهنَّ فلا يظهرْن فوافقت إحدى كلمتيه قولَ النبي صلى الله عليه وسلم ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الصَّوْمُ وِجَاء، وقال عمر: استعينُوا عليهنّ بالعُرْي، وقد جاء في الحديث: وفِّروا أشعارهن فإنَّ ترك الشعر مَجْفَرة، وقد أتينا على هذا الباب في الموضع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة، وأوَّلَ الفسادِ، وكيف ينبُت، وكيف يُحصَد.

بعض ميول الخصيان

وقد رأيتُ غيرَ خَصيٍّ يتلوَّط، ويطلب الغلمان في المواضع، ويخلو بهم ويأخذهم على جِهة الصداقة، ويحمل في ذلك الحديد، ويقاتل دون السخول، ويتمشى مع الشطَّار. وقد كانَ في قطيعةِ الربيعِ خصيٌّ أثيرٌ عندَ مولاه، عظيم المنزلة عنده؛ وكان يثِق به في مِلْكِ يمينِه، وفي حُرَمه من بنتٍ وزوجَةٍ وأختٍ، لا يخصُّ شيئاً دونَ شيء، فأشرَفَ ذاتَ يومٍ على مِرْبَدٍ له، وفي المِربد غنمٌ صفايا، وقد شدَّ يَدي شاةٍ وركبها من مؤخَّرها يكُومُها، فلمَّا أبصره بَرِقَ وَبَعِل وسُقِطَ في يديه، وهجم عليه أمرٌ لو يكون رآه من خصيٍّ لعدوٍّ لَهُ لَمَا فارقَ ذلك الهولُ أبداً قلبَه، فكيف وإنّما عايَن

الذي عاين فيمَن كان يخلُفُه في نسـائه مِـن حُرَمـه ومِلْـكِ يمينـه، فبينما الرجلُ وهو واجم حزين، وهو ينظـر إليـه وقـد تحـرَّق عليـه غيظاً إذْ رَفَع الخصيُّ رأسَه، فلمَّا أثبَت مولاهُ مَرَّ مُسرِعاً نحوَ باب الدار ليركَبَ رأسَه، وكان المولى أقربَ إلـى البـاب منـه، فسـبقه إليه، وكان الموضعُ الذي رآه منـه موضـعاً لا يُصـعَد إليـه، فحـدَثَ لشقائِهِ أمرٌ لم يجد مولاه معـه بُـدّاً مـن صُـعودِه، فلبـثَ الخصـيُّ ساعةً ينتفِض من حُمَّى ركِبته ثـم فـاظ، ولـم يُمـسِ إلاَّ وهـو فـي القـــبر.

ولفرْط إرادتِهم النساء، وبالحسرة الـتي نـالتهم، وبالأسـف الـذي دخلَهم، أبغَضُوا الفحولَ بأشدَّ مِنْ تباغُضِ الأعداءِ فيما بينهم، حتَّى ليس بين الحاسدِ الباغي وبينَ أصحابِ النِّعَم المتظـاهرة، ولا بيـن المَاشي المعنَّى وبين راكب الهِمْلاجِ الفارِه، ولا بين ملـوكٍ صـاروا سُوقةً، وبينَ سُوقَةٍ صاروا ملوكاً، ولا بينَ بنـي الأعمـام مـع وقـوع التنـافسِ، أو وقـوعِ الحـربِ، ولا بيـن الجِيـرانِ والمتشـاكلين فـي الصناعات، من الشنف والبغضاء، بقدرِ ما يلتحـف عليـه الخِصـيانُ للفحــــــــــــــــــــــــــــــــــــــول.

وبُغضُ الخصيِّ للفَحل من شِكل بُغض الحاسِدِ لذِي النعمة، وليس مِنْ شكل ما يولِّده التنافسُ وتُلحِقُه الجنايات.

نسك طوائف من الناس

ولرجالِ كلِّ فَنٍّ وضربٍ من الناس، ضربٌ من النسك، إذْ لا بدَّ لأحدِهم من النـزوع، ومـن تـركِ طريقته الأولى: فنسك الخصيِّ غزْو الروم، لِمَا أَنْ كانوا هم الذين خَصَوهم، ولُزُومُ أَذَنة والرِّبـاطُ بطَرَسُوسَ وأَشباهِها، فظنَّ عند ذلك أهلُ الفِراسة أنَّ سببَ ذلك إنّما كـان لأنَّ الـرُّوم لِمـا كـانوا هم الذين خَصَوهم، كانوا مغتاظين عليهم، وكانت متطلِّبةً إلى التشفِّي منهـم، فـأخرج لهـم حـبُّ التشفِّي شدَّةَ الاعتزامِ على قتلهم، وعلى الإنفاقِ في كلِّ شيء يَبلُغ منهم، ونُسكُ الخراسانيِّ أن يُحجَّ: ونسكُ البنوي أن يَدَعَ الديوان، ونسكُ المغنِّي: أن يُكثر التسبيحَ وهو يشربُ النبيذ، والصلاةَ على النبي صلى الله عليه وسلم، والصلاة فـي جماعـة، ونسـك الرافضـيِّ: إظهـارُ تـرْك النبيـذ، ونسك السَّواديِّ ترْكُ شرب المطبوخ فقط، ونسـكُ اليهـوديِّ: إقامـة السـبت، ونسـك المتكلِّـم: التسرُّع إلى إكفارِ أهل المعاصي، وأنْ يرمَي الناسَ بـالجبْر، أو بالتعطيـلِ، أو بالزندقـة، يريـد أن يوهم أموراً: منها أنَّ ذلك ليس إلاّ من تعظيمه للـدِّين، والإغـراق فيـه، ومنهـا أن يقـال: لـو كـان نَطِفاً، أو مرتاباً، أو مجتنحاً على بليَّة، لما رمى الناسَ، ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميَهـم إلاّ للعزِّ الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذُلِّ الرِّيبـة شـيء لقطَعَـه ذلـك عـن التعـرُّض لهـم، أو التنبيه على ما عسى إنْ حرَّكهم له أنْ يتحرَّكوا، ولم نجدْ في المتكلِّميـن أنْطـفَ ولا أكـثرَ عيوبـاً، ممَّـن يرمـي خصـومَه بـالكفر.

الجماز وجارية آل جعفر وكان أبو عبد اللّـه الجمَّـاز، وهـو محمـد بـن عمـرو، يتعشَّـق جاريـةً لآلِ جعفر يقال لها طُغْيان، وكان لهم خصِيٌّ يحفظُها إذا أرادتْ بيـوتَ المغنِّيـن، وكـان الخصـيُّ أشـدَّ عشقاً لها من الجمَّاز، وكان قد حال بينَه وبيـنَ كلامِهـا، والـدنوِّ منهـا، فقـال الجمـاز وكـان اسـم الخادم سناناً:

للمَقيتِ سِنانٍ ... ولِلظِّباءِ المِلاحِ

زانٍ خَصِيٌّ   غازٍ بغير سلاحِ

وقال فيه أيضاً وفيها:

الفداءُ لظبيٍ   يحبُّني وأُحـبُّـهْ
ذاكَ سِنانٌ   إذا رآني يَسُبُّـهْ
أجابَ سِنـانـاً   يَنيكهُ أين زُبُّـه

وقال أيضاً فيهما:

سنانُ شريكي   فيه فبئسَ الشرِيكُ
سِـنـانٌ   ولا يَدَعْنا نـنـيكُ

ما قيل من الشعر في الخصاء وقـال البـاخَرزيّ يـذكرُ محاسِـنَ خِصال الخِصيان:

لمطمـئنِّ مُـقـيمٍ   ورجال إن كانت الأسفارُ

وقال حميد بن ثور يهجو امرأته:

ورهاء تخصي حمارهـا   من بغَى خيراً إليها الجلامدُ

وقال مزرِّد بن ضِرار:

فجاءتْ كخاصي العَيرِ لم تَحْلَ   جَاجَةٌ منها تلُوحُ علـى وَشْـمِ

وقال عمرو الخارَكى:

علـى الـمـرد   نصيحٌ زادَني حِـرصـا
والـلّـه مـــا أقْ   لع ما عمِّرت أو أُخْصى

وقال آخر:

اللّهُ من أيْرٍ بأفـعَـى   ولا عافاكَ من جَهْد البَـلاءِ
اللّهُ شَرّاً من رفـيقٍ   إذا بلغت بي رَكَبَ النسـاء
في الكريهة حين نلقى   وما تنفكُّ تُنعِظ في الخَـلاَءِ
واللّه ما أمسَى رفيقـي   ولولا البولُ عُوجِل بالخصاء

وقال بعض عبد القيس:

قَحذَمٌ ابنُ واهِصَة الْخُصى   المناكحَ في بني الجـارودِ

انتكاس الدهرِ أن زُوِّجتَهـا ولكلِّ دهرٍ عَـثـرةٌ بـجُـدُود
منذرُ إذ خطَبت إلـيهـم   لكان خَصَاكَ بالمـغـمـود

وقال أبو عبيدة: حدَّثني أبو الخطاب قال: كان عندنا رجلٌ أحـدبُ فسقَط في بئرٍ فذهبت حَدَبته وصار آدَر فقيـل لـه: كيـف تجِـدك؟ فقــــال: الـــــذي جـــــاءَ شـــــرٌّ مـــــن الَّـــــذِي ذهـــــب.

وأبو الحسن عن بعض رجاله قال: خرج معاويةُ ذاتَ يـومٍ يمشـي ومَعه خَصِيٌّ له، إذ دخلَ على ميسـونَ ابنـة بحـدل وهـي أمُّ يزيـد، فاستترت منه فقال: أتستترين منه، وإنَّما هو مثلُ المرأَة؟ قالت: أتُـــرَى أنَّ المثلـــة بـــه تُحِـــلُّ مـــا حـــرَّم اللّـــه تعـــالى.

ذكر ما جاء في خصاءِ الدوابّ ذكر آدمُ بـن سـليمان عـن الشـعبيّ قال: قرأت كتابَ عمر رضي اللّه تعالى عنه إلى سعد، يَنْهَـى عـن حذْف أذناب الخيل وأعرافها، وعن خصائها، ويأمره أن يُجْرِيَ مـن رأس المـــــــــائتين، وهـــــــــو أربعـــــــــة فراســـــــــخ.

وسُفيان الثَّوري عن عاصم بن عبد اللّه بن عمر رضي اللّـه تعـالى عنه كـان ينهـى عـن خِصَـاء البهـائم ويقـول: هـل الإنمـاء إلاّ فـي الـــذكور.

وشَريك بن عبـد اللّـه، قـال: أخـبرني إبراهيـم بـن المهـاجر، عـن إبراهيم النَّخَعي أنّ عمرَ رضي اللّـه تعـالى عنـه نَهَـى عـن خصـاءِ

الخيـــــــــــــــــــــــــــــــل.

وسفيان الثوري عـن إبراهيـم بـن المهـاجر قـال: كتـب عمـرُ بـن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لبعض عمـاله: لا تُجرِيَـنَّ فرسـاً إلاَّ مـــــــن المـــــــــائتين، ولا تخْصِـــــــــينَّ فرســـــــــاً.

وقال: وسمعتُ نافعاً يقول: كان عبد اللّه بـن عمـر يكـرَه خِصـاءَ الـــــــذكورِ مـــــــن الإبــــــل، والبقـــــــر، والغنــــــم.

وعبيد اللّه بن عمر عن نافع: أنَّ ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهمـا كـان يكـره الخصـاء ويقـول: لا تقطعـوا ناميـةَ خَلْـقِ اللّـهِ تعـالى.

وعبد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال: نهى رسـول اللّـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عـن أن تُخصَـى ذكـورُ الخيـلِ، والإبـلِ، والبقـر، والغنم، يقول: فيهـا نشـأة الخلـق، ولا تصـلح الإنـاث إلاَّ بالـذكور.

ومحمد بن أبي ذئـب قـال: سـألت الزُّهـريَّ: هـل بخِصـاء البهـائم بأس؟ قال: أخبرني عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عُتبة بن مسعود، أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطـاهِرين، نهـى عـن صَـــبْرِ الـــروح، قَـــالَ الزُّهـــريُّ: والخِصـــاءُ صـــبرٌ شـــديد.

وأبو جعفَر الرَّازيّ قال: حدَّثنا الرَّبيعُ بن أنس، عن أنس بـن مالـك في قوله تعالى: "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّه" قال: هو الخِصـاء.

وأبـو جريـر عــن قتـادة عــن عِكرِمــة عــن ابــن عبَّــاس نحــوه.

أبو بكر الهذليّ قال: سـألتُ الحسـنَ عـن خِصـاء الـدواب فقـال: تســألني عَـــن هـــذا؟ لعـــن اللّـــه مـــن خَصَـــى الرجـــال.

أبو بكر الهذليُّ عن عِكرِمة في قوله تعـالى: "وَلآمُرَنَّهُـمْ فَلَيُغَيِّـرَنَّ خَلْقَ اللّهِ" قال: خصاء الدواب، قال: وقال سعيد بن جـبير: أخطـأ عكرمــــــــــة، هـــــــو ديــــــــــن اللّــــــــــه.

نَصر بن طريف قال: حدَّثنا قَتادة عـن عِكرمـة فـي قـوله تعـالى: "فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" قـال: خصـاء البهـائم، فبلـغ مجاهـداً فقـال: كذَبَ هو دين اللّه. فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقـول لـه: كـذبت، والنـاسُ لا يضعون هذه الكلمةَ في موضِع خطأ الرأي ممَّن يُظَنُّ به الاجتهـاد، وكان ممَّن لـه أن يقـول، ولـو أنَّ إنسـاناً سـمِع قـولَ اللّـه تبـارك وتعالى: "فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" قال: إنَّما يعنـي الخِصـاء، لـم يقبـل ذلك منه؛ لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دونَ شــيء، وإذا كان اللفظُ عامّاً لم يكن لأحدٍ أن يقصِد به إلى شـيءٍ بعينـه إلاَّ أن يكون النبي صلى اللـه عليـه وسـلم قـال ذلـك مـع تلاوةِ الآيـة، أو يكونَ جبريلُ عليهِ السلام قال ذلك للنبي صلى الله عليــه وســلم؛

لأنَّ اللّــه تبــارك وتعــالى لا يضــمر ولا ينــوي، ولا يخــصُّ ولا يعــمُّ بالقصد؛ وإنَّما الدلالـةُ فـي بِنيـةِ الكلام نفسِـه، فصـورة الكلام هـو الإرادة وهو القصد، وليس بينه وبين اللّه تعالى عمـلٌ آخـر كالـذي يكـون مـن النـاس، تعـالى اللّ هُ عـن قـول المشـبِّهة علـوّاً كـبيراً.

أبو جرير عن عمار بن أبـي عمـار أَنَّ ابـنَ عبـاسٍ قَـالَ فـي قـوله تعــالى: "وَلآمُرَنَّهُــمْ فَلَيُغَيِّــرُنَّ خَلْــقَ اللّــهِ" قَــالَ: هــو الخصــاء.

وأبــو جريــر عــن قَتــادة عــن عِكرمــة عــن ابــن عبَّــاسٍ مثلــه.

أبو داود النَّخَعِيّ، عن محمَّدِ بن سعيدٍ عـن عبـادة بـن نسـيّ، عـن إبراهيم بن محيريز قال: كان أحبَّ الخيلِ إلى سَـلَفِ المسـلمين، فــي عهــد عمــر، وعثمــان، ومعاويــة، رضــي اللّــه تعــالى عنهــم، الخِصْـيان؛ فَإنَّهـا أخفـى للكَميـنِ والطلائـع، وأبقَـى علـى الجَهْـدِ.

أبو جرير قال: أخبرني ابن جُريج عن عطاء أنَّه لم يَرَ بأساً بخصــاء الــدواب.

وأبو جرير عـن أيُّـوبَ عـن ابـن سـيرين، أنَّ ه لـم يكـن يـرى بأس اً بالخصــاء، ويقــول: لــو تُرِكــت الفحولــةُ لأكــل بعضُــها بعضــاً.

وعمر ويونس عن الحسن: أنّه لم يكن يرى بأساً بخصاءِ الــدواب.

سفيان بن عُيينـة عـن ابـن طـاوس عـن أبيـه: أنّـه خَصـى بعيـراً.

وسفيان بن عيينة عن مالك بن مِغوَل عـن عطـاء، أنـه سـئل عـن خصاء البغل فقال: إذا خفت عِضاضه.

أقوال في النتاج المركب

ولْتَصِلْ هذا الكلام بالكلام الذي قبل هذا في الخلـق المَركـب وفـي تلاقح الأجنـاس المختلفـة، زعموا أن العِسبارَ ولد الضبع من الذئب، وجمعه عسابر، وقال الكميت:

المـتـفـرِّقُـو ... نَ من الفَراعِلِ العَسابِرْ

يرميهم بأنّهم أخلاطٌ وَمُعَلْهَجُون.

السمع ولد الذئب من الضبع وزعموا أنّ السِّمع ولد الذئب من الضبع، ويزعمون أنّ السِّمع كالحيَّةِ لا تعرف العِلَل، ولا تموتُ حَتْفَ أنفِها، ولا تموت إلاّ بِعَرَض يَعْرِض لها، ويَزْعمون أنّه لا يَعدو شيءٌ كعدو السِّمع، وأنّه أسرعُ مِنَ الريح والطَّير.

وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه:

العواذل وارْمِ اللَّيلَ في ... شبيبٍ يُقاسِي لـيْلَـهُ خَـبَـبَـا

كالسِّمع لم يَنقب البَيْطَـار ... يَدِجْه ولم يَغمِز لـه عَـصَـبَـا

وقَالَ ابن كُناسة يصف فرساً:

كالعقاب الطلوب يَضْرِبُها الطّ ... وقد صَوَّبَتْ على عِسبـار

وقال سؤر الذئب:

سِمْعٌ إذا تمطَّرَ شيئاً ... وعُقابٌ يحثُّها عِسْبـارُ

يقول: إذا اشتدَّ هربُ المطلوبِ الهاربِ من الطالب الجادّ، فهو أحث للطالب، وإذا صار كذلك صار المطلوبُ حينئذٍ في معنى من يحثُّ الطلب، إذ صار إفراط سرعَتِه سبباً لإفراط طلبِ العُقاب.

وقال تأبط شرّاً، أو أبو محرز خلف بن حيَّان الأحمر:

بالحيِّ أحوى رِفَلُّ ... وإذا يَعْدُو فسِمْعٌ أَزَلُّ

وإنَّما قال أَزَلّ وجعَلَه عادياً ووصفهُ بذلك، لأنَّه ابن الذئب، وقال الأصمعي:

عيني لمظةٍ عِسبارَه

وقال في موضع آخر:

منها طرفه استعارَه

وقال آخر:

بها السِّمْعَ الأَزَلَّ الأطلَسَا

وزعموا أنَّ ولدَ الذئب من الكلبة الدَّيْسَم، ورووا لبشَّارِ بنِ بُرْد في دَيْسَمٍ العَنزِيّ أنّه قال:

يا ابنَ الذئبِ مِنْ نسلِ   أَتَرْوِي هِجائِي سادراً غَيْرَ مُقْصِرِ

وزارع: اسم الكلب، يقال للكلاب أولاد زارعٍ.

زعم لأرسطو في النتاج المركب وزعم صاحب المنطق أنّ أصنافاً أُخَرَ من السباع المتزاوِجات المتلاقِحات مع اختلاف الجنس والصورة، معروفة النتاج مثل الذئاب التي تسفَد الكلابَ في أرض رُومِيَة: قال: وتتولَّد أَيضاً كلابٌ سَلوقيةٌ من ثعالبَ وكلاب، قال: وبين الحيوان الذي يسمَّى باليونانيَّة طاغريس وبين الكلب، تحدث هذه الكلابُ الهندية، قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى.

قال أبو عثمان: عن بعض البصريين عن أصحابه قال: وزعموا أنَّ نِتاجَ الأولَى يخرجُ صعباً وحشيّاً لا يلقَّن ولا يؤلَّف. تلاقح السبع والكلبة وزعم لي بعضهم عن رجلٍ من أهل الكوفة

من بني تميم أنَّ الكلبةَ تعرِض لهذا السبع حتَّى تلقَح، ثم تعـرَض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليـلَ الصـعوبة يقبـلُ التلقيـن، وأنَّهـم يأخـذون إنـاثَ الكلاب، ويربِطونهـا فـي تلـك البراريّ، فتجيءُ هذه السباعُ وتسفَدُها، وليـس فـي الأرض أنـثى يُجتَمَع على حـبِّ سـفادها، ولا ذكـرٌ يجتمـع لـه مـن النـزوع إلـى سفاد الأجنـاسِ المختلفـة، أكـثرَ فـي ذلـك مـن الكلـب والكلبـة. قال: وإذا رَبَطوا هذه الكلابَ الإناثَ في تلك البراري، فإن كـانت هذه السباع هائجةً سفِدَتها، وإن لـم يكـن السـبع هائجـاً فالكلبـة مأكولة، وقال أبو عدنان:

باكيَ الأطلالِ في رَسْمِ دمنٍ تَرُودُ بها عينُ المَهَا والجـآذرُ
وعاناتُ جَوَّال وهَيْق سَفَـنَّـجٌ وسنداوة فضفاضة وحَضَاجِرُ
خَفِيُّ الرِّزِّ ثِلْبٌ ودَوْبَـلٌ وثُرْمَلَةٌ تعتادها وعَـسـابـرُ

وقد سمعنا ما قال صاحبُ المنطق من قبل، وما نظنُّ بمثله أن يخلِّـد علـى نفسـه فـي الكتـب شهاداتٍ لا يحقِّقُها الامتحان، ولا يعرِف صدقَها أشباهُه مـن العلمـاء، ومـا عنـدَنا فـي معرفـةِ مـا ادَّعـى إلاّ هـذا القـول. وأمَّا الذين ذَكروا في أشعارهم السِّمْع والعِسبار، فليس في ظاهر كلامهم دليـلٌ علـى مـا ادَّعـى عليهم النّاسُ من هذا التركيب المختلف، فأدَّينا الـذي قـالوا وأمسـكْنا عـن الشـهادة، إذ لـم نجـد عليهـا بُرهانـاً. ولاد السعلاة وللنَّاس في هذا الضَّرْب ضـروبٌ مـن الـدعوى، وعلمـاءُ السـوء يُظهـرون تجويزَهـا وتحقيقَها، كالذي يدَّعون من أولاد السَّعَالِي من الناس، كما ذكـروا عـن عمـرو بـن يربـوع، وكمـا

يروي أبو زيدٍ النحويُّ عن السِّعلاة التي أقامت في بني تميم حتى وَلَـدت فيهـم، فلمَّـا رأتْ برقـاً يلمَعُ من شقِّ بلاد السَّعالِي، حنَّت وطارت إليهم، فقال شاعرهم:

بَرْقاً فأوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ   فَلاَ بِكِ ما أسَالَ وما أغاما

وأنشدني أن الجنَّ طرقوا بعضَهم فقال:

ناري فَقُلْتُ مَنُونَ أنـتـمْ   فقالوا الجِنُّ قلتُ عِموا ظَلاَمَا
إلى الطَّعام فقال منهـم   زعيمٌ نَحْسُدُ الإنسَ الطَّعامـا

ولم أعِب الرواية، وإنَّما عبثُ الإيمانَ بها، والتوكيدَ لمعانيها، فمـا أكثَـرَ مـن يَـروي هـذا الضـربَ على التعجُّبِ منه، وعلى أن يجعَلَ الرواية له سبباً لتعريفِ النَّاس حقَّ ذلك من باطِلِه، وأبـو زيـدٍ وأشباهُه مأمونون على النَّاس؛ إلاَّ أنَّ كلَّ من لم يكن متكلِّمـاً حاذقـاً، وكـان عنـد العلمـاء قـدوةً وإماماً، فما أقرَبَ إفسادَه لهم من إفسادِ المتعمِّد لإفسادهم وأنشدوا في تثبيتِ أولاد السعلاة:

جمع من بُـوان ووَتِـدْ   وحَسَنٌ أَنْ كَلَّفْتَنِي مَـا أجِـد
تقل جِيء بأبَـانٍ أو أُحُـدْ   ولدِ السِّعلاةِ أو جِروِ الأسَدْ
الأعجام مأسوراً بقِدّ

وقال آخر:

اللّه بَنِي السِّعلاةِ عمراً وقابوساً شِرَارَ النات

ما زعموا في جرهم وذكروا أنَّ جُرهُماً كان من نِتاج ما بين الملائكـة وبنـات آدم، وكـان الملَـكُ من الملائكة إذا عصى ربَّه في السماء أهبَطَه إلى الأرض فـي صـورة رجـل، وفـي طـبيعته، كمـا صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأنِ الزُّهَرة، وهي أناهيد ما كان، فلَّما عصـى اللّـهَ تعالى بعضُ الملائكة وأهبطَه إلى الأرض في صورةِ رجـل، تـزوَّج أمَّ جُرهـمٍ فولـدتْ لـه جُرهمـاً، ولذلك قال شاعرهم:

إنَّ جُرهُماً عِبادُكا   الناس طِرْفٌ وهُمُ تِلادُكا

ما زعموا في بلقيس وذي القرنين ومن هذا النسـل ومـن هـذا التركيب والنجل كانت بِلْقِيسُ ملكةُ سَبأ، وكذلك كان ذو القرنين كانت أمُّه فيرى آدميَّة وأبوه عبرى من الملائكة، ولذلك لما سمِع عمـرُ بـن الخطَّـاب رضـي اللّـه تعـالى عنـه رجلاً ينـادي: يـا ذا

القرنين، فقال: أفَرَغْتُمْ من أسماءِ الأنبياء فارتفعتم إلـى أسـماءِ الملائكـــــــــــــــــــــــــــــــــــــة?.

وروى المختارُ بن أبي عبيد أَنَّ عليّاً كان إذا ذَكَر ذا القرنين قال: ذلـــــــــــــك المَلـــــــــــــكُ الأمـــــــــــــرط.

ما زعموا من تلاقح الجن والإنس وزعموا أنَّ التناكُح والتلاقُح قد يقع بين الجنِّ والإنـس، لقـوله تعـالى: "وَشَـارِكْهُمْ فِـي الأَمْـوَالِ وَالأَوْلاَدِ"، وذلك أن الجِنِّيَّاتِ إنَّما تعرِض لصَرْع رجالِ الإنس على جهة التعشُّق وطلبِ السِّفاد، وكذلك رجال الجنِّ لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض الرِّجـالُ للرِّجـال، والنسـاءُ للنسـاء، ونسـاؤهم للرجـــــــــــــــــــال والنســـــــــــــــــــاء.

ومن زعَم أن الصَّرْعَ من المِرَّة، ردَّ قوله تعالى: "الَّـذِينَ يَـأْكُلُون الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ" وقال تعالى: "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ"، فلو كان الجـانُّ لا يفتضُّ الآدَمِيَّاتِ، ولم يكنْ ذلك قطُّ، وليـس ذلـك فـي تركيبِـه، لَمـــــا قـــــال اللّـــــه تعـــــالى هـــــذا القـــــول.

ما زعموا في النسناس وغيره وزعموا أنّ النَّسْـنَاسَ تركيـبُ مـا بين الشِّق والإنسان، ويزعمون أنَّ خلقاً مـن وراء السـدِّ تركيـبٌ

من النَّسْنَاسِ، والناس، والشقِّ، ويـأجوج ومَـأجوج، وذكـروا عـن الوَاق واق والدوَال باي أنهُمْ نِتاجُ ما بينَ بعض النَّباتِ والحيـوان، وذكـروا أنَّ أمَّـةً كـانت فـي الأرض، فـأمرَ اللّـه تعـالى الملائكـة فأجلوَهم؛ وإيَّـاهم عَنَـوا بقـولهم: "أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَـنْ يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ"، ولـذلك قـال اللّه عزَّ وجلَّ لآدم وحواء: "وَلاَ تَقْرَبَـا هـذِهِ الشَّـجَرَةَ فَتَكُونَـا مِـنَ الظَّالِمينَ"،فهذا يدلُّ على أن ظالماً وظُلماً قد كـان فـي الأرض.

قال الأصمَعيُّ - أو خلَفٌ - في أرجوزة مشهورة، ذكرَ فيها طُـوْلَ عمر الحَيَّة:

إنْ أسبَطَ أو تَثَنَّـى ... حَسِبْتَ وَرْساً خالَطَ اليَرَنَّا
مِنْ هَاهُنَا وَهَنَّـا ... إذا تراءَاهُ الحواةُ استَنَّـا

قـــــال: وكــــان يقـــــال لتلـــــك الأمَّــــــة مهنـــــا.

قول المجوس في بدء الخلق وزعم المجوس أنَّ النـاسَ مـن ولـد مهنة ومهنينة، وأنَّهما تولـدا فيمـا بيـنَ أرحـام الأرَضـين، ونطفـتين ابتدرتا من عينَي ابن هُرمُز حين قتلـه هرمـر، وحماقـات أصـحابِ الاثنَين كثيرةٌ فِي هذا الباب، ولولا أنِّي أحببْتُ أن تسمَعَ نوعـاً مـن الكلام، ومبلغَ الرأي، لتُحدِثَ للّه تعالى شكراً علـى السـلامة، لمـا ذكـــــــرتُ كـــــــثيراً مـــــــن هـــــــذا الجنـــــــس.

عبد الله بن هلال صديق إبليس وختنه وزعم ابن هيثم أنَّه رأى بالكوفة فتًى من ولد عبد اللّه بن هلال الحميري، صديق إبليس وخَتَنِهِ، وأنَّهم كانوا لا يشكُّون أنَّ إبليسَ جَدُّه من قِبَل أمَّهاتِه، وسنقولُ في ذلك بالذي يجبُ إن شاء اللّه تعالى، وصِلَة هذا الكلام تجيءُ بعد هذا إن شاء اللّه تعالى.

حوار في الكلب والديك

وقلت: ولو تمَّ للكلب معنى السبع وطباعه، لما أَلف الإنسانَ، واستوحش من السبع، وكرِه الغياض، وألِف الدُّور، واستوحَشَ من البرارِي وجانب القفار، وألِفَ المجالسَ والدِّيار، ولو تمَّ له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاءِ، لما أكل الحيوانَ، وكَلِب على النَّاس، نعمْ حتَّى رُبَّما كلِب وَوَثَبَ على صاحبِه وكلِبَ على أهله، وقد ذكر ذلك طرفةُ فقال:

لَنَا والدُّهورَ آوِنةً تَقْتُلُ حالَ النَّعِيم بالبُؤُس
طَسْمٍ وقد تَرَبَّبه يَعُلُّه بالحَليبِ في الغَلَسِ
عليه يوماً يُفَرْفِرُه إلاَّ يَلَغ في الدماءِ يَنْتهِسِ

وقال حاجب بن دينار المازِنيُّ في مثل ذلك:

من عدُوٍّ قد أعنتمْ عليكُم بمالٍ وسُلطانٍ إذا سَلِم الحَبْلُ
الكلبِ لمَّا أسمَنَ الكَلْبَبإحدى الدَّواهي حينَ فَارَقَه الجهلُ

وقال عوف بن الأحوص:

وقيساً كالمسمِّنِ كَلْبَه تُخَدِّشُهُ أَنْيَابُه وأظَافِرُه

وأنشد ابن الأعرابي لبعضهم:

سَمَّنُوا كلباً ليأكُلَ بعضَهمْ ظَفِروا بالحزْمِ مَا سُمِّنَ

الكَلْبُ

وفـــــــــــي المثـــــــــــــــل: ســــــــــــمِّن كَلْبَــــــــــــكَ يَأْكُلْــــــــــــك.

وكان رجلٌ من أهل الشام مع الحجَّاج بن يوسف، وكان يحضُر طعامَه، فكتب إلى أهلـه يخـبرُهم بما هو فيه من الخِصْب، وأنه قد سَمِن فكتبت إليه امرأته:

لِيَ القِرطَاسَ والخبْزُ ... على بابِ الأمـيرِ بَـطِـينُ

غِبْتَ لم تَذْكُرْ صَدِيقاً وإن ... على ما في يَدَيك ضَـنِـينُ

ككَلْبِ السَّوْءِ في جُوعِ ... أهلُ الكلب وهو سَـمِـينُ

وفي المثل: سمن كلب في جوعِ أهلِه، وذلك أنه عند السُّواف يصيب المـال، والإخـداجِ يعـرض للنُّوق، يأكُلُ الجِيفَ فيسمَن، وعلى أنه حارِسٌ مُحتَرَسٌ منه، ومؤنسٌ شديد الإيحاش من نفســه، وأليفٌ كثير الخيانةِ على إلفِـه، وإنمـا اقتنـوه علـى أنْ ينـذِرَهم بموضـع السـارق، وتركـوا طَـرده لينبههُم على مكان المبيِّت، وهو أسرقُ من كل سارق، وأدومُ جنايةً من ذلك المبيِّت، ويدلُّ علـى أنَّه سروقٌ عندَهم، قولُ الشاعر:

أَنْ سرَى كلبٌ فبيَّت جُلَّةً وجَبْجَبةً للوَطب لَيْلَى تُطلقُ

فهو سَرَّاق، وصاحب بَيات، وهو نَبَّاشٌ، وآكـلُ لحـومِ النَّـاس، أَلا إنَّه يجمعُ سِرقة الليل مع سرقة النّهار، ثم لا تجـده أبـداً يمشـي فـي خِزانـةٍ، أَو مطبَـخ، أَو عَرْصـةِ دار، أو فـي طريـقٍ، أَو فـي بَـراريَّ، أَو فـي ظهـرِ جَبـل، أو فـي بَطْـن وادٍ، إلاَّ وخطمُـه فـي الأرض يتشمَّم ويستروح، وإنْ كانت الأرضُ بيضـاءَ حَصَّـاءَ ودَوِّيَّـةً ملساءَ، أو صخرةً خلقاء؛ حرصـاً وجشـعاً، وشـرهاً وطمعـاً، نعـم حتَّى لا تجده أيضاً يرى كلبـاً إلاَّ اشـتمَّ اسـتَه، ولا يتشـمَّم غيرهَـا

مِنهُ، ولا تراه يُرمَى بحجر أيضاً أبداً إلاَّ رجَع إليه فعضَّ عليه؛ لأنَّه لمَّا كان لا يكاد يأكلُ إلاَّ شيئاً رمَوا به إليه صار ينسَى لِفَرْط شرَهِه وغلَبة الجشعِ على طبعه، أنَّ الراميَ إنَّما أراد عقْره أو قتلَه، فيظنّ لذلك أنَّه إنَّما أراد إطعامه والإحسانَ إليه، كذلك يخيِّل إليه فرْطُ النَّهم وتُوهِمُه غلبَةُ الشَّرَه، ولكنَّه رَمى بنفسِه على الناس عجزاً ولؤماً، وفُسولةً ونقصاً، وخافَ السباعَ واستوحش من الصَّحارى.

ولَمَّا سمِعوا بعضَ المفسِّرين يقول في قوله تعالى: "وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" إنَّ المحروم هو الكلب؛ وسمِعوا في المثل: اصنَعُوا المعروفَ ولو إلى الكلب عَطفُوا عليه واتَّخَذُوه في الدُّور، وعلى أنَّ ذلك لا يكون إلاَّ من سِفْلتهم وأغبيائهم، ومن قلَّ تقزُّزُهُ وكثُر جهلُه، وردَّ الآثارَ إمَّا جهلاً وإمَّا معانَدة.

وأما الديك فمِن بهائم الطير وبغاثها، ومن كلولِها والعِيال على أربابها، وليس مِنْ أحرارها ولا مِنْ عِتاقِها وجوارحها، ولا ممَّا يطرِب بصوته ويُشجِي بلحنه، كالقَماريِّ والدَّباسيِّ والشَّفَانين والوراشِين والبلابل والفواخت، ولا ممَّا يُونِق بمنظره ويمتع

الأبصار حسنُه، كالطواويس والتَّدارِج، ولا مما يعجِب بهدايته ويُعقَد الذمام بإلْفه ونِزاعه، وشدةِ أُنسه وحنينه، وتُرِيده بإرادته لك، وتَعطِف عليهِ لحبِّهِ إياك، كالحمام، ولا هو أيضاً من ذوات الطيران منها، فهو طائرٌ لا يطير، وبهيمةٌ لا يَصيد، ولا هو أيضاً مما يكون صيداً فيمْتِع من هذه الجهة ويُراد لهذه اللَّذة. والخُفَّاش أمرَطُ، وهو جيِّدُ الطيران، والدِّيكُ كاسٍ وهو لا يطير، وأيُّ شيءٍ أعجبُ من ذي ريشٍ أرضيٍّ، ومن ذي جلدةٍ هوائيّ. وأجمعُ الخلق لخصال الخير الإنسان، وليس الزِّواجُ إلاّ في الإنسان وفي الطير، فلو كان الديك من غير الطير ثمَّ كان ممن لا يزاوج، لقد كان قد مُنِع هذه الفضيلة وعَدِم هذه المشاكَلَة الغريبة، وحُرم هذا السَّببَ الكريم والشِّبْه المحمود، فكيف وهو لا يزاوج، وهو من الطيرِ الذي ليس الزواجُ والإلْف وثباتُ العهْد، وطلَبُ الذرء وحبُّ النَّسل، والرجوعُ إلى السكن والحنين إلى الوطن - إلاَّ له وللإنسان، وكلُّ شيء لا يزاوج فإنَّما دخله النقصُ وخسِر هذه الفضيلَة من جهةٍ واحدة، وقد دخل الديكَ النقص مِنْ جهتين، ووصف أبو الأخزَر الحِمَّانيُّ الحِمارَ وعَيْر العانةِ خاصَّة، فإنَّه أمثلُ في باب المعرفة من الأهْليّ، فذكركيف

يضرِب في الأُتُن، ووصَفَ استبهامَه عن طلب الولد، وجهلَه بموْضِع الذَّرْء، وأنَّ الولدَ لم يجئ منه عن طلبٍ له، ولكن النُّطفة البريئة من الأسقام، إذا لاقت الأرحام البريئَة مِن الأسقام حَدَث النِّتاج على الخلقة، وعلى ما سوِّيت عليه البِنية، وذكر أنّ نزوَه على الأتان، من شكل نَزْوه على العير، وإنَّما ذلك على قدْر ما يحضُره من الشَّبَق، ثمَّ لا يلتفِت إلى دُبرٍ من قُبُل، وإلى ما يَلقَحُ من مثلِه ممَّا لا يُلقَحُ فقال:

مُبْتَغِي الضِّنْءِ ولا بالعازلِ

يقول: هو لا يريد الولَد ولا يعزل.

والأشياء التي تألفُ الناسَ ولا تريدُ سِواهم، ولا تحنُّ إلى غيرهم، كالعصفور والخُطّاف والكلْب والسِّنَّور، والدِّيك لا يألَفُ منزِلَه ولا رَبْعه ولا يُنازع إلى دجاجته ولا طَرُوقته، ولا يحنُّ إلى ولده، بل لم يَدرِ قطُّ أنّ له ولداً؛ ولو دَرَى لكان على دِرايتِهِ دليل، فإذ قد وجدناه لبيضِه وفراريجهِ الكائنةِ منه، كما نجدُه لما لم يلدْه ولِمَا ليسَ من شَكلهِ ولا يرجِع إلى نسبه، فكيف تُعرَف الأمور إلاَّ بهذا وشبهه، وهو مع ذلك أبلَهُ لا يعرِف أهلَ دارِه، ومبهوتٌ لا يُثْبِتُ وَجهَ صَاحِبه، وهو لم يُخْلَق إلاَّ عندَه وفي ظلِّه، وفي طعامِه وشرابِه، وتَحْتَ جناحه. والكلْبُ على ما فيه يعرف صاحبَهُ، وهو والسِّنَّور يعرِفان أسماءهما، ويألَفان موضعَهما، وإن طُردا رَجعا، وإن أُجِيعا صَبَرَا، وإن أُهِينا احتملا.

والديك يكون في الدار من لَدُنْ كانَ فَرُّوجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً، وهو إن خرَج من باب الدار، أو سقط على حائط من حيطان الجيران، أو على موضعٍ من المواضع، لم يعرِفْ كيف الرُّجوعُ، وإن كان يُرَى منزلُه قريباً، وسهل المطلبِ يسيراً، ولا يَذكُر ولا يتذَكَّر، ولا يهتدي ولا يتصوَّر لَه كيف يكونُ الاهتداء، ولو حنَّ لَطَلَبَ، ولو احتاج لالتمس، ولو كان هذا الخُبْرُ في طباعه لظَهَر، ولكنَّهَا طبيعةٌ بلهاءُ مستبهِمة، طامحة وذاهلة، ثمَّ يسفَدُ الدَّجاجةَ ولا يعرفُها، هذا مع شدَّةِ

حاجته إليهنَّ وحِرصِه على السِّفاد، والحاجةُ تفتِقُ الحِيلَة، وتَدُلُّ على المعرفة، إلاَّ ما عليه الديك؛ فإنَّه مع حِرصهِ على السِّفاد، لا يعرفُ التي يسفَد، ولا يقصِد إلى ولدٍ، ولا يحضُن بيضاً ولا يعطِفُه رَحِمٌ، فهو من ها هنا أحمقُ من الحُبارَى وأعقُّ من الضبِّ، وقال عثمان بن عفَّان رضي اللّه تعالى عنه: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولدَه حتى الحُبَارى، فضرَب بها المثلَ كما ترى في المُوقِ والغفْلة، وفي الجهل والبَلَه، وتقول العرب: أعَقُّ من الضَّبِّ؛ لأنَّه يأكلُ حُسُولَه. أكل الهرة أولادها وكرُمَ عند العرَب حظُّ الهِرَّة، لقولهم: أَبَرُّ مِنْ هِرَّة، وأعقُّ مِنْ ضَبٍّ، فوَجَّهوا أكلَ الهرَّةِ أولادَها على شدَّة الحبِّ لها، ووجَّهوا أَكْلَ الضبِّ لها على شدَّةِ البغْض لها، وليس ينجو مِنْهُ شيءٌ منها إلاّ بشغْلِه بِأَكْل إخْوته عنه، وليس يحرُسُها ممَّا يأكلُها إلاَّ ليأكلَها، ولذلك قال العَمَلَّسُ بن عَقيل، لأبيه عَقيل بن عُلَّفَة:

بَنِيك أكْلَ الضَّبِّ حتَّى ... وَجدتَ مَرارةَ الكلأ الوبيل
الألَى كانوا شهوداً ... منَعْتَ فِناءَ بيتك من بَجيلِ

وقال أيضاً:

بَنِيك أَكل الضَّبِّ حتَّى ... ترَكت بَنِيك لَيْسَ لَهُمْ عديد

وشبَّه السّيِّدُ بن محمَّد الحميريُّ، عائشةَ رضي اللّه تعالى عنها في نصْبِها الحربَ يوم الجملِ لقتال بنيها، بالهرَّةِ حين تأكلُ أولادَها، فقال:

معَ الأَشْقَينَ في هَوْدَجٍ ... تُزْجِي إلى البَصْرَةِ أجْنَادَها
في فِعلِها هِرَّةٌ ... تُريدُ أن تأكُلَ أولادَهَا

رعاية الذئبة لولد الضبع وتقول العرب أيضاً: أحمَقُ مِنْ جَهِيزَة، وهي عِرس الذئب؛ لأنَّها تدعُ ولدها وترضع ولد الضبع.

قال: وهذا معنى قولِ ابن جِذْل الطِّعَان.

كَمُرضِعَةٍ أولادَ أُخرَى وضَيَّعَتْبَنِيهَا فلم تَرْقَع بذلك مَرْقَعا

رعاية الذئب لولد الضبع ويقولون: إنَّ الضبعَ إذا صِيدَت أو قُتلت، فإنَّ الذئب يأتي أولادَها باللحم، وأنشد الكُميت:

خَامَرَتْ في حِضْنِها أمُّ لِذِي الحبل حتى عَال أوسٌ عِيالها

وأوس هو الذئب، وقال في ذلك:

يوم من ذُؤَالَه ضِغْثٌ يَزيد على إبَالَه
فلأحْشأنَّك مِشْقَصاً أوساً أُويسُ من الهباله

الأوس: الإعطاء، وأويس هو الذئب، وقال في ذلك الهذليّ:

شعري عنك والأَمْرُ أَمَمْفَعَلَ اليومَ أُويسٌ في الغنمْ

وقال أميَّةُ بن أبي الصّلْت:

اليتامى كانَ يُحْسِنُ أوسهُم حوطُهم في كلِّ عام جامد

حمق النعامة ويقولون: أحْمَقُ مِنْ نَعَامة كما يقولون: أشْرَدُ مِنْ نعامة قالوا ذلك لأنّها تدَعُ الحَضْن على بيضِها ساعةَ الحاجة إلى الطُّعم، فإن هي في خروجِها ذلك رأتْ بيضَ أخرى قد خرجت للطُّعم، حضَنت بيضَها ونسِيت بيضَ نفسها، ولعلَّ تلك أن تُصادَ فلا ترجعُ إلى بيضها بالعَرَاء حتَّى تهلِك، قالوا: ولذلك قال ابن هَرْمة:

وتَرْكي نَدَى الأَكرَمِين وقَدْحِي بكَفِّيَ زَنْداً شَحَاحا
بيضَها بالعَرَاء ومُلبِسةٍ بَيضَ أُخْرَى جناحا

وقد تحضُن الحمامُ على بيض الدَّجاج، وتحضُن الدَّجاجةُ بيضَ الطاوُس، فأمَّا أن يَدَعَ بَيضَه ويحضُنَ بيضَ الدَّجاجة، أو تَدَعَ الدجاجةُ بيضَها وتحضُن بيضَ الطاوس فلا، فأمَّا فَرُّوجُ الدَّجاجة إذا خرج من تحت الحمامة؛ فإنَّهُ يكونُ أكيسَ، وأَمَّا الطاوُس الذي يخرج من تحت الدَّجاجة فيكون أقلَّ حسناً وَأَبْغَضَ صوتاً.

الفرخ والفروج وكلُّ بيضةٍ في الأرض فإنَّ اسمَ الذي فيها والذي يخرُج منها فرخ، إلاَّ بيضَ الدَّجاج فإنَّه يسمى فرُّوجاً، ولا يسمَّى فرخاً، إلاَّ أن الشعراء يجعلون الفَرُّوج فَرخاً على التوسُّع في الكلام، ويجوِّزون في الشعر أشياءَ لا يجوِّزونها في غير الشعر، قال الشاعر:

لأَصْواتُ المَكَاكيِّ بالضُّحَى تَدَاعى بالعشيِّ نَواعِبُه
إلينا من فِراخِ دَجاجةٍ دِيكِ أنباطٍ تَنُوسُ غباغِبُه

وقال الشمَّاخ بن ضِرار:

مُبلغٌ خاقانَ عنِّي تأمَّلْ حِينَ يضربُك الشِّتاءُ

في جنابك من صغير ومن شيخ أَضرَّ به الفَنـاءُ
دَجاجةٍ يَتْبَعْـنَ دِيكـاً يَلُذْنَ به إذا حَمِس الوَغَـاء

فإنْ قلت: وأيُّ شيء بلَغَ من قدْر الكلبِ وفضـيلة الـديك، حتَّـى يتفرّغ لـذكر محاسِـنهما ومسـاويهما، والموازنـة بينهما والتنوية بذكرهما، شيخان من عِلْيةِ المتكلِّميـن، ومـن الجلـة المتقـدِّمين، وعلى أنَّهما متى أبرما هذا الحكمَ وأفصـحا بهـذه القضـيَّة، صـار بهذا التدبير بهما حظٌّ وحكمة وفضيلة وديانة، وقلـدَهما كـلُّ مَـن هو دونَهمـا، وسـيعودُ ذلـك عـذراً لهمـا إذا رأيتهمـا يوازيـان بيـن الـذِّبَّان وبنـاتِ وَرْدانَ، وبيـن الخنـافس والجِعْلان، وبيـنِ جميـع أجناس الهمَـج وأصـناف الحشـراتِ، والخشـاش، حتَّـى البعـوض والفَراش والديدان والقِردان فإن جاز هذا في الـرأي وتـمَّ عليـه العمـل، صـار هـذا الضَّـربُ مـن النظـر عِوضـاً مـن النَّظَـر فـي التوحيـد، وصـار هـذا الشـكلُ مـن التمييـز خَلَفـاً مـن التعـديل والتجوير، وسـقَط القـولُ فـي الوعـد والوعيـد، ونُسـي القيـاسُ والحكم في الاسم، وبطَلَ الردُّ على أهلِ الملل، والموازنـةُ بيـن جميـع النِّحَـل، والنظـرُ فـي مراشـد النـاس ومصـالحهم، وفـي منافِعهم ومَرافقهـم؛ لأنَّ قلـوبَهم لا تتَّسـع للجميـع، وألسـنَتهم لا تنطِلق بالكلِّ، وإنَّما الرأيُ أن تبدأ من الفتق بالأعظم، والأخـوف

فــالأخوف.

وقلتَ: وهذا بابٌ من أبواب الفراغ وشكل من أشـكال التطـرُّف وطريق من طرق المزاح، وسَبيلٌ من سُـبُل المضـاحك، ورجـالُ الجدِّ غير رجالِ الهـزْل، وقـد يحسُـن بالشَّـبَابِ ويقبُـح مثلُـه مـن الشيوخ، ولولا التحصيلُ والموازنَة، والإبقاء على الأدب، والدَّيانـة بشدَّة المحاسبة، لما قالوا: لكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ زمانٍ رجالٌ، ولكـــــلِّ ســـــاقطةٍ لاقطـــــة، ولكـــــلِّ طعـــــامٍ أكلـــــة.

تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورهـا قـد زعـم أنـاسٌ أنَّ كـلِّ إنسانٍ فيه آلةِ لَمِرْفِقٍ من المرافق، وأداةٌ لمنفعـةٍ مـن المنـافع، ولا بدَّ لتلك الطبيعة من حركةٍ وإنْ أبطأَت، ولا بدَّ لـذلك الكـامنِ من ظهور، فـإنْ أمكَنـهُ ذلـك بعثَـه، وإلاَّ سَـرَى إليـه كمـا يسـري السمُّ في البدن، ونمَى كما يَنْمِي العرق، كما أنّ البُـزور البرّيَّـة، والحبَّةَ الوحشيَّة الكامنةَ في أرحام الأَرَضين، لا بدَّ لها من حركـةٍ عندَ زمانِ الحركة، ومن التفتُّق والانتشار في إبَّانِ الانتشار، وإذا صارت الأمطارُ لتلك الأرحامِ كالنُّطفة، وكان بعـضُ الأرض كـالأُم الغاذية فلا بدَّ لكلِّ ثديٍ قوِيٍّ أن يُظهِر قُوَّتَه، كما قال الأوّلُ:

للمصدور يوماً من النَّفْثْ

وقال:ولا بـدَّ مـن شَـكوى إذا لـم يكـنْ صـبرُ ولـذلك صـارَ طلـبُ الحسابِ أخفَّ على بعضـهم، وطلـبُ الطِّـبِّ أحـبَّ إلـى بعضـهم، وكذلك النِّزاع إلى الهندسة، وشغَفُ أهلِ النُّجوم بالنُّجوم، وكـذلك أيضاً ربَّما تحرَّك له بعد الكَبرَة، وصَرف رغبتَه إليـه بعـد الكهولـة، على قدر قوَّة العِرق في بدنه، وعلى قدْر الشَّواغل له وما يعترضُ عليه، فتجد واحداً يَلهج بطلب الغِناء واللحون، وآخر يلهـج بشـهوة القتال، حتى يَكْتَتِبَ مع الجُند، وآخر يختـار أن يكـون ورّاقـاً، وآخـر يختـارُ طلـبَ الملـك، وتجِـدُ حرصَـهم علـى قـدر العلـل الباطِنـة المحرِّكة لهم، ثمَّ لا تَدْرِي كيف عرضَ لهذا هذا السّببُ دونَ الآخَـرِ إلاَّ بجملة من القول، ولا تجدُ المختارَ لبعض هذه الصـناعات علـى بعضٍ يعَلمْ لم اختارَ ذلك في جملةٍ ولا تفسير، إذْ كان لم يَجْرِ منـه عَلَـــــى عِـــــرْق، ولا اختــــــارَه علــــــى إرْث.

من سار على غير طبعه وليس العجبُ من رجلٍ في طباعه سـببٌ يَصِل بينه وبينَ بعـض الأمـور ويحرِّك ه فـي بعـض الجهـات، ولكـنَّ العجبَ ممَّن يموت مغنِّياً وهو لا طبعَ له في معرفة الوزن، وليـس له جِرمٌ حسَن، فيكون إن فاته أن يكون معلِّمـاً ومغنِّـيَ خاصَّـة أنْ يكون مُطرباً ومُغَنِّيَ عامّة، وآخـر قـد مـاتَ أن يُـذكرَ بـالجود، وأن

يسخَّى على الطعام، وهو أبِخلُ الخلق طبعــاً، فــتراه كلفــاً باتِّخــاذ الطيِّبات ومستَهتَراً بالتكثير منها، ثمّ هو أبداً مفْتَضِحٌ وأبداً منتقض الطبـاع، ظـاهرُ الخطـأ، سـيِّئ الجـزع عنـدَ مؤاكلـةِ مـن كـان هـو الداعيَ له، والمرسِلَ إليـه، والعـارفِ مقْـدارَ لَقْمِـه ونهايـةَ أكلـه، فإنْ زعمتم أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء إنَّما هو رهنٌ بأسـبابه، وأسـيرٌ في أيدي عِلَله، عـذَرتم جميـعَ اللئـام وجميـع المقصِّـرين، وجميـعَ الفاســقين والضــالِّين، وإن كــان الأمــر إلــى التمكيــن دونَ التسخير،أفَليس من أعجبِ العجبَ ومن أسوأ التقدير التمثيل بين الدِّيَكـــــــــــــــــــــــــــة والكِلاب.

قَـــــــدْ عَرَفنــــــا قولَــــــك، وفهمْنــــــا مــــــذهبَك.

فأما قولُك: وما بلَغ من خَطَر الديك وقدر الكلب فإنَّ هـذا ونحـوَه كلامُ عبدٍ لم يفهم عن ربِّه، ولم يَعقِـل عـن سـيِّده، إلاَّ بقـدْر فهـمِ العامَّةِ أو الطبقةِ التي تلي العامَّة، كأنَّكَ، فهَّمك اللّه تعـالى، تظـنُ أنَّ خَلْقَ الحيَّةِ والعقـرَب، والتـدبيرَ فـي خلـقِ الفَـراش والـذباب، والحكمةَ فـي خلْـق الـذئاب والأسـدِ وكـلِّ مبغَّـضٍ إليـك أو محقَّـر عندك، أو مسخَّرٍ لـك أو واثـبٍ عليـك، أنَّ التـدبير فيـه مختلِـفٌ أو نــــاقص، وأنَّ الحكمــــةَ فيــــه صــــغيرةٌ أو ممزوجــــة.

مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشر اعلم أنَّ المصلحةَ في أمرٍ ابتـداء الـدنيا إلـى انقضـاءِ مُـدَّتها امـتزاجُ الخيـر بالشـرِّ، والضـارِّ بالنافع، والمكروهِ بالسارِّ، والضَّعَةِ بالرِّفعة، والكَـثرة بالقِلَّـة، ولـو كان الشرُّ صِرْفاً هلَكَ الخلقُ، أو كان الخيرُ مَحضاً سقَطت المِحْنة وتقطَّعَتْ أسبابُ الفِكرة، ومع عَدَم الفِكرةِ يكـون عَـدَمُ الحكمـة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكـن للعـالِمِ تثبُّـتٌ وتوقُّـف وتعلُّم، ولم يكن علم، ولا يُعرف بـابُ التـبيُّن، ولا دفـعُ مضـرةٍ، ولا اجتلابُ منفعة، ولا صَبْر على مكـروهٍ ولا شـكْرٌ علـى محبـوب، ولا تفاضُلٌ في بيانٍ، ولا تَنَافس في درجةٍ، وبطلَت فَرحةُ الظَّفَر وعـزُّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزَّ الحق، ومُبْطِلٌ يجد ذِلَّة الباطل، وموقنٌ يجد بَرْدَ اليقين، وشاكٌّ يجد نقصَ الحَيـرةِ وكَـرْبَ الوُجوم؛ ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تتشـعَّبْهَا الأطمـاع، ومَـن لـم يعرف كيف الطَّمـعُ لـم يعـرِفِ اليـأس، ومـن جَهِـل اليـأسَ جهِـلَ الأمن، وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صـفوة الخلـق، ومـن الإنس الذين فيهم الأنبيـاءُ والأوليـاءُ، إلـى حـالِ السـبُعِ والبهيمـة، وإلى حال الغباوةِ والبلادة، وإلى حال النجوم في السُّـخْرة؛ فإنهـا أنقص من حالِ البهائم في الرَّتْعَةِ، ومَنْ هذا الذي يسرُّه أن يكـون

الشمسَ والقمرَ والنَّارَ والثلج، أو برجاً مـن الـبروج أو قطعـةً مـن الغيم؛ أو يكونَ المَجرَّةَ بأسْرها، أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء? وكلُّ شيءٍ فـي العـالم فإنمـا هـو للإِنسـان ولكـلِّ مختَبَـرٍ ومُختَـار، ولأهـل العقـول والاسـتطاعة، ولأهـل التـبيُّن والرويَّـة. وأين تقَعُ لَـذَّة البهيمـة بالعَلُوفـة، ولـذَّة السـبع بلَطْـع الـدَّمِ وأكـل اللحم - مِن سرورِ الظَّفَر بالأعـداء؛ ومِـنِ انفتـاحِ بـابِ العلـم بعـد إدْمان القَرْع? وأين ذلك من سـرورِ السُّـودَد ومـن عـزِّ الرياسـة? وأين ذلك من حال النُّبوّةِ والخِلافة، ومِن عزِّهِما وسـاطعِ نورهمـا، وأينَ تقعُ لذَّةُ درْك الحواسِّ الذي هو ملاقاةُ المطعَـم والمشـرب، وملاقاةُ الصوتِ المُطرِبِ واللّونِ المونق، والملمسة الليِّنـة - مِـن السرور بنَفاذ الأمرِ والنَّهي، وبجـواز التوقيـع، وبمـا يُـوجب الخـاتَمُ من الطاعة ويُلزِم من الحجَّة?، ولو استَوت الأمـور بطَـلَ التمييـزُ، وإذا لم تكن كلفـةٌ لـم تكـن مَثوبـة، ولـو كـان ذلـك لبطلـتْ ثمـرةُ التوكُّلِ على اللّه تعـالى، واليقيـنِ بـأنَّه الـوَزَرُ والحـافظ، والكـالئ والدافع، وأَنَّ الذي يحاسِـبُك أَجْـوَدُ الأَجْـوَدِين، وأرحَـمُ الراحميـن، وأنه الذي يقبلُ اليسيرَ ويَهَبُ الكثير، ولا يهلِك عليه إلاّ هالك، ولــو كان الأمرُ على ما يشتهيه الغَرِير والجاهلُ بعواقبِ الأمـور، لبطـلَ

النَّظَرُ وما يشحذ عليه، وما يدعو إليه، ولتعطَّلت الأرواحُ من معانيها، والعقولُ من ثِمارها، ولعَدِمت الأشياءُ حظوظَها وحقوقَها. فسبْحَان من جعل منافعَها نعمةً، ومضارَّها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسّمها بين مُلِذٍّ ومُؤلم، وبين مؤنِسٍ ومُوحش، وبين صَغيرٍ حقير وجليل كبير، وبين عدوٍّ يرصُدُك وبين عقيلٍ يحرسك، وبين مُسَالمٍ يَمْنَعُكَ، وبين مُعينٍ يعضُدك، وجعَل في الجميع تمامَ المصلحة، وباجتماعها تتمُّ النعمة، وفي بطلانِ واحدٍ منها بُطلانَ الجميع، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً، فإنّ الجميع إنَّما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضُمَّ إليهما، ولأنّ الكلَّ أبعاضٌ، ولأنّ كلَّ جُثَّةٍ فمن أجزاء، فإذا جوَّزتَ رفْعَ واحدٍ والآخرُ مثلُه في الوزن وله مثلُ علَّتِه وحظِّه ونصيبِه، فقد جوَّزْتَ رفعَ الجميع؛ لأنّه ليس الأولُ بأحقَّ من الثاني في الوقت الذي رجوتَ فيه إبطالَ الأوَّل، والثاني كذلك والثالث والرابع، حتَّى تأتيَ على الكلِّ وتستفرغ الجميع، كذلك الأمورُ المضمَّنة والأسباب المقيَّدة؛ ألا ترى أنَّ الجبلَ ليس بأدلَّ على اللّه تعالى مِنْ الحصاة، وليس الطاوسُ المستحسنُ بأدَلَّ على اللّه تعالى مِنْ الخِنزير المستقبح، والنارُ والثلج وإنْ اختلفا في جِهَة البرودة والسُّخونة، فإنَّهما لم يختلفا في جهة

البرهـــــــــــــــــــان والدَّلالـــــــــــــــــــــة.

وأظنُّك ممَّن يرى أنَّ الطاوسَ أكرمُ على اللّه تعالى من الغــراب، وأن التُّدْرُجَ أعزُّ على اللّه تعالى من الحِدَأةِ، وأنّ الغزالَ أحبُّ إلى اللّه تعالى من الذئب، فإنَّما هذه أمور فرّقها اللّه تعالى في عيـون الناس، وميَّزها في طبائع العباد، فجعَلَ بعضها بهـم أقــربَ شــبهاً، وجعل بعضَها إنسيّاً، وجعل بعضَها وحشيّاً، وبعضها غاذِيــاً، وبعضـها قـــاتلاً، وكـــذلك الـــدُّرَّة وَ الخَـــرَزة والتمـــرة والجَمـــرة. فلا تَــذْهَبْ إلــى مــا تريــك العيــنُ واذهَــبْ إلــى مــا يريــك العقــل.

الاعتماد على العقل دون الحواس وللأُمـور حكمـان: حكـم ظـاهرٌ للحواس، وحكم باطنٌ للعقول، والعقل هو الحجَّة، وقــد علمْنــا أنَّ خَزَنَة النارِ من الملائكة، ليسوا بدون خزَنَةِ الجنَّة؛ وأنَّ ملك الموت ليس بدُونِ ملَكِ السَّحاب، وإن أتانا بالغَيث وجلب الحيَاء؛ وجبريـلُ الذي يَنْزِل بالعـذاب، ليـسَ بـدونِ ميكائيـل الـذي ينـزِل بالرحمـة؛ وإنَّمــا الاختلاف فــي المطيــع والعاصــي، وفــي طبقــاتِ ذلــك ومواضعه، والاختلاف بين أصحابنا أنَّهم إذا اسـتووا فـي المعاصـي استَووا في العقاب، وإذا استَووا في الطاعة استووا فـي الثـواب،

وإذا استووا في عدم الطاعة والمعصية استووا في التفضل، هذا هو أصل المقالة، والقُطْب الذي تدورُ عليه الرحى.

التين والزيتون

وقد قال اللّه عزّ وجلَّ: "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" فزعم زَيدُ بنُ أسلم أنَّ التِّين دمشق، والزيتون فِلَسطين، وللغاليةِ في هذا تأويلٌ أرغبُ بالعِتْرة عنه وذكرِه، وقد أخرَجَ اللّه تبارك وتعالى الكلامَ مُخرَجَ القسم، وما تُعرَف دِمَشق إلاّ بدِمشق، ولا فِلَسطين إلاّ بفلسطين، فإن كنتَ إنَّما تقف من ذكرِ التين على مقدار طعمِ يابسِه ورَطْبه، وعلى الاكتنانِ بورَقِه وأغصانه، والوَقود بِعيدانه، وأنّه نافعٌ لصاحب السُّلِّ، وهو غذاءٌ قويٌّ ويصلُح في مواضعَ من الدواء، وفي الأضْمدةِ، وأنَّه ليس شيءٌ حلو إلاّ وهو ضارٌّ بالأسنانِ غيره، وأنَّه عند أهلِ الكتاب الشَّجرةُ التي أكَلَ منها آدمُ عليه السلام، وبورقها ستَرَ السّوءَة عند نزولِ العقوبة، وأنّ صاحبَ البواسيرِ يأكله ليُزْلِقَ عنه الثفل، ويسهلَ عليه مخرج الزِّبل؛ وتقف من الزيتون على زيتِه والاصطباح به، وعلى التأدُّم بهما والوَقود بشجرهما، وما أشبه ذلك من أمرهما - فقَدْ أسأتَ ظَنّاً

بالقرآن، وجهِلتَ فضلَ التأويل، وليس لهذا المقدارِ عظّمهما اللّـه عزّ وجلَّ، وأقسَمَ بهما ونوّه بذكرهما.

التأمل في جناح البعوضة

ولو وقفْتَ على جَناحِ بَعوضةٍ وُقوفَ معتبِر، وتأمَّلتَه تأمُّـلَ متفكِّـر بعد أن تكونَ ثاقبَ النَّظـرِ سـليمَ الآلـة، غوَّاصـاً علـى المعـاني، لا يعتريـك مـن الخـواطر إلاّ علـى حسـب صـحَّةِ عقلـك، ولا مـن الشواغل إلاّ ما زادَ في نشاطِك، لملأت ممَّا تُوجِـدك العِـبرةُ مـن غرائب الطوامير الطِّوال، والجلود الواسعةِ الكِبار، ولرَأيتَ أنَّ لـه من كثرة التصرُّف في الأعاجيب، ومن تقلُّبه في طبقات الحكمـة، ولرأَيتَ له من الغزْر والرَّيع، ومن الحَلب والدَّرِّ ولتَبجَّسَ عليك من كوامِنِ المعاني ودفائِنها، ومن خَفِيَّاتِ الحكم وينـابيعِ العلـم، مـا لا يشتدُّ معه تعجّبُك ممَّـن وقَـفَ علـى مـا فـي الـدِّيك مـن الخصالِ العجِيبة، وفي الكلبِ من الأمـور الغريبـة، ومـن أصـنافِ المنـافع، وفنون المرافق؛ وما فيهما من المِحَن الشِّداد، ومع ما أودِعـا مـن المعرفة، التي مَتى تجلَّت لـك تصـاغَرَ عنـدك كَبِيـرُ مـا تسـتعظم، وقلَّ في عينك كثير ما تسـتكثر، كأنَّـك تظـنُّ أنَّ شـيئاً وإنْ حسُـن

عندك في ثمنِه ومنظره، أنَّ الحكمةَ التي هي في خلْقه إنَّمـا هـي على مقدارِ ثمنه ومنظَره.

كلمات اللّه

وقد قال اللّه تعالى: "وَلَوْ أَنَّ مَـا فِـي الأَرْضِ مِـنْ شَـجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْـرُ يَمُـدُّهُ مِـنْ بَعْـدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُـرٍ مَـا نَفِـدَتْ كَلِمـاتُ اللّـهِ" والكلماتُ في هذا الموضع، ليس يُريد بها القولَ والكلامَ المؤلَّفَ من الحروف، وإنَّما يريد النِّعَم والأعاجيب، والصـفات ومـا أشـبه ذلك، فإنَّ كلاًّ من هذه الفنون لو وقَف عليه رجلٌ رقيقُ اللســان صـافي الـذهن، صـحيحُ الفِكْـر تـامُّ الأَدَاة، لمـا بَـرِح أن تحسـره المعـــــــــــاني وتَغْمـــــــــــــرَه الحِكَـــــــــــــم.

وقد قال المتكلمون والرؤساء والجِلَّةُ العُظماءُ في التمثيـل بيـن الملائكةِ والمؤمنين، وفي فـرقِ مـا بيـن الجـنِّ والإنـس، وطبـاعُ الجنِّ أبعـدُ مـن طبـاع الإنـس، ومـن طبـاعِ الـديك، ومـن طبـاع الكلب، وإنَّما ذهبوا إلى الطاعة والمعصية، ويخيَّـل إلـيَّ أنـك لـو كنـت سـمعتَهما يمثّلان مـا بيـن التُّـدْرُج والطـاوُس، لَمَـا اشـتدَّ تعجُّبُك، ونحن نرى أنَّ تمثيـلَ مـا بيـنَ خصـالِ الـذَّرَّة والحمامـة،

والفيل والبعير، والثَّعلبِ والذيب أعجَب، ولسـنا نعنـي أنَّ للـذَّرَّة ما للطاوس من حسنِ ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه، ولا أنَّ لها غَنـاءَ الفـرَس فـي الحـرب والـدَّفْعِ عـن الحريـم؛ لكنَّـا إذا أردنـا مواضعَ التدبير العجيبِ من الخلْـق الخسـيس، والحـسِّ اللطيـفِ من الشيء السخيف، والنَّظرِ في العـواقب مـن الخلـق الخـارج من حدود الإنس والجنِّ والملائكة، لم نـذهب إلـى ضِـخَم البـدَن وعِظَم الحجم، ولا إلى المنظر الحسَن ولا إلى كثرة الثمن، وفي القرد أعاجيبٌ وفي الدُّبِّ أعاجيب، وليس فيهما كـبير مَرْفِـقٍ إلاّ بقدْرِ ما تتكسَّب به أصـحاب القـردة، وإنمـا قصـدنا إلـى شـيئين يَشِيعُ القولُ فيهما، ويكثرُ الاعتبار ممَّا يستخرِج العلماءُ من خفِيّ أمرهما، ولو جمعْنا بين الدِّيك وبين بعضِ ما ذكرت، وبين الكلـب وبين بعض ما وصفت، لانقطع القولُ قبل أن يبلـغَ حـدَّ الموازنِـة والمقابلـــة.

وقد ذكرتَ أنَّ بعضَ ما دعاك إلى الإنكار عليهمـا والتعجُّـبِ مـن أمرهما، سقوطُ قدرِ الكلـب ونـذالتُه، وبَلَـهُ الـدِّيكِ وغبـاوتُه، وأنَّ الكلبَ لا بهيمةٌ تامَّة ولا سبعٌ تامٌّ، وما كان ليخرِجَه من شيءٍ من حدود الكلاب إلى حدود الناس، مقدارُ مـا هـو عليـه مـن الأُنـس

بهم، فقد يكون في الشيءِ بعضُ الشبه مِنْ شيء ولا يكون ذلك مُخرِجـــــاً لهمـــــا مـــــن أحكامِهمـــــا وحـــــدودِهما. تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما وقـد يشـبِّه الشـعراءُ والعلماءُ والبلغـاءُ الإنسـانَ بـالقمر والشـمس، والغيـثِ والبحـر، وبالأسد والسيف، وبالحيَّة وبالنَّجم، ولا يخرجـونه بهـذه المعـاني إلى حدِّ الإنسان، وإذا ذمُّوا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القِرد والحمار، وهو الثور، وهو التَّيس، وهو الذيب، وهو العقرب، وهــو الجُعَـل، وهـو القرنْبَـى؛ ثـم لا يُـدخِلون هـذه الأشـياءَ فـي حـدود الناس ولا أسمائِهم، ولا يُخرجون بذلك الإنسانَ إلى هذه الحـدودِ وهـذه الأسـماء، وسـمَّوا الجاريـةَ غـزالاً، وسـمَّوها أيضـاً خِشْـفاً، ومُهْرةً، وفاخِتةً، وحمامةً، وزهرةً، وقضيباً، وخيزرانـاً، علـى ذلـك المعنى، وصنَعوا مثـلَ ذلـك بـالبروج والكـواكب، فـذكَروا الأسـدَ والثور، والحَمَل والجدي، والعقربَ والحُـوت، وسـمَّوها بـالقوس والسُّنبلة والميزان، وغيرها، وقال في ذلك ابن عَسَلة الشيبانيّ:

فصَحَوتَ والنَّمَريُّ يحسَبُها عَمَّ السِّمَاكِ وخَالةَ النَّجْـمِ

ويُروى عن النبيِّ صلى الله عليه وسـلم أنـه قـال: نِعْمَـتِ العَمـة لَكُم النَّخلة خُلقت مِنْ فضلة طينةِ آدم وهذا الكلام صحيحُ المعنى،

لا يَعيبه إلاّ مَن لا يعرِف مجاز الكلام، وليس هذا ممَّا يطَّـرِد لنـا أن نقيسَه، وإنَّما نُقدِم على ما أقدَموا، ونُحجم عمّـا أحجمـوا، وننتهـي إلـــــــــــــــى حيـــــــــــــــثُ انتهـــــــــــــــوْا.

ونراهم يسمُّون الرجلَ جملاً ولا يسمُّونه بعيراً، ولا يسمُّون المرأةَ ناقة؛ ويسمُّون الرجلَ ثـوراً ولا يسـمُّون المـرأةَ بقـرةً، ويُسَـمُّونَ الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتاناً؛ ويسـمُّون المـرأة نعجـةً ولا يسمُّونها شاة، وهم لا يضعون نعجةً اسـماً مقطوعـاً، ولا يجعلـون ذلك علامةً مثلَ زيد وعمرو، ويسمُّون المرأة عنْزاً.

تسمية الإنسان بالعالم الأصغر

أوَ ما علمتَ أنّ الإنسـان الـذي خُلقـت السـمواتُ والأرضُ وَمَـا بَينَهما مِن أجْله كما قال عزَّ وجلَّ: "سَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّـمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَميعاً مِنْـهُ" إنَّمـا سَـمُّوه العـالَم الصـغير سـليلَ العالَم الكبير، لِمَا وجَدوا فيـه مـن جَمـع أشـكالِ مـا فـي العـالم الكبير، ووجدْنا له الحواسَّ الخمـسَ ووجـدُوا فيـه المحسوسـاتِ الخمس، ووجـدُوه يأكـل اللَّحـمَ والحـبَّ، ويجمـعُ بيـنَ مـا تقتـاته البهيمةُ والسبع، ووجَدوا فيه صَولةَ الجمل ووُثوبَ الأسـد، وغـدْرَ

الذئب، ورَوَغان الثعلب، وجُبْن الصِّفْرِد، وجَمْعَ الذَّرَّةِ، وصنْعةَ السُّرْفة وجُودَ الدِّيكِ، وإلفَ الكلب، واهتداءَ الحمام، وربَّما وجدوا فيه ممَّا في البهائم والسباع خُلُقَيْن أو ثلاثة، ولا يبلغُ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغَيرته، وصَولته وحِقدُه، وصبرُه على حَمْل الثِّقْل، ولا يلزَم شبهُ الذئبِ بقدْر ما يَتَهَيَّأُ فيه من مِثل غدْرِه ومكْرِه، واسترواحِه وتوحُّشه، وشدَّة نُكْره، كما أن الرجلَ يصيبُ الرأيَ الغامضَ المرَّةَ والمرَّتين والثَّلاثَ، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له داهيةٌ وذو نَكراء أو صاحبُ بَزْلاء، وكما يخطئ الرجل فيفحُش خَطَاؤه في المرَّة والمرَّتين والثلاث، فلا يبلغ الأمرُ به أن يقال له غبيٌّ وأبلهُ ومنقوص. وسمَّوه العالمَ الصغيرَ لأنَّهم وجدُوه يصوِّر كلَّ شيءٍ بيده، ويحكي كلَّ صوتٍ بِفَمه، وقالوا: ولأنَّ أعضاءَه مقسومةٌ على البروج الاثني عشر والنجومِ السبعة، وفيه الصفراء وهي من نِتاج النار، وفيه السوداء وهي من نِتاج الأرض، وفيه الدَّمُ وهو من نِتاج الهواء، وفيه البلغَمُ وهو من نِتاج الماء، وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة، فجعَلوه العالَمَ الصغير، إذ كانَ فيه جميعُ أجزائِه وأخلاطِهِ وطبائعه، ألا تَرَى أنَّ فيه طبائعَ الغضبِ

والرضَـا، وآلـة اليقيـن والشـكِّ، والاعتقـاد والوقـف وفيـه طبـائعُ الفِطنةِ والغَباوة، والسلامة والمكر، والنصـيحةِ والغِـشِّ، والوَفـاء والغـدر، والريـاء والإخلاص، والحـبّ والبُغْـض، والجِـدِّ والهـزْل، والبخْل والجُود، والاقتصادِ والسّرَف، والتواضـع والكـبر، والأُنـسِ والوحشـة، والفكـرة والإمهـال، والتمييـز والخبْـط، والجبْـن والشـجاعة، والحـزم والإضـاعة، والتبـذير والتقـتير، والتبـذل والتعزز، والادِّخار والتوكُّل، والقَناعة والحِرْصِ، والرغبـة والزُّهْـد، والسُّخْط والرِّضا، والصبر والجزَع، والـذِّكر والنسـيان، والخـوفِ والرجـاء، والطَّمَـعِ واليـأس، والتنـزُّه والطبَـع، والشـكِّ واليقيـن، والحياء والقِحَة، والكِتْمانِ والإشـاعة، والإقـرار والإنكـار، والعلـم والجهل، والظلم والإنصاف، والطلب والهَـرب، والحِقْـد وسـرْعة الرضا، والحِدَّةِ وبُعْـدِ الغَضـب، والسُّـرور والهـمّ، واللَّـذَّةِ والأَلَـم، والتأميلِ والتمنِّي، والإصرارِ والنَّدَم، والجِمَـاحِ والبَـدَوات، والعـيِّ والبلاغَـة، والنُّطْـق والخَـرَس، والتصـميمِ والتوقـف، والتغافُـلِ والتفـاطُن، والعفـوِ والمكافـأة، والاسـتطاعةِ والطبيعـة، ومـا لا يحصـى عـدده، ولا يُعـرَف حَـدُّه.

فـالكلبُ سـبع وإن كـانَ بالنـاس أنيسـاً، ولا تخرِجُـه الخصـلة

والخَصلتان ممَّا قاربَ بعضَ طبائِع النـاس، إِلـى أن يخرجَـه مـن الكَلْبيَّة، قال: وكـذلك الجميـع، وقـد عرَفـت شـبَه بـاطنِ الكلـب بباطن الإنسان، وشبَه ظاهِر القـرد بظـاهر الإنسـان: تـرى ذلـك في طَرْفِه وتغميضِ عينه، وفي ضِحْكه وفي حكـايته، وفـي كفِّـه وأصابِعه، وفي رفعِها ووضعِها، وكيـف يتنـاولُ بهـا، وكيـف يجهـز اللُّقمة إلى فيه وكيف يكسِر الجَوْزَ ويسـتخرج لبَّـه وكيـف يَلْقَـنُ كل مَا أُخِذَ به وأُعِيدَ عليه، وأنَّهُ من بين جميعِ الحيوان إذا سـقط في الماء غرِق مثلَ الإنسان، ومع اجتماعِ أسـبابِ المعرفـة فيـه يغرق، إلاّ أن يكتسـب معرفـةَ السـباحة، وإن كـان طبعُـه أوفـى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكلُّ، وكـلُّ شـيءٍ فهـو يسـبَح مـن جميع الحيوانات، ممَّا يوصف بالمعرفـة والفِطنـة، وممَّـا يوصَـفُ بالغَباوة والبَلادة؛ وليس يصير القردُ بذلك المقدار مـن المقارَبَـة إلـى أن يخـرُج مـن بعـض حـدود القـرود إلـى حـدود الإنسـان.

عود إلى الحوار في شأن الكلب والـديك وزعمـتَ أنَّ ممَّـا يمنـعُ من التمثيل بين الديك والكلب أنّـه حـارسٌ محـترسٌ منـه، وكـلُّ حـارسٍ مـن النـاس فهـو حـارسٌ غيـرُ مـأمونٍ تَبـدُّلُه.

ولقد سأل زيادٌ ليلةً من الليالي: مَنْ على شُرطتكم؟ قالوا: بَلْـج بنُ نُشْبَةَ الجُشَميّ، فقال:

مع السلطانِ يَسعى ومحتَرسٍ مِن مثلِه وهو حارس

ويقال: إن الشاعر قال هذا الشعرَ في الفلافس النَّهشَليّ، حين ولِيَ شُـرطةَ الحـارِث بـن عبـد اللّه فقال:

عليَّ اللومَ يا ابنةَ مـالـكٍ زماناً سادَ فيه الفُلافـسُ
مع السلطان يَسعَى ومُحتَرسٍ من مثلِه وهو حارسُ

وليس يُحكمَ لِصغار المضارِّ على كبارها بـل الحكـمُ للغـامر علـى المغمور والقاهِر على المقهور، ولو قد حكَينا ما ذكـر هـذا الشَّـيخُ مـن خِصـال الكلـب وذكَـرَ صاحبُه مـن خصـالِ الـديك، أيقنـتَ أنَّ العجَلــةَ مــن عمــل الشــيطان، وأنَّ العُجْــبَ بئــس الصــاحب.

وقلتَ: وما يبلغُ من قدْر الكلب ومِن مقدارِ الديك، أن يتفرَّغ لهما شيخان من جِلَّة المعتزِلة، وهم أشراف أهلِ الحكمة؛ فـأيُّ شـيءٍ بلغ، غفر اللّه تعالى لك، من قـدْرِ جـزءٍ لا يتجـزَّأ مـن رمْـل عالـج، والجزءِ الأقلِّ من أوَّل قطْـع الـذَّرَّة للمكـان السـحيق، والصـحيفة التي لا عمقَ لها، ولأيِّ شيء يُعنَوْن بذلك، وما يبلغ من ثمنِه وقـدْرِ حجْمه، حتَّى يتفرَّغَ للجدالِ فيه الشُّـيوخ الجِلَّـة، والكهـولُ العِلْيـة، وحتَّى يختاروا النَّظرَ فيه على التسبيح والتهليـل، وقـراءةِ القـرآن

وطولِ الانتصابِ في الصلاة؛ وحتَّى يزعم أهلُه أنَّه فوقَ الحجِّ والجهاد، وفوقَ كلِ برٍّ واجتهاد، فإنْ زعمتَ أنّ ذلك كلّه سواءٌ، طالت الخُصومةُ معَك، وشغلْتنا بهما عمّا هو أولى بِنا فيك، على أنَّك إذا عَممْتَ ذلك كلَّه بالذمِّ، وجَلَّلته بالعيب، صارت المصيبةُ فيك أجلَّ، والعزاءُ عنها أعسر، وإن زعمتَ أنَّ ذلك إنَّما جاز لأَنَّهم لم يذهبُوا إلى أثمان الأعيان في الأسواق، وإلى عظم الحجم، وإلى ما يروقُ العينَ ويلائِمُ النفس، وأنَّهم إنَّما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه، وإلى نتيجتِه، وما يتولَّد عنه من علم النِّهايات، ومن باب الكلِّ والبعْض، وكان ويكون، ومن باب ما يحيط به العلم أو ما يفضل عنه، ومن فَرقِ ما بين مذاهب الدُّهريَّة ومذاهب الموحِّدين، فإن كان هذا العذْرُ مقبولاً، وهذا الحكم صحيحاً، فكذلك نقول في الكلب، لأنَّ الكلبَ ليس له خطرٌ ثمين ولا قَدْر في الصدرِ جليل؛ لأَنَّه إن كان كلبَ صيد فديتُه أربعون دِرهماً، وإن كان كلب ضَرْعٍ فديتُه شاة، وإن كان كلبَ دارٍ فديتُه زِنبيلٌ من ترابٍ، حُقَّ على القاتل أَن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحبِ الدار أن يقبلَه، فهذا مقدارُ ظاهِر حاله ومُفتَّشِه، وكوامِنُ خِصاله، ودفائِنُ الحكمةِ فيه، والبرهاناتُ على عجيب تدبير الربِّ تعالى ذكرُه

فيه،على خلاف ذلك؛ فلذلك استجازُوا النَّظَر في شـأنه، والتمثيـلَ بينَه وبين نظيره، وتعلم أيضاً مع ذلك أنَ الكلبَ إذا كـانَ فيـه، مـع خُموله وسقوطِه، مِن عجيبِ التـدبير والنعمـةِ السـابغةِ والحكمـةِ البالغة، مثلُ هذا الإنسان الذي له خلق اللّه السمواتِ والأرض وما بينهما، أحقُّ بأنْ يُفكر فيه، ويُحْمَدَ اللّهُ تعالى على مـا أودَعَـه مـن الحكمـــــــــةِ العجيبــــــــــةِ، والنِّعمـــــــــة الســــــــــابغة.

وقلت: ولو كان بدلُ النظرِ فيهما النظرَ فـي التوحيـد، وفـي نفـي التشـبيه، وفـي الوعـد والوعيـد، وفـي التعـديل والتجـوير، وفـي تصـحيح الأخبـار، والتفضـيلِ بيـن علـم الطبـائع والاختيـار، لكـان أصــوبَ.

دفاع عن المتكلمين والعجبُ أنَّك عَمَدْتَ إلى رجالٍ لا صناعةَ لهـم ولا تجارةَ إلاَّ الدعاء إلى ما ذكـرت، والاحتجـاجُ لمـا وصـفت، وإلاَّ وضْعُ الكتبِ فيه والولايـةُ والعـداوةُ فيـه، ولا لهـمْ لَـذّةٌ ولا هَـمٌّ ولا مـذهبٌ ولا مجـازٌ إلا عليـهِ وإليـه؛ فحيـن أَرادُوا أن يُقَسِّـطُوا بيـنَ الجميعِ بالحِصص، ويَعْدِلوا بينَ الكلِّ بإعطاء كلِّ شيء نصيبه، حتَّى يقعَ التعديلُ شاملاً، والتقسيطُ جامعـاً، ويظهـرَ بـذلك الخفـيُّ مـن الحِكَـم، والمسـتورُ مـن التـدبير، اعترضْـتَ بـالتعنُّتِ والتعجُّـب،

وسطّرت الكلامَ، وأطلتَ الخطب، من غير أنْ يكون صـوَّبَ رأيَـكَ أديـــــــــــبٌ، وشـــــــــايَعَك حكيــــــــــم.

نسك طوائف من الناس وسأضرِب لك مثلاً قـد اسـتوجبتَ أغلـظَ منه، وتعرَّضتَ لأشدَّ منه ولكنَّا نستأنِي بك وننتَظِـرُ أوْبَتَـك، وَجَـدْنَا لجميعِ أهلِ النَّقص، ولأهلِ كلِّ صِنفٍ منهـم نُسْـكاً يعتمِـدون عليـه في الجَمَال، ويحتسِبون به في الطاعة وطلَب المثُوبة، ويفزَعــون إليه، على قدْرِ فسادِ الطِّباع، وضعفِ الأصـل، واضـطراب الفـرْع، مـع خبْـث المنشـأ، وقلَّـةِ التثبُّـتِ والتوقُّـفِ، ومـع كـثرة التقلُّــب والإقدام مَعَ أوّلِ خاطر: فنُسك المَريبِ المرتـابِ مـن المتكلِّميـن أنْ يتحلَّى برمْي الناسِ بالرِّيبة، ويتزيَّنَ بإضافةِ ما يجدُ فـي نفسـه إلى خَصمه، خوفاً من أن يكونَ قد فطِن له، فهو يستُرُ ذلك الــداءَ برمْــــــــــــيِ النــــــــــاس بــــــــــــه.

ونُسكُ الخارجيِّ الذي يتحلَّى به ويتزيَّا بجمـاله، إظهـارُ اسـتعظامِ المعاصي، ثم لا يَلتفِت إلى مجاوزَة المقدارِ وإلى ظُلْمِ العبـاد، ولا يقِف على أنَّ اللّه تعالى لا يحـبُّ أن يَظْلِـمَ أظلـمَ الظَّـالمين، وأنَّ في الحقِّ ما وسِعَ الجميع. ونسْك الخُراسانيِّ أن يُحجَّ ويَنَـام علـى قفاه، ويعقد الرِّياسة، ويتهيَّأ للشَّـهادة، ويبسُـطَ لسـانَه بالحِسْـبة،

وقد قالوا: إذا نَسَـك الشَّـريفُ تواضَـعَ، وإذا نسَـكَ الوضـيعُ تكبَّـر، وتفسيرُه قريبٌ واضح، ونُسْـك البَنَـوي والجنـديِّ طـرحُ الـديوانِ، والزِّرايـةُ علـى السُّـلطان، ونسـك دَهـاقِين السَّـوادِ تـركُ شُـرْب المطبوخ، ونُسْك الخَصِيِّ لُزُوم طَرَسُوس وإظهارُ مجاهَدَةِ الروم، ونُسك الرافضيِّ تركُ النبيذ، ونسك البستانيِّ تـركُ سَـرِقة الثَّمـر، ونُسْك المغنِّي الصَّلاةُ في الجماعة وكثرةُ التسبيح، والصلاةُ علـى النـــــبيِّ صـــــلى اللـــــــه عليـــــــه وســــــلم.

ونســـــك اليهـــــودِيِّ التشـــــدُّدُ فـــــي السَّـــــبْت وإقـــــامته.

والصوفيُّ المظهِرُ النُّسكَ مـن المسـلمين، إذا كـان فسـلاً يبغـض العمـل تطـرف وأظهـر تحريـمَ المكاسـب، وعـاد سـائلاً، وجعـل مســــألتَه وســــيلة إلــــى تعظيــــم النــــاسِ لــــه.

وإذا كـان النَّصـرانيُّ فسـلاً نـذْلاً مبغِضـاً للعمَـل، وترهَّـب ولَبِـس الصُّوف؛ لأنَّه واثقٌ أنَّه متى لبِس وتزيَّا بـذلك الـزِّيِّ وتحلَّـى بـذلك اللِّباس، وأظهر تلك السِّيما، أنَّه قد وجَبَ على أهل اليُسرِ والثَّروة منهم أن يعُولُوه ويَكْفُوه، ثمَّ لا يرضى بأنْ رَبحَ الكِفايةَ باطلاً حـتى اســـــــــــتطال بالمرتبـــــــــــة.

فإذا رمى المتكلِّمُ المريبُ أهلَ البراءة، ظـنَّ أنَّـه قـد حـوَّل ريبتَـه

إلى خَصمه، وحوَّل براءةَ خصمِه إليه، وإذا صار كلٌّ واحدٍ من هـذه الأصناف إلى ما ذكرنا، فقد بلغ الأمنيَّة، ووقَفَ على النِّهاية، فاحذَر أن تكونَ منهم واعلَمْ أنَّكَ قد أشبهتهم في هذا الوجه، وضـارعتَهم فـــي هـــذا المـــذهب.

ممـا قـدَّمْنَا ذكـرَه، وبينَـه وبيـنَ مـا ذكرنـا بعـضُ الفـرْق. يقال: أجرأ من الليث، وأجبَنُ من الصِّـفْرِد، وأسـخَى مِـنْ لافِظـة، وأصبرُ على الهُونِ من كَلب، وأحذر من عَقْعَق، وأَزهى مِن غراب، وأصنَع من سُرفَة وأظلم من حيَّة، وأغدَر من الـذئب، وأخبَـث مـن ذئِبِ الخَمَر وأشدُّ عداوةً مـن عقـرب، وأروغُ مـن ثعلـب، وأحمـقُ من حُبارى، وأهدى من قطاة، وأكذَبُ مِن فاختـة، وألأمُ مـن كلـبٍ على جيفة، وأجمَعُ من ذَرّة، وأضـلُّ مـن حِمـار أهلـي، وأعـقُّ مـن ضَبٍّ، وأبرُّ من هِرَّة، وأنْفَر من الظليم، وأضَلّ من وَرَل وأضلُّ مـن ضـــبٍّ، وأظلـــم مـــن الحيَّـــة.

فيعبِّرون عن هذه الأشياء بعبارةٍ كالعبارة عن الناس، في مواضـع الإحسان والإساءة، حتَّى كأنَّهم مـن الملـومِين والمشـكورين، ثـم يعبِّرون في هذا البابِ الآخَر بدونِ هـذا التعـبير، ويجعلـونَ خبَرهـم مقصوراً على ما في الخِلقة من الغريزة والقُوى فيقولون: أبصـرُ

من عُقاب، وأسمعُ من فرَس، وأطولُ ذماءً من ضبٍّ، وأصحُّ من الظليم.

والثاني يشْبِه العبارةَ عن الحمد والذمِّ، والأوَّل يُشبِه العبارةَ عن اللائمةِ والشكر، وإنَّما قلنا ذلك، لأنَّ كلّ مشكورٍ محمود، وليس كلُّ محمودٍ مشكوراً؛ وكلُّ ملومٍ مذموم وليس كلُّ مذمومٍ ملوماً، وقد يحمدون البَلدَةَ ويذمُّون الأخرى، وكذلك الطعام والشراب، وليس ذلك على جهة اللّوم ولا على جهة الشكر؛ لأنَّ الأجْر لا يقع إلاَّ على جهة التخيُّر والتكلُّف، وإلاَّ على ما لا يُنال إلاّ بالاستطاعة والأوَّلُ إنَّما يُنالُ بالخِلقة وبمقدارٍ من المعرفة، ولا يبلغ أنْ يسمَّى عقْلاً، كما أنّه ليس كلُّ قُوَّةٍ تسمَّى استطاعة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ما ذكر صاحبُ الديك من ذمِّ الكلابِ

وتعدد أصناف معانيها

وتعداد أصناف معايبها ومثالبها، مِن لؤمها وجبنها وضعْفها وشرَهها، وغدْرِها وبَذَائِها، وجهْلها وتسرُّعِها، ونتْنها وقذَرها، وما جاء في الآثار من النَّهْي عنِ اتخاذها وإمساكها، ومن الأَمْر بقتْلِها

وطردها، ومن كثرةِ جناياتها وقلَّة رَدِّها ومِن ضرب المثَل بلؤمهـا ونذالتها، وقبحِها وقبْحِ معاظلتِها وَمِن سماجة نُباحِها وكثرة أذاها، وتقـذُّر المسـلمين مـن دنوِّهـا، وأنّهـا تأكـل لحـومَ النـاسِ، وأنَّهـا كـالخلْق المركّــبِ والحيــوان الملفّــق: كالبغْــل فــي الــدوابِّ وكالراعِبيِّ فـي الحمـام، وأنّهـا لا سـبعٌ ولا بهيمـة، ولا إنسـيَّةٌ ولا جِنِّيَّة، وأنَّها من الحِنِّ دون الجِـنّ، وأنّهـا مطايـا الجِـنِّ ونـوعٌ مـن المِسْخ، وأنَّها تنبُش القبورَ وتأكُلُ المـوتى، وأنَّهـا يعتريهـا الكَلَـبُ مِن أكل لحـوم النـاس. فـإذا حكيْنَـا ذلـكَ حكَينـا قـولَ مـن عـدَّد محاسنَها، وصـنّف مناقبهـا، وأخـذْنا مِـنْ ذكـر أسـمائِها وأنسـابها وأعراقها، وتفدية الرجـال إيَّاهـا واسـتهتارهم بهـا، وذكـر كسْـبِها وحراستها، ووفائها وإلْفها وجميعِ منافعها، والمرافق الـتي فيهـا، وما أُودِعت مـن المعرِفـة الصـحيحةِ والفِطَـن العجيبـة والحـسِّ اللطيف والأدب المحمود، وذلك سِوى صِدق الاسـترواح وجَـودَةِ الشمِّ، وذِكْـر حفظهـا ونَفَاذهـا واهتـدائِها، وإثباتِهـا لصُـوَر أربابهـا وجيرانها، وصـبرِها، ومعرفتِهـا بحُقـوق الكـرام، وإهانتهـا اللئـام، وذكر صبْرها على الجفا، واحتمالها للجوع، وذكـر ذِمامهـا وشـدَّةِ مَنْعِهـا مَعَاقِـدَ الـذِّمَارِ منهـا، وذكـر يَقَظَتهـا وقِلَّـة غفلتهـا وبُعْـدِ

أصواتها، وكثرة نسْلها وسرعة قَبولها وإلقاحها وتصرُّفِ أرحامِهـا في ذلك، مع اختلاف طبـائِع ذكورهـا والـذكور مـن غيـر جنسـها، وكثرةِ أعمامِها وأخوالها، وتردُّدها في أصناف السِّـباع، وسـلامتها من أعراق البهائم، وذكر لَقَنها وحكايتها، وجـودة ثقافتِهـا ومَهْنِهـا وخِـدمتها، وجِـدِّها ولِعْبهـا وجميـعِ أمورهـا؛ بالأشـعارِ المشـهورة والأحاديث المأثورة، وبالكتُبِ المنَزَّلـة والأمثـالِ السـائرة، وعـن تجرِبةِ النَّاس لها وفِراستِهم فيها، ومـا عـايَنوا منهـا؛ وكيـف قـال أصـحابُ الفـأل فيهـا، وبإخبـار المتطيِّريـن عنهـا، وعـن أسـنانها ومنتهـى أعمارهـا وعـدد جرائهـا، ومـدَّةِ حملهـا، وعـن أسـمائها وألقابِها، وسِماتِها وشِياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعـن اللاتي لا تلقَنُ منها وعن أعراقِهـا والخـارجيِّ منهـا وعـن أصـول مواليـــــــــــدها ومخـــــــــــارج بلـــــــــــدانها.

وذكر صاحبُ الـديك مـا يحفـظ مـن أَكـلِ الكلابِ للحُـوم النَّـاس فقال: قال الجَارود بن أبي سَبْرَة في ذلك:

أنَّ اللّـهَ ربِّـي بَـحـوْلِـه ... أخزى ابنَ عَمْرَةَ مـالـكـا
كانَ عنه بالـمـغـيَّبِ ... صارَ في أرض الرُّصافةِ هالكا
الكلابُ العـاديـاتُ يَنُـشْـنَـه ... اجتَبْن مُسْوَدّاً مِنَ الليل حالـكـا

وقال نُفَيع بن صفَّار المحاربي من ولد مُحارِب بن خُصَفة في حرب قيسٍ وتغلب:

بَني جُشَم بن بكرٍ حَرْبُنا تَعادَلَ مَيلُ تَغلِب فاستَوَى
الكلابُ أنوفَهم وخُصَاهُمُ فَلتَبْكِ تَغْلِبُ للأُنوفِ وللخُصى

وقال أبو يعقوب الخُرْيمي، وهو إسحاق بن حسَّان بن قوهي في قتلَى حربٍ ببغداد:

رأيتَ الفتيانَ في باحة المعتْرَكِ مَعفورة مَنَاخِرُها
فتًى مانع حقِيقَتَه به في الوَغَى مَساعِرُها
عليه الكِلابُ تنهَشُه مخضوبةً من دمٍ أظافِرُها

وقال أبو الشمقمق وهو مَرْوان بن محمد، مولى مرْوان بنِ محمَّد، ويكنى أبا محمَّد:

الشاعرُ فَرْخ وجَدُوه بالأُبُلَّه
قَدْ تُلقِّي كامناً في جَوف جُلَّه
خَيَّطوها خشْيَةَ الكل بِ عليْهِ بِمِسَلَّه

وذُكر لي عن أبي بَكر الهُذَليِّ، قال: كنَّا عندَ الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سُود فجلس، فقال يا أبا سعيد: ما تقولُ في دم البراغيث يُصيب الثوب: أيصلَّى فيه؟ فقال: يا عجباً ممَّن يلَغ في دماءِ المسلمين كأنَّه كلبٌ، ثم يسألُ عن دم البراغيث فقام وكيعٌ يتخلَّج في مِشيتِه كتخلُّج المجنون، فقال الحسن: إنَّ للّه في كلِّ عضوٍ منه نعمةً فيستعين بها على المعصية، اللَّهمَّ لا تجعلْنا ممَّن يتقوَّى بنعمتِك على معصيتك.

ما أضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة وقال صاحب الديك: أشياءُ مِنَ الحيوانِ تُضافُ إلى نتْنِ الجُلُود وخُبث الرائِحة، كريح أبْدان الحيَّات، وكنتْن التُّيوس وصُنانِ عرَقها، وكنتن جِلدِ الكلاب إذا أصابه مطر، وضروبٌ من النَّتن في سوى ذلك، نحنُ ذاكروها إن شاء اللّه تعالى.

وقال رَوح بن زنباع الجُذَاميّ في امرأته، وضرب بالكلب المثل:

الكرائمِ معروفٌ لَهُ أَرَجٌ وريحُها ريحُ كلْبٍ مَسَّهُ مَطَرُ

قال: وكانت امرأةُ رَوح بن زِنباع أمَّ جعفر بنتَ النُّعمان بن بشير، وكان عبدُ الملك زوَّجه إيّاها، وقال: إنَّها جاريةٌ حسناء، فاصبرْ على بَذَاءِ لسانِها.

وقال الآخر:

مَجْروبٍ وريح جُلَّه		وريح كلبٍ في غَدَاةٍ طَلّهْ

وأنشد أبو زيد في ذلك:

رِيحَهُمُ من خُبْثِ طُعْمَتِهِمْ		الكلاب إذا ما بلّها المطر

ومما ذُكر به الكلبُ في أكله العَذِرة، قولُ الراجزَ:

من كلبِ على عِقْيِ صَبِي

وقال مثل ذلك حَنْظَلة بن عَرَادة في ذكره لابنِه السَّرَنْدَى:

للسَّرَنْدَى أطالَ اللّـهُ أيْمَـتَـهُ أباه بقفـر الـبِيد وادَّلـجـا

خَبيثٌ يُعاطي الكَلْبَ طُعْمَـتَـه		رأى غفلةً من جـارِهِ ولـجـا

وهو مثلُ الفَـرْخ أَصْـرُبُـهُ		والكلبُ يلحَسُ من تحتِ استِهِ الرَّدَجا

يقال للذي يخرُج من بطن الصبيِّ حين يخرُج من بطـن أمـه عِقـي بكسـر العيـن، ويقـال عقَـى الصبي يعِقي عَقْياً، فإذا شُدَّ بطنُه للسِّمن قيل قد ضُـرِبَ ليسـمَن، والعِقـي وهـو العَقْيـة الغيبـة، وإيَّاه عنَى ابنُ عمر حين قيل له: هلاَّ بايعت أخاك ابن الزُّبير؟ فقال: إنَّ أخي وضَعَ يده في عَقْيَـةٍ ودعـا إلـى البَيعـة، إنِّـي لا أنـزَع يَـدِي مِـن جماعـةٍ وأضـعُها فـي فُرقـة. وفـي الحـديث المرفـوع: الراجـعُ فـي هِبَتِـه كـالرَّاجِع فـي قَيئـه، وهـذا المثـلُ فـي الكلـب. ويقالُ: أبخَلُ من كلبٍ على جِيفة، وقال بعضُهم في الكلب: الجِيفة أحبُّ إليه من اللّحم الغريض، ويأكل العَذِرة ويرجِع في قيئه، ويشغَر ببَوله فيصير في جوفِ فيه وأنفه، ويحذفه تِلقاءَ خَيشومه. وقال صاحب الكلب: إنْ كنتُم إنَّما تستسقطون الكلب وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجيفةُ أنتـنُ من العذرة، والعَذرة شرٌ من القيء، والجيفة أحـبُّ إلـى أشـراف السـباع ورؤسـائها مـن اللحـم العـبيط الغريـض الغـضِّ.

مأكل السبع والأسَد سَيِّد السباع، وهو يأكل الجِيفةَ، ولا يعرِض لشرائع الوحش وافتراس البهائم، ولا للسابلة من الناس، ما وَجَدَ في فريسته فَضْلة، ويبدأ بعدَشُرْب الـدَّم فيبقُـر بطنَـه ويأكـل مـا فيـه مـن الغثيثـة والثفـل والحَشْـوة والزِّبـل، وهـو يرجـع فـي قيئـه، وعنـه وِرث السِّـنَّور ذلـك. ما قيل في السبع من الأمثال وهو المضروبُ به المثلُ في النَّجدة والبسالة، وفي شِـدَّة الإقـدام والصَّولة، فيقال: ما هو إلاّ الأسد على براثنه وهو أشدُّ من الأسـد وهـو أجـرَأ مـن الليـث العـادي وفلان أسدُ البلاد وهو الأسد الأسود، وقيل لحمزة بن عبد المطَّلـب أسـدُ اللّـه، فكذَاك مـن نُبْـل

الأسد أنَّه اشتُقَّ لحمزة بن عبد المطَّلب من اسمه، ويقال للملك أَصْيَد إذا أرادوا أن يصِفوه بالكِبْر وبقلَّةِ الالتفات، وبأنَّ أنفَه فيه أسلوب ولأنَّ الأسد يَلتفت معاً لأنَّ عنقه من عظم واحد، وقال حاتم:

مَطَرَ السماءُ عليكُمُ ورفعتَ رأسَك مثلَ رأسِ الأصْيَدِ

وقال الآخر:

يَذُودونَ كلباً بالرِّماحِ وطَيِّئاً والصِّيدَ النواظرِ من بَكر

وقال الآخر :

لي بها من أبٍ أصْيَدٍ نَمَاه أبٌ ما جدٌ أصيَدُ

وبعدُ فإنّ الذي يأكل الجِيفةَ لم يبعُد من طبعِ كثيرٍ من الناس؛ لأنَّ من الناس من يشتهي اللحمَ الغابَّ، ومنهم من يشتهي النَّمكْسُود، وَلَيْسَ بَيْنَ النَّمَكْسُودِ، وبين المصلوب اليابس كبيرُ فرق، وإنَّما يذبحون الدِّيَكَةَ والْبَطَّ والدَّجاج والدُّرّاج من أوَّلِ الليل، ليسترخيَ لحمُها، وذلك أول التَّجيف.

فالأسد أجمعُ لهذه الخصال من الكلب، فهلاَّ ذكرتمْ بذلك الأسد وهو أنبَهُ ذِكراً وأبعدُ صيتاً. وأمَّا ما ذكرتم من نَتْن الجِلد ومن استنشاق البول، فإنَّ للتيسِ في ذلك ما ليس للكلب، وقد شاركه في الحذْفِ ببوله تِلقاءَ أنفه، وباينَه بشدَّةِ الصُّنان؛ فإنَّ الأمثالَ لَه أكثرُ ذِكراً، وفي العنز أيضاً عيوب.

وفي توجيه التيس ببوله إلى حاقِّ خَيشومه قال الشاعر لبعض من يهجُوه:

يَزِيدَ كي تَزِيدَ فلم تَزِدْ فعادَ لك المُسْمِي فأسْمَاك بالقحر
القَحْرُ إلاَّ التيسُ يَعْتِكفيمذي في لَبَانٍ وفي نحر

وقال آخر في مثل ذلك:

بنُ حَيَّانَ بن لؤم عَتُودٌ في مفارِقِه يَبولُ
أَنِّي أشافِهُهُ لشالت نَعامَتُه ويفهم ما يقول

وبعد: فما يُعلَمَ من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلاَّ أقبح.

وقال ابن أحْمَرَ الباهليُّ في ذلك:

وجَدْنا بَني سَهْمٍ وجاملـهكلها العنز تعطِفُ روْقَيها وتَرْتَضِعُ

وقلتم: هَجَا ابْنُ غادية السلمي بعضَ الكِرام، حينَ عُزِلَ عن يَنْبُع، فقال لمن ظنَّ أنَّه إنَّما عُـزِلَ لمكانه:

مُرتَحَلاً فظهرُك منهمُ دَبِرُ الحراقفِ والفَقَارِ مُوقَّعُ
كالكلبِ يَتْبَعُ خانِقِيهِ وينتحـي نحوَ الذين بهم يَعِزُّ ويمـنـعُ

وقال ابن هَرْمة الفِهريّ:

عادَت لذِي يمنٍ رؤوسـاً ولا ضَرَّت بفُرْقتها نِـزارَا
السَّوْءِ تَنْطَحَ مَنْ خَلاهَا وتَرْأَمُ مَنْ يُجِدُّ لها الشِّفـارَا

وما نعلم الرُّجوعَ في الجِرَّة، وإعادةَ الفرثِ إلى الفـم ليُستقصَـى مضغُه إلاَّ أسـمجَ وأقـذَرَ مـن الرُّجوعِ في القَيْءِ، وقد اختار اللّه عَزّ وجلَّ تلك الطبيعةَ للأنعام، وجعل الناسَ ليسوا لشيءٍ مـن اللُّحمان أشدَّ أكلاً ولا أشدَّ عَجباً بِهِ منكم، ولا أصلحَ لأبدانهم ولا أغْذَى لهم من لُحُوم هـذه الأنعـام أفتائِهَـا ومَسَـانِّهَا.

وقال صاحبُ الديك: ما يشبه عَوْدُ الماشيةِ في الجِـرَّة، ورجوعُهـا فـي الفـرث تطحَنُـه وتُسـيغه، الرجُوعَ في القيء، وقد زعمتم أنَّ جِرَّةَ البعيرِ أنتنُ مِن قَيءِ الكلاب لطول غُبُوبها فـي الجـوف، وانقلابها إلى طباع الزِّبل، وأنَّها أنتن من الثلط، وإنَّما مثـل الجِـرَّة مثـل الرِّيـق الـذي ذكـره ابـنُ أحمر فقال:

الثناءُ وأجْدِرْ أن أُصاحبه يدوِّمُ رِيقَ الطَّامِعِ الأَمَلُ

فإنَّما مَثَلُ القَيءِ مَثَلُ العَذِرَة؛ لأنَّ الرِّيق الذي زعمتم، ما دامَ في فم صاحبه، ألَذُّ من السـلوى، وأمتعُ من النسيم، وأحسنُ موقعاً من الماء البارد من العطاش المسهوم، والريـقُ كـذلك مـا لـم يزايِل موضعَه، ومـتى زايـل فَـمَ صـاحبِه إلـى بعـض جِلْـده اشـتدّ نتْنـه وعـادَ فـي سـبيل القيء. فالرِّيق والجِرَّةُ في سبيلٍ واحد، كما أنَّ القيء والعَذِرة في سـبيل واحـد، ولـو أن الكلـبَ قَلَسَ حتَّى يمتلئ منه فمه، ثم رجع فيه من غير مباينةٍ له، لكان في ذلك أحقَّ بالنظافة من الأنعام في جِرَّتها، وحشـيِّها وأهليِّهـا، وإنَّ الأرانِـبَ لَتَحِيـضُ حيضـاً نَتِنـاً، فمـا عـاف لحمَهَـا أصـحابُ التَّقَـذُّرِ لمشـاركَتِها الأنعـامَ فـي الجِـرَّة.

فقال صاحب الكلب: أمَّا ما عبتموه من أكْلِ العَذِرة، فإنَّ ذلك عامٌّ في الماشـيةِ المتخيَّـرِ لحمُهـا على اللُّحْمان، لأنَّ الإبل والشياه كلّها جَلاّلة وهُنَّ على يابسِ ما يخرُج من الناسِ أحـرَصُ؛ وعلـى

أنّها إذَا تعوَّدت أكل ما قد جفَّ ظاهرُه وداخلُه رطبٌ، رَجَع أمرُها إلى ما عليه الكلب، ثم الـدَّجاج لا تَرْضَى بالعَذِرة، وبما يَبْقَى من الحبوبِ التي لم يأتِ عليهـا الاسـتمراء والهضْـم، حتَّـى تلتمِـس الديدانَ التي فيها، فتجمع نوعين من العذرة لأنها إذا أكلت ديدان العَذِرَةِ فقد أتَتْ علـى النَّـوْعين جميعاً، ولذلك قال عبد الرحمن بن الحَكَـم فـي هجـائِه الأنصـار بخـبيث الطعـام، فضـرب المثـلَ بالدَّجاج من بين جميع الحيوان، وترَكَ ذِكر الكلاب وهي له مُعْرِضة فقال:

وللأَنْصَارُ آكَلُ في قُـرَاهـا   لخُبْثِ الأَطْعِمَاتِ مِنَ الدَّجَاجِ

ولو قال:

وللأَنْصَارُ آكَلُ في قُـرَاهـا   لِخُبْثِ الأَطْعِمَاتِ مِنَ الْكِلابِ

لكـان الشِّـعْر صـحيحاً مُرضـياً.

وعلـى أنَّ الكلابَ مـتى شـبِعت، لـم تعـرض للعَـذِرة، والأنعـامُ الجلاَّلَةُ وكذلك الحافِر، قد جعلـت ذلـك كـالحَمْضِ إذا كـانت لهـا خَلَّةٌ؛ فهي مَرَّة تتغذَّى بـه ومـرة تتحمَّـض، وقـد جـاء فـي لحُـوم الجَلاَّلـة مـا جـاء.

رغبـة الملـوك والأشـراف فـي الـدجاج

وملوكُنا وأهلُ العيـشِ مِنَّـا، لا يرغبـون فـي شـيءٍ مـن اللُّحمـان رغبَتَهم في الدَّجاج، وهم يقدِّمونها على البطِّ والنواهض، والقَبَـجِ والدُّرَّاج، نعم وعلى الجِداء والأَعْنُـقِ الحُمْـرِ مـن بَنَـاتِ الصَّـفَايا، وهم يعرفُون طبعها وسوء قُوتِها، وهم مع ذلك يأكلون الرَّواعِـيَ كمـا يـأكُلون المسـمَّنات.

الشـبوط أجـود السـمك وأطيـبُ مـا فـي الأنهـار مـن السـمك،

وأحسنُها قُدوداً وخَرْطاً، وأسبطُها سُبُوطاً، وأرفعُها ثمناً وأكثرُها تصرُّفاً في المالح والطريّ، وفي القَرِيسِ والنَّشوطِ الشَّبُّوطُ، وليس في الماء سمكة رفيعةُ الذكر ولا ذاتَ خمول، إلاَّ وهي أحرص على أكْل العَذِرة منها، وإنّها في ذلك لأَشدُّ طلباً لها من الخِنزير في البرِّ، والجِرِّيِّ في البحر.

لحم الخنزير وقد عَلم الناسُ كيفَ استطابةُ أكلِ لحُومِ الخنازير، وأكلُ الخنازيرِ لها، وكيف كانت الأَكاسرة والقياصرةُ يقدِّمونها ويفضِّلونها، ولولا التعبُّدُ لجَرَى عندنا مَجْرَاه عندَ غيرِنا.

وقد علم النَّاسُ كيف استطابةُ أكل الجِرِّيِّ لأذنابها.

ما قيل في الجري وفي الجِرّيِّ قال أبو كَلْدة: هو أُدْم العُميان، وجيِّدٌ في الكَوْشَان ودواءٌ للكليتين، وصالحٌ لوجَع الظهر وعَجْبِ الذَّنب، وخِلافٌ على اليهود، وغيظٌ على الروافض؛ وفي أكله إحياءٌ لبعض السُّنن، وإماتةُ بعضِ البِدَع، ولم يُفْلَجْ عليهِ مُكثِرٌ منه قطُّ، وهو محنةٌ بين المبتدِع والسُّنِّي، هلك فيه فِئَتَانِ مذْ كانت الدنيا: محلِّلٌ ومحرِّم.

وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجِلدِ، ناقص الدّماغِ، يلتهم العَذِرة ويأكل الجرذان صحاحاً والفأرَ، وزَهِمٌ لا يُستَطاعُ

أكلُه إلاّ محسِيّاً ولا يتصرَّفُ تصرُّفَ السمك، وقد وقع عليه اســم المِسْخ، لا يَطِيب مملوحاً ولا ممقوراً، ولا يؤكـل كبابـاً، ولا يُختـارُ مطبوخـــــــــاً، ويُرمَـــــــــى كلُّـــــــــه إلاَّ ذنَبـــــــــه.

والأصناف التي تَعرض للعَـذِرة كـثيرة، وقـد ذكرنـا الجلاَّلاَتِ مـن الأنعامِ والجِرِّيِّ والشَّبُّوطِ من السـمك، ويعـرِض لهـا مـن الطيـر الـــــــــدَّجاجُ والرَّخَـــــــــمُ والهَداهِـــــــــد.

الأنوق وما سمي بهذا الاسم وقد بلغ من شَـهوة الرَّخَمَـة لـذلك، أنْ سمَّوها الأنوق، حتى سـمَّوا كـلَّ شـيءٍ مـن الحيـوان يعـرِض للعذِرة بأنوق، وهو قول الشاعر:

إذَا أضحى تَدَرَّى واكتحـل لجارتَيه ثـم ولَّـى فـنـثـلْ
الأَنُوقَينِ القَرَنْبَى والجُعَل

ما قيل من الشعر في الجُعَل

ولشدَّة طلب الجعل لذلك قال الشاعر:

في مجلس الأقوام يَربَؤُهم شُرَطيٌّ بَاتَ في حَـرَسِ

وكذلك قال الآخر:

أتَوه بـطـعـامٍ وأكَـلْ يعشِّي وَحْدَه ألفَيْ جُعَل

هـذا الـبيتُ يـدلُّ علـى عِظَـمٍ مقـدار النَّجْـو، فهجـاه بـذلك، وعلـى أنَّ الجُعَـل يقتـات البَـراز.

وفي مثل ذلك يقول ابن عَبْدَل - إن كان قاله - وإنما قلت هذا لأنَّ الشـعر يَرتفِـع عنـه، والشـعر قوله:

جارُ الخنزيرةِ المرضعُ الغرثى إذا ما غدا أبـو كـلـثـومِ
قد أصابَ عـنـد صـديقٍ من ثَـريدٍ مـلـبَّـقٍ مـأدُوم
أنحى بجَعره حاجبَ الـشـمفألقَى كالمِعْلَفِ المَـهْـدُوم
بضَريطٍ ترى الخنـازير مـنـه عامداتٍ لتـلِّـهِ الـمـركـومِ

وقال الراجز في مثل ذلك:

ثَارِدُهُ وصَـوْمَـعَـا ثُمَّتَ أَلبَانَ البَخاتِي جَعْجَعَـا
العَوْدِ ابْتَغَى أنْ يَنْجَعا ثُمَّتَ خوّى بارِكاً واسْتَرْجَعا
جاثِمٍ يُحْسَبُ كلباً أبقعا

وفي طلب الجُعَل للزِّبْلِ قال الراجز وهو أبو الغُصْن الأسَدي:

تلاَقي طَلَحَاتُ الحرجـه من كل ذات بُخْنقٍ غَمَلَّجـه
لها بَيْنَ الحـلال أَرَجَـه الضُّرَاطِ والفُسَاءِ السمجه
قاعِـدَةً مـنـشـجـه تعطيه عنها جعَلاً مُدحرجَـه

وقال يحيى الأغرّ: تقول العرب سَدكَ به جُعَله، وقال الشاعر:

أتيتُ سُليمَى شَبَّ لي جُعَـلُ إنَّ الشقيَّ الذي يُغْرَى به الجُعَلُ

يضرب هذا المثلُ للرَّجـل إذا لَصِـقَ بـه مـن يكـره، وإذا كـان لا يزال يراه وهو يهرُب منه، قال يحيى: وكان أصلُه ملازمةَ الجُعَـل لمن بات في الصحراء، فكلَّما قام لحاجـةٍ تبِعـه؛ لأنَّـه عنـده أنَّـه يريـد الغـائط.

القرنبى وفي القَرَنْبَى يقول ابنُ مقبل:

أطرُق الجَاراتِ بِاللَّيل قابعاً القَرَنْبَى أخْلَفَتْه مجاعره

والقبوع: الاجتماع والتقبض، والقرَنْبى: دويّبَّةٌ فوق الخُنْفَسَاء ودونَ الجعل، وهو والجعـل يتْبعـان الرَّجـلَ إلـى الغـائط.

الهدهد وخبث ريحه ومن الطَّير الذي يُضارِع الرَّخمة في ذلك الهدهدُ، منتنُ البَدَن وإن لـم تجـدْه ملطخاً بشيءٍ من العَذِرة؛ لأنَّهُ يبني بيته ويصنع أُفحوصَه من الزِّبل، وليـس اقتيـاتُه منـه إلاَّ علـى

قدْر رغبتِه وحاجته في ألاّ يتَّخذ بيتاً ولا أُفحوصاً إلاّ منه، فخامَرَه ذلك النَّتنُ فَعَلِق ببدنه وجرى في أعــــراق أبـــــويه؛ إذ كــــان هـــــذا الصـــــنيع عامّـــــاً فـــــي جنســـــه. وتعتري هذه الشَّهْوةُ الذِّبان، حتَّى إنَّها لـو رأتْ عسـلاً وقـذَراً، لكـانت إلـى القـذَر أسـرعَ، وقـال الشاعر:

خَلْفَ وَجْهٍ قَدْ أُطِيلَ كـأنَّـه مالِكٍ يُقْصِي الهُمومَ عَلَى بَثْقِ
وأعظمُ زهواً من ذُبابٍ على عَرْقِ وأبخَلُ من كَلْبٍ عَقُور على

ويزعمون أَنَّ الزُّنبورَ لهِجٌ بصيد الذِّبان، ولا يكاد يصيده إلاَّ وهو ساقطٌ على عذرة لفَرْط شَـهْوتِه لها ولاستفراغها، فيعرِف الزُّنبور ذلك، فيجعل غَفلتَه فُرصة ونُهْزة، قالوا: وإنَّما قلنا ذلك لأنَّـا لـم نجِـــدْه يـــرومُ صـــيدَه وهـــو ســـاقِطٌ علـــى ثمـــرةٍ، فمـــا دونهـــا فـــي الحلاوة. شعر في الهجاء وقال أبو الشَّمقمق في ذلك:

الطّريقَ الطَّرِيقَ جـاءكُـم الأحمقُ رأس الأَنتـانِ والـقَـذِره
عمِّ الحمارِ في صورةِ وخالُ الجاموسِ والبـقَـره
رُويداً يريد حَلْـقـتـكـمكمشي خِـنـزيرةٍ إلـى عَـذِره

وقال حَمَّادُ عَجْرَد في بشَّارِ بْن بُرْدٍ العُقَيليّ:

صَوَّرَ اللّه شِبْـهـاً لَـه مِنْ كلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِهِ صَوَّرا
بِالخِنزيرِ وجـهـاً ولا بالكلب أعراقاً ولا مَكْسِـرا
رأينَـا أحـداً مـثـلـه أنجَسَ أو أطْفَسَ أو أقـذرا
طُلِيتْ جِلدتُه عنبراً لنتَّنت جِلْـدتُـه الـعَـنْـبـرا
طُلِيت مِسكـاً ذَكِـيّاً إذَنْ تَحَوَّلَ المِسْكُ علـيه خِـرَا

وقال أبو نُواس في هِجَاء جَعْفرِ بْنِ يحيى بن خالد البرمَكيّ:

مدحتُ فتًى مـن خِـرَأليس جَزَائي أن اعْطَى الخِرَا

وقال أعرابيٌّ يهجو رجلاً يقال له جُلمود بن أوس، كان مُنتنَ العرق:

إذا مـا عـارضـي تـألَّـقوبَرَقـا عَـدت حـافـتـــه وَبـــرَقـــا
أهلـكـتُ جُـلـمـودَ بـنَ أوس كانَ لـحـمـقـاءَ فـصـارَ أَحـمَـقَـا

شـيءٍ عَـرَقـاً وخِـرَقَــا

حَمَّادُ عَجْرَدٍ في بشَّار:

بُرْدٍ اخْسَأ إليك فمثلُ ال كلبِ فـي الـخـلْـق أَنْـتَ لا الإنْـسَـانِ

لَـعَـمْـري لأَنْـتَ شَـرٌّ مـن بِ وأولَـى مِـنْـه بـكــلِّ هَـــوَانِ

الـخِـنْـزِيرِ أطـيَبُ مِـنْ حِكَ يا ابْـنَ الـطَّـيان ذي الـتُّـبَّـــانِ

بعض الشعراء في عبد عُمير:

ابنُ عُميرٍ غَزْوةً تركَتْ له ثَـنـاءَ كَـرِيحِ الـجَـوْرَبِ الـمـتـخـرقِ

وقال حمَّادُ عَجْرَدٍ في بشَّار:

لشَقِيِّ الجَدِّ فـي رَمْـسِـه ومَن يفِرُّ الناسُ من رِجْـسِـه

بَـشَّـارِ بْـنِ بُـردٍ ولا تَحْفِل برغم القرد أو تَعـسـه

بالـلَّـيْثِ اغـتـرارٌ بـه فَمَا الَّذِي أدناك مِـن مَـسِّـهِ

استِها فاصبِرْ على ضَغْمةٍ بنَابِـهِ يا قِـردُ أَوْ ضِـرْسِـهِ

أخبثُ مـن لـيلِـه ويومُه أخبثُ من أمـسِـهِ

بالمُقْلِعِ عـن غَـيِّه حتى يُدلَّى القِردُ في رَمْسِه

خَلقَ اللّه شبـيهـاً لـه جِنِّهِ طُرّاً ومن إنْسِـهِ

ما الخِنزيرُ في نَتْنِـه رُبْعه بالعُشْر أو خمْسِهِ

ريحُه أطيبُ من ريحـه ومسُّه أليَنُ مِـن مـسِّـهِ

أحسنُ من وَجـهِـه ونفسُه أنبَلُ من نـفـسـهِ

أكرمُ مـن عُـودِه وجِنسُه أكرمُ من جِنـسـهِ

وأنا حفظك اللّه تعالى أستظرِف وضـعَه الخنزيـرَ بهـذا المكـان

وفـي هـذا الموضـع، حيـن يقـول: وعـودُه أكْـرَمُ مـن عُــودِه.

وأَيُّ عودٍ للخنزير؟ قَبَحـه اللّـه تعـالى، وقبـح مـن يشـتهي أكلـه،

وقال حمَّادُ عجرد في بشَّارِ بن بُرد:

ابنَ بُـردٍ رأى رُؤيَا فـأوَّلَـهَا مَـشُـورةِ إنـسـانٍ ولا أَثَـرِ
العَمَى نِـعـمةً لـلّـه سـابـغة عليه، إذ كانَ مكفوفاً عن الـنَّـظـرِ
لو لَمْ أكُنْ أعمَى لكنـتُ كان بُردٌ أَبِي في الضِّيقِ والعُسُـرِ
نفسيَ بالـتـطـيين مـجـتـهِـداً أجيراً وإمَّـا غـيرَ مُـؤتَـجَـرِ
إنْ أنا لم أقنَعْ بـفـعـلِ قَصَّابَ شاءٍ شَقِيَّ الـجَـدِّ أو بَـقَـرِ
كإخوتي دائبـاً أشـقَـى شـقـاءَهُـمُ في الحرِّ والبردِ والإدلاجِ وَ الْبُـكَـرِ
كفاني العَمَى من كلِّ مَـكْـسَـبَـةٍ والرِّزقُ يأتِي بأسبـابٍ مـن الْـقَـدَرِ
فصرتُ ذا نَشَبٍ من غير ما إلاَّ بمَسْألتي إذ كنت فـي صِـغَـرِي
شـيـئاً إلـى شـيءٍ فـأذخـره أجمِّع من تمـر ومـن كِـسَـرِ
كان يعرفُني لو لـم أكـن كان يبذُل لي شيئاً سِوى الحَـجَـرِ
له لا هَـداه الـلّـهُ مِـن غُرَّةٌ تُربِـي عـلـى الـغُـرَرِ
فطِنتَ إلـى شـيءٍ تـعـيش ابنَ الخبيثة قد أدقَقْتَ في النـظـرِ
التي نَشَزَت عن شيخ صِبْيَتـهـا لأَير ثوبانَ ذي الهامات والـعُـجَـرِ
يكفُّكَ عن شَتْمي ومـنـقَـصَـتـي في حِرامِّك من نَتْـن ومـن دَفَـرِ
عنها عُـقَـيلٌ وهـي فسل أسيداً وسل عنـهـا أبـا

صادقة زُفَرِ
أمِّ الظباء المستطبِّ اللَّوَى، لستَ مولى الغُرِّ من مُضَرَ
أنتَ كالكلب ذُلاًّ أو أذلُّ نَذَالةِ النفس كالخنزيرِ واليَعَرِ
كالقردِ في تشويه منظرِه صورةُ القرد أبهى منك في الصُّوَرِ

ووصف ابن كريمة حشًا له، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه فقال:

كَنِيفٌ بِحَمْدِ اللّه يطرقني أرواح وادي خبال غير فَتَّار
بدائعُ نَتْن ليس يَعرِفها من البَرِيَّةِ إلاَّ خَازِن النَّارِ
أتانى دَخِيلٌ زَادَنِي بِدَعاً كَأَنَّهُ لَهِجٌ عَمْداً بإضْرَارِي
اجتوانِي له الخُلاَّنُ كلُّهُم وباعَ مَسْكَنَه مِن قُرْبه جاري
أرادَ من البِرْسَامِ أقتلَهُ الصُّدَاعِ فمرْه يدخُلَنْ داري
استكثَفَ النَّتنُ في أنفي لكثرتِه فليس يوجِدُنيه غيرُ إضماري

ثروة المحلول من الشعر

وقيل للمحلول: ويلكَ، ما حفظتَ بيتَ شعرٍ قط؟ فقال: بيتاً واحداً اشتهيته فحفظتُه، فقيل له: فهاته، قال: أمَا إنِّي لا أحفَظُ إلاَّ بيتاً واحداً، قيل: فكيف رزق منك هذا البيت؟ فَأَنْشِدْهُ، فَأَنشَدَهم:

نَكْهَتُهَا مِدَّةٌ تَسِيلُ من مَخْطَةِ مَجْذُومِ

وزعم أصحابنا أنّ رجُلاً من بني سعد - وكان أنتنَ الناس إبطاً - بلَغه أن ناساً من عبد القيس يتحدَّوْنَه برجلٍ منهم، فمضى إليهم شدّاً، فوافاهم وقد أَزْبَدَ إبطاه، وهو يقول:

مِنْ جَلْهَةٍ ناعتينا حُطاطٍ يُعطِسُ المخنُونا
له من نتْنِهِ الجَبينا حتَّى تَرَى لوجهِ غُضُونا
عبدَ القيس يَأبِطونا

قال: ومتَح أعرابيٌّ على بئرٍ وهو يقول:

إذا بَدا صُنَانِي   كأنَّنِي جاني عُبَيْثُرَانِ

وقال آخر:

إبطيَّ وقد طالَ الـمـدى   نَفْحَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَاميخ القرى

ويقال إنّهُ ليس في الأرض رائِحةٌ أنتنُ، ولا أشَدُّ على النفس، من بَخَر فمٍ أو نَتْنِ حِرٍ، ولا في الأرض رائِحةُ أعصمُ لرُوحٍ من رائِحة التفاح.

وقال صاحب الكلب: فما نرى النَّاسَ يَعافُون تسميدَ بُقولِهم قبل نُجومِها وتفتُّقِ بزورها ولا بعد انتشارِ ورقها وظهورِ موضع اللُّبِّ منها حتَّى ربَّمَا ذَرُّوا عليها السَّمادَ ذَرّاً، ثُمَّ يُرْسَل عليها الماءُ حتى يَشْرَبَ اللُّبُّ قُوى العذرة، بل مَن لهمْ بالعَذِرة؟ وعلى أنَّهُم ما يصيبونها إلاّ مغشوشةً مُفْسَدَة، وكذلك صنيعُهم في الريحان، فأمَّا النَّخْلُ فلو استطاعوا أن يَطْلوا بها الأجذاعَ طلياً لفعلوا، وإنَّهم لَيُوقدون بها الحَمَّاماتِ وأَتاتينَ المِلاَل، وتنانير الخبز، ومن أكرم سمادهم الأبعارُ كلُّهَا والأخثاءُ إذا جفَّت، وما بينَ الثَّلط جَافاً والخثاء يابساً، وبين العَذِرة جافَّةً ويابسةً فرق، وعلى أنَّهم يعالِجون بالعَذِرة وبخرْءِ الكلب، من الذُّبحة والخانُوق في أقصى مواضِع التقزُّز وهو أقصى الحلق، ومواضع اللهاة، ويضعونَها على

مواضع الشَّوكة، ويعالجون بها عُيون الدَّوابّ.

أقولٌ لمسبِّحٍ الكناس وقال مسبّح الكناس: إنَّمَا اشتُقَّ الخير من الخُرْءِ، والخرء في النوم خير، وسَلْحَةٌ مُدرِكَةٌ ألذُّ مِن كَوْمٍ العَروس ليلةَ العُرس، ولقد دخلتُ على بَعْضِ الملوك لبعض الأسباب، وإذا به قُعاصٌ وزكام وثِقَلُ رأس، وإذا ذلك قد طاولَه، وقد كان بلغني أنَّه كان هجَر الجلوس على المقعدة وإتيانَ الخلاء، فأمرتُه بالعَود إلى عادته، فما مَرَّت به أيامٌ حتى ذهب ذلك عنه. وزعم أنَّ الدنيا مُنتِنة الحِيطان والتُّرْبةِ، والأنهار والأودية، إلاّ أنَّ النَّاسَ قد غمرهم ذلك النتْن المحيط بهم، وقد مَحَقَ حِسَّهم له طولُ مُكثِه في خياشيمهم، قال: فمن ارتابَ بخبري، فليقفْ في الرَّدِّ إلى أن يمتحنَ ذلك في أوَّل ما يخرجُ إلى الدنيا، عَنْ بيتٍ مطيَّب؛ وليتشَمَّمْ تشمُّمَ المتشبِّث، عَلَى أنّ البقاعَ تتفاوت في النتن، فهذا قولُ مسبّح الكنَّاس.

عصبية سلمويه وابن ماسويه

وزعم لي سَلْمَوَيه وابن ماسَوَيه مُتطبِّبا الخلفاء، أنَّه ليس على الأرض جِيفةٌ أنتنُ نَتْناً ولا أَثْقَبُ ثُقوباً مِن جيفةِ بعير، فظننتُ أنَّ

الذي وهَّمهما ذلك عَصَبِيَّتُهُمَا عليـه، وبغضُـهما لأربـابه، ولأنَّ النـبيَّ صلى الله عليه وسلم وعلى آله، هو المـذكورُ فـي الكتـب براكـب البعير، ويقال إن الحجَّاج قال لهم: أيُّ الجيَفِ أنتن؟ فقيـل: جِيَـف الكلاب، فامتحِنَتْ فقيل له: أنتن منها جيف السنانير، وأنتن جيفهـا الـذكورُ منهـا، فصـلب ابـن الزُّبيـر بيـن جِيفَتَـيْ سـنَّورين ذكريـن.

أطيـــــــــب الأشـــــــــياء رائحـــــــــة وأنتنهـــــــــا

وأنا أقول في النتن والطِّيب شـيئاً، لعلَّـك إن تفقّـدتَه أن تـوافقَني عليه وترضى قولي، أمَّا النتن فإنِّي لم أشـمَّ شـيئاً أنتـنَ مـن ريـحِ حُشٍّ مقيَّر، يبول فيه الخِصيان ولا يُصَبُّ عليه الماء؛ فإِنّ لأبـوالهم المترادفة المتراكبة ولريح القار وريح هواءِ الحشِّ وما ينفصل إليه من ريح البالوعة - جِهةً من النَّتْن ومذهباً في المكروه، ليس بينـه وبين الأبدان عمل، وإنَّما يقصِد إلى عيـن الـرُّوح وصـميمِ القلـب، ولا سيَّما إذا كان الخلاءُ غيرَ مكشوف، وكان مغموماً غيرَ مفتـوح، فأمَّا الطِّيب فإني لـم أشْـمَمْ رائِحـة قـطُّ أحيـا للنفـس ولا أعصَـمَ للرُّوح، ولا أفتَقَ ولا أغنج، ولا أطيب خِمـرة مـن ريـحِ عَـروس، إذا أُحكِمت تلك الأخلاط، وكان عَرْف بَدَنها ورأسِـهَا وشـعرها سـليماً،

وإن كانت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنّك ستجد ريحاً تعلَمُ أنّهُ ليس فوقَهَا إلاّ ريحُ الجنة.

ما قيل في الظربان

ومما قالوا في النَّتْن، وفي ريح جُحْرِ الظَّرِبان خاصَّة، قول الحكم بن عَبْدَل:

نفسَكَ في عَرُوضِ
ولحَصْدُ أنفِكَ بالمنَاجِل أَهْـوَنُ

امرؤٌ في أرضِ أمِّكَ فُلفلٌجَمٌّ وفُلِفُلنا هُـنـاك الـدِّنْـدِنُ
أمّك وهي مِنك حقـيقةٌبالبِرِّ واللَّطَفَ الذي لا يُخْـزَنُ
فاكَ من الأَميرِ ونحِّـه حتَّى يُداوِيَ ما بأنْفِكَ أَهْـرَنُ
للظّرِبانِ جُحْرٌ مُنـتِـنٌ فلَجُحْر أَنفك يا محمَّدُ أنـتَـنُ

وقال الربيع بن أبي الحقَيق - وذكر الظّرِبان - حينَ رمى قوماً بأنّهم يَفسُون في مجالسهم، لأنّ الظّرِبان أنتنُ خلْقِ اللّه تعالى فَسْوةً، وقد عَـرَف الظّرِبـانُ ذلـك فجعَلَـه مـن أشَـدِّ سِـلاَحِهِ، كمـا عرَفَتِ الحُبارَي مَا في سُلاَحِها من الآلة، إذا قـرب الصـقر منهـا، والظّربـانُ يـدخل علـى الضـبِّ جُحرَه وفيه حُسوله أو بيضُه، فيأتِي أضـيقَ موضـعِ فـي الجُحـر فيسـدُّه بيـديه، ويحـوِّل اسـتَه فلا يفسو ثلاثَ فَسَوَاتٍ حتى يُدَارَ بالضبِّ فيخِرَّ سكرانَ مفشِيّاً عليـه، فيـأكله، ثـم يقيـم فـي جُحـره حتَّـــــــــــى يـــــــــــأتِيَ علـــــــــــى آخِـــــــــــر حُســـــــــــوله.

وتقول العرب: إنّه ربَّمَا دخَل في خِلال الهَجْمـة فيفسـو، فلا تتِـمُّ لـه ثلاثُ فَسَـواتٍ حـتى تتفـرَّق الإبـــل عـــن المبْـــرَك، تـــتركه وفيـــه قِـــرْدان فلا يردُّهـــا الراعـــي، إلاّ بالجَهْـــدِ الشـــديد.

فقال الربيع، وهجاهم أيضاً بريح التُّيوس:

غَنَاؤُهُمُ فِي الـهـياجِ
إذَا مَا تَنَادَوْا لأمـرٍ شـديدِ
كِلاَبٌ لَـدَى دُورِكـمْ
تهرُّ هريرَ العَقور الرَّصُودِ
طَرَابيٌّ إذ تجلـسـونَ
وما إنْ لنا فيكمُ مـن نَـدِيدِ
تيوسٌ وقد تُعْـرَفـونَ
بريح التُّيوسِ وقُبْح الخدودِ

قال: ويقال: أفسى من الظّرِبان ويسمّى مفرِّقَ النَّعَمِ، يريدون من نتْن ريحِ فُسَائه، ويقال في المثل - إذا وقعَ بين الرجُلين شرٌّ فتباينَا وتقاطَعَا -: فسَا بَيْنَهُمَا ظَرِبَان، ويقال: أنتَن مِنْ ظربان لأنَّ الضبّ إنَّما يخدع في جُحْره ويُوغِل في سِرْبه لشدَّة طلب الظّرِبان له، وقال الفرزدق في ذلك:

لأصبَحَتْ كنتُ في نارِ الجحيم ظَرَابِيُّ من حِمَّانَ عنِّي تثيرها

وكان أبو عُبيدة يُسمِّي الحِمَّانيَّ صاحِبَ الأصَمِّ: الظَّرِبان، يريد هذا المعنى، كما يسمى كل حِمَّانيٍّ ظَرِبَاناً.

وقال ابن عَبدَلٍ:

فاكَ من الأميرِ ونحِّه حتَّى يداوِيَ ما بأنْفِك أهْرَنُ
للظَّرِبان جُحرٌ مُنتِنٌ فلَجُحر أنفِك يا محمد أنتن

في شعره الذي يقول:

الأميرَ أطاعَنِي فشفيتُه من كلِّ مَن يُكْفِي القصيدَ ويَلْحَنُ
يَحْثُو الكلام كأنَّما باتَتْ مناخِرُهُ بدُهْنٍ تُعْرَنُ
أميرَهم لهم سِجناً فكنتُ زَمناً فأضربُ مَنْ أشَاءُ وأسجُنُ
لابنِ آكِلة العِفَاصِ محمَّدٍ كنتَ من حبِّ التقرُّب تجبُنُ
نفسَكَ في عَروضٍ ولَجَحْدُ أنفِك بالمناجِل أهْوَنُ
امرؤٌ في أرضِ أمِّك جَمٌّ وفلفلنا هناك الدِّنْدِن
أمِّكَ وهي منك حقيقَةٌ بالبرِّ واللَّطَفِ الذي لا يُخْزَنُ
فاكَ من الأميرِ حتَّى يُداوِيَ ما بأنفِك أهْرَنُ
للظَّرِبانِ جُحْرٌ فلَجُحْر أنفِك يا محمَّدُ أنتَنُ
الأميرَ غيرُ موفَّقٍ ولأبيهِ للفَصاحة مَعْدِنُ

ابنَ ذَكْوانٍ تَجِدْهُ عـالِـمـاً بسَليقةِ العُرْب التي لا تـحـزُن
تجعَلُ كلَّ يومٍ عـفـصـةً فتجيدُ ما عمِلت يَداك وتحسِـنُ
أشبهتَ أمَّكَ غـيرَ بـابٍ أنْ قد خُتِنْتَ وأنَّها لا تُـخْـتَـنُ
أصبتَ دراهماً فدفنـتَـهـا وفُتِنت فيها، وابـنُ آدَمَ يُـفـتَـنُ
أراك وأنتَ غيرُ مُـدَرْهِـمٍ ذاك تَقْصِفُ في القِيان وتزْفِنُ
رأسُ مَالِكَ لُعْـبَـةً بـصـريَّة بَيْضَاءُ مُغْرِبَةٌ عليها السَّـوْسَـنُ

وقال ابن عبدل أيضاً:

محمـداً ودخـانُ فـيه كرِيحِ الجَعْرِ فوقَ عَطِينِ جِلْدِ
إليه في رَجُلٍ أتـانـي كريم يطلبُ المعروفَ عِـنـدي
له ولم أعجَـلْ عـلـيه، وذلِكَ بعدَ تقريظي وحَـمْـدي
فأعْرَضَ مُكْمَحاً عنِّي كـأنِّـي أكَلِّمُ صَخْرَةً في رأس صمْـدِ
كـل آصِـرَةٍ لـيدنـو فما يزْداد منِّي غـيرَ بُـعْـدِ
فأقسِمُ غيرَ مستـثـنٍ يمـينـاً أبا بَخَرٍ لـتـتَّـخِـمَـنَّ رَدِّي
كنتَ المهذّبَ مـن تـمـيمٍ خفتَ ملامَتي ورجوتَ حَمدي
محمداً فوجـدتُ ريحـاً كَريح الكلبِ ماتَ قريبَ عَهْدِ
ألْذَعتَنِي ثعـبـانَ نَـتْـنٍ سيبلغ إنْ سلِمْنا أهـلَ نَـجْـدِ
خَطْمَـه فـودِدتُ أنِّـي قَرَنْتُ دونوَّه منـي بـبُـعْـدِ
افْتَدَتِ المعاذةُ مـن جَـواهُ بخِلْعَتها ولم تَرجِـع بـزَنْـدِ
وفارقَها جواه فاسـتـراحَـتْ وكانتْ عنـدَه كـأسـيرِ قِـدِّ
أدنيتُ فـاه إلـيَّ حـتَّـى قتلتُ بذاك نفسي غيرَ عَـمْـدِ
يدنُـو إلـى فـيه ذُبـابٌ ولو طُليت مَشافِرُه بـقَـنْـدِ
حلاوةً ويَخفْـن مـوتـاً زعافاً إنْ همَمْنَ لـه بِـوِردِ
فاحَ فُوه علـيّ فَـوْحـاً بمثل غَثِيثَةِ الدَّبِـرِ الـمُـغِـدِّ
له: تنحَّ بفـيك عـنِّـي فما هذا بـريحِ قُـتَـارِ رَنْـدِ

هذا بريح طِلاً ولـكـنْ يفوحُ خِرَاكَ منه غير سَـرْدِ
فحدِّثْنِي فإنَّ الـصِّـدقَ أدنـى لبابِ الحقِّ من كذِب وجَحْـدِ
يجولُ في عَفَجٍ طحـور فأعلم أمْ أتـاكَ بـه مُـغَـدِّي
عليَّ نـكـهةَ أخـدَريٍّ شتيمٍ أعـصـلِ الأنـياب وَرْدِ
أهديتَ لي من فيكَ حتْفي فإنّي كالذي أهـديتَ أهـدي
شُرُداً يَسرِن مـغـنّيـاتٍ تكونُ فنونُها من كـل فِـنـدِ
تخزَى خَزِيت لهـا إذا مـا رَوَاها النَّاسُ من شِيبٍ ومُـرْدِ
إن نجوت ولم يُصبْنـي جَوًى إنّي إذن لَسـعـيد جـدِّ
له: متى استطْرفْتَ هذا أصابني من جَوفِ مَهْدِي
لـه: أمـا دَاويتَ هـذا فتعذر فيه آمـالا بـجَـهْـدِ
أمَا علمـت لـه رِقَـاءً فتسديَه لنا فيمـا سـتُـسْـدي
لـه: ولا آلـوه عـيا له فيمـا أسـرُّ لـه وأُبـدي
بقيئةٍ وبجَعْـرِ كَـلْـبٍ ومثليْ ذاك من نونٍ كَنَعْـدِ
وحِلـتـيتٍ وكُـرَّاثٍ وثُـومٍ وعُودَي حَرْمَلٍ ودِماغِ فَهْـدِ
وحَنْجَرَةِ ابنِ آوى وابنِ شَعيرةِ من بَزْر فَقْـدِ
ذُرُحْرُحٍ ولسانِ ومقـر وصقالين من صـوّان رَقْـدِ
ويُعجَن المنخول مـنبولٍ آجِنِ وبجَـعْـرِ قِـرد
زماناً فـي شـعـيرٍ وترقبه فـلا يَبـدُو لـبَـرْدِ
فاكَ ما عتَّقت مـنـه يعجن بأظـفـار ونَـدِّ
حضَرَ الشتاءُ وأنتَ اللّهُ غَيَّكَ أمرَ رشـدِ
فدَحْرِجْها بنادِقَ وازدرِدْهـا رُمْتَ التكلُّـم أيّ زَرْدِ
فتقذف بالمِصَلِّ على بلعومٍ وشِدْقٍ مُـسْـمَـعِـدِّ
ما لِبَطْنِك مذْ كأنّ دوِيَّهُ إرزام رَعـــد
لحِكَّةِ الناسور عـنـدي إن صبرتَ له سيُجدِي
الدُّودَ عنكَ إن انت سَنَنْتَهُ سنَّ
وتشتـهـيه المقَـدِّي
وطليتَه بأصولِ دِفْلَـى وشيءٍ من جنَى لَصَفٍ

ورَنْدِ
ميِّتاً مِنْ نَتْن فيهِ اللهُ من ناجَاهُ بَعْدِي

أشعار العرب في هجاء الكلب

وقال صاحب الديك: سنذكُر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرّداً على وجهه، ثمَّ نذكُر ما ذمُّوا من خلالهِ وأصنافِ أعماله، وأموراً من صفاته، ونبدأ بذكرِ هجائه في الجملة، قال بشَّار بن بُرْد:

لَلْكَلْبُ خَيْرٌ من سُويدٍ وتَولبِ سويداً إذ فخرتَ وتَوْلَبِ

وقال بشَّارٌ أو غَيره:

إذ تَرْعَى على الحيِّ شاءَهُمْ وأنتَ شريكُ الكلب في كلِّ مَطْعَمِ
وتلحَسُ ما في القَعْبِ من سُؤْرِهِ وقد عاثَ فيه باليدَين وبالفمِ

وقال ابن الذئبة:

يجمع المال ولا يَتُبْ به عَلَى النَّاسِ هَوانَ كلبِهِ ويترك المالَ لِعَامِ جِدْبِه

وقال آخر:

شَرِيبي لاَ يغبُّ بوجهه كُلومي كأنْ كلباً يُهارِش أكْلُبا
أَقْسِمُ الأعطان بيني ولا أتوقَّاه وإن كان مُجْرِبا

الأجوص ابناً له فشبَّهه كَلْبٍ فقال:

من ولدٍ وأَشْقِحْ ثل جُرَيِّ الكلب لم يُفَقِّحْ
سُوءًا مَا يَقُمْ فينبِحْ بالبابِ عند حاجةِ المستفتِحْ

وقال أبو حُزَابة:

عليٍّ بَرِح الخَفاءُ أنتَ لغَيْرِ طَلْحَةَ الْفِدَاءُ

علمَ الأشرافُ والأكفاءُ أنَّك أنت النَّاقصُ اللَّفَـاءُ
جَدَّعـه الـرِّعـاء يغُمُّه المِئزَرُ والـرِّدَاءُ
عليٍّ كلُّـهـمْ سـواءُ كَأَنَّهـم زِينِـيَّةٌ جِـراءُ

وقال عبد بني الحسحاس، وذكر قبح وجهه فقال:

نِساءَ الحارثيِّينَ غُدْوَةً بوجهٍ بَرَاهُ اللّهُ غيرِ جميلِ
فشبَّهنَني كلباً ولسْتُ بفَوقِه ولا دونَه إن كان غيرَ قليل

وقال أبو ذباب السعدي في هوان الكلب:

لكِسْرَى كانَ أعقَلَ من تمـيمٍ لياليَ فرَّ من أرْضِ الضَّبابِ
وأسكنَ أهلَه بـبـلاد رِيفٍ وأشجارٍ وأنـهـارٍ عِـذَابِ
بنُو بَنيه لها مُلـوكـاً وصرنا نحنُ أمثالَ الكِـلاَبِ
رَحمَ الإلهُ صدَى تـمـيم فقد أزْرَى بنا في كلّ بـابِ

وأراد اللعين هجاء جرير - وجرير من بني كليب - فاشتق هجاءه من نسبه فقال:

سأقْضِي بين كلبِ بني كُليبٍ وبين القَينِ قَينِ بني عِقـال
الكلبَ مَطعَمُه خبـيثٌ القينَ يَعمَلَ في سَفالِ
العَبدين قد علمتْ مَعَدٌّلئيمُ
من عمٍّ وخالِ
بُقيَا عليَّ تركتُماني ولـكـنْ خِـفـتُـمـا صَـرَدَ الـنـــبـــال

وقال رجلٌ من همْدان، يقال له الضَّحَّاك بن سعد، يهجو مَرْوان بن محمد بن مروان بـن الحكـم، واشـتقَّ لـه اسـماً مـن الكلـب فجعلَه كلباً فقال:

الفِرَارُ بمرْوانٍ فقـلـتُ لـه الظلوم ظليماً همُّهُ الهـربُ
الفِرارُ وتركُ الملْك إن الهُوَينَى فـلا دينٌ ولا أدبُ
الحلم فِرعون العذابِ يُطْلَب نَدَاهُ فكلبٌ دونَه كَـلِـبُ

وقال آخر وجعل الكلبَ مثلاً في اللُّؤم:

ما سَرَت من ليلِها ثمّ عرّسَتْ   على رجلٍ بالعَرْجِ ألأَمَ مِنْ كلْـبِ

وكذلك قول الأسود بن المنذر، فإنّه قال:

امرأً أنتُـمُ حـولَـه   تحُفُّون قُبَّتَه بالقِـبـابِ
سرَاتَكُم جـاهـداً   ويقتُلكم مثلَ قتْل الكلابِ

وقال سحيمة بن نعيم:

كليبيّاً لكَلْـبٍ وكـلـبةٍ   عندَ أطْنَاب البُيوتِ هَرِيرُ

وقال التَّجْرانيُّ في ذلك:

منْزِلي قد أخرجَتْنِي زوجتي   تهِرُّ في وجهي هَرِير الكَلَـبةِ
فقيرةً من حِـرْفَـتـي   قلت لها لمّا أراقتْ جَـرتـي
هِلالٍ أبْشِرِي بالـحـسـرةِ   وأبشرِي منك بقُرب الضَّـرَّة

الفلحس والأرشم

ويقال للكلـب فلحَـس وهـو مـن صـفات الحِـرْص والإلحـاح، ويقـال: فلان أسـأَلُ مِـنْ فَلْحَـس، وفَلْحَسٌ: رجلٌ من بني شيبان كان حريصاً رغيباً، ومُلحِفاً مُلِحّاً، وكلُّ طُفَيليٍّ فهو عندهم فَلْحَسٌ. والأرشَم: الكلب والذئب، وقد اشتقَّ منه للإنسان إذا كان يتشـمَّم الطعـام ويتْبـع مواضـعه، قـال جريرٌ في بعضهم:

حَملتْهُ أمُّه وهي ضَيفة   فجاءَتْ بيَتْنٍ للضِّيافةِ أرشَما

وقال جريرٌ في استِرواح الطعام:

الهُجَيم سَخيفةٌ أحلامُهـم   ثُطُّ اللِّحَى مُتشابِهُو الألـوانِ
يَسمَعون بأكلةٍ أو شَـرْبةٍ   بعُمَانَ أضحى جمْعُهم بعُمانِ
متأبِّطين بنيهمُ وبـنـاتِـهـمْ   صُعرَ الخدودِ لريحِ كلِّ دُخانِ

وقال سَهمُ بن حنْظَلَة الغَنَويُّ في ذلك:

كلابٌ فمـثـلُ الـكِـلا   يُحسِنُ الكلبُ إلاَّ هريرَا
نُميرٌ فمـثـلُ الـبِـغـا   أشبَهْنَ آباءهُنَّ الحَـمـيرا
هِـلالٌ فـعَـطـَّـارَةٌ   تبيع كِباءً وعِطْـراً كـثـيرا

بين جرير والراعي

ومرَّ جريرٌ يوماً بالمِرْبَد، فوقف عليه الراعي وابنه جنْدَل، فقال له ابنه جندل: إنَّه قد طال وقوفُك على هذا الكلب الكُلَيبيّ، فإلى متى ؟ وضرب بغلَته، فمضى الراعي وابنه جندل، فقال جرير: واللّه لأُثْقِلنَّ رواحلك فلما أمسى أخذَ في هجائه، فلم يأته ما يريد، فلما كان معَ الصبح انفتَح له القولُ فقال:

الطَّرْفَ إنَّكَ من نُميرٍ   فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا
جُعِلت فِقاحُ بني نُميرٍ   على خَبَثِ الحديدِ إذاً لذَابا

ثم وقف في موقفه، فلمَّا مرَّ به جندلٌ قبض على عِنان فرسِه، فأنشده قوله، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت:

ما تقول بنو نميرٍ   الأَيرُ في استِ أبيك غابا

قال: فأدبَرَ وهو يقول: يقولون واللّه شرّاً.

وقال الشاعر - وضرب بالكلب المثلَ في قُبْح الوجه -:

سَفَرتْ فقلتُ لها هَجٍ فَتبرقَعَتْ   فذكرتُ حين تبرقعت ضَبَّارا

وضَبَّار: اسم كلب له.

أمثال في الكلاب وقال كعب الأحبارِ لرجل وأراد سفراً: إنّ لكلِّ رُفقةٍ كلباً، فلا تكنْ كلبَ أصحابِك. وتقول العرب: أحبُّ أهلي إليّ كلبهم الظاعن، ومن الأمثال وقَع الكلبُ على الذِّئب ليأخذَ منه مثل ما أخَذ، ومن أمثالهم: الكلابَ على البَقَر، ومن أمثالهم في الشؤم قولهم: على أهْلِها دلَّتْ بَرَاقِشُ، وبراقش: كلبةُ قومٍ نبحَت على جيشٍ مرُّوا ليلاً وهمْ لا يشعُرون بالحيِّ، فاستباحوهم واستدلُّوا على مواضعهم بنباحها.

قال الشاعر:

أنَّ سيِّد آلِ ثورٍ نُباتة عضَّهُ كلبٌ فماتا

قتيل الكبش وقتيل العنز

وقال صاحب الكلب: قد يموت الناسُ بكلِّ شيء، وقد قال عبد الملك بن مـروان: ألا تتعجبـون من الضحَّاك بن قيس يطلب الخلافة ونطـح أبـاه كبـش فوُجِـد ليـس بـه حَبَـضٌ ولا نَبَـض، وقـال عَرفجة بن شريك يهجو أسلَم بن زُرْعة - ووطئتْ أباه عنْزٌ بالمِربد فمات - فقال:

أستطع إذْ بانَ منِّيَ معشَري مكانَ قتيل العنز أنْ أتكلَّمـا

ابنَ قتيلِ العنْز هل أنت بزُرعةَ تيساً في الزَّرِيبةِأزنمـا

وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى:

أصبحتُ محتاجاً إلى الضَّرْبِ طلَبِ العُرْف إلى الكلْبِ
وقَّحِ السَّبُّ لـه وجـهَـه فصار لا ينحاش للـسَّـبِّ
شَكَا صبٌّ إليه الـهـوَى قال لهُ مالي ولـلـصـبِّ
فتًى يُطعَن فـي دينـهِ يشِبُّ مَعَهُ خَشَبُ الصُّلْـبِ

قال: وقلتُ لأبي عبيدة: أليس بُقْعُ الكلاب أمثلَها؟ قال: لا، قلت: ولم قال:

هجاءهم لما تَـوَاصَـوْا الذِّئبِ من بُقْعِ الكِلابِ؟

قال: ليس هكذا قال، إنما قال:

الذِّئب من سُودِ الكِلابِ

ألا ترى أنّه حين أراد الهجاء قال:

بالمبارَكِ بعدَ شـهـرٍ تَخُوضُ غُمورَه بُقْعُ الكِلابِ

ويدل على ذلك قول الجَدَليِّ:

لجو مـن جـواء سـويقة أسافلـه مـيث وأعـلاه أجـزع
إلينـا أن نـجـاوِرَ أهـلَـه ويصبحَ منَّا وهو مرأًى ومسمـعُ
الجَوْسَقِ الملعونِ بالرَّيِّ لا رأسه داعي المنيَّةِ يلـمَـعُ

يقولون لي صبراً فقلتُ لَطَالَمَا صَبَرتُ ولكنْ لا أرى الصَّبرَ ينفعُ

عطائيَ كانَ قُسِّمَ بَـيْنَـهُـمْ
لي الصَّمَّان والحزْنُ أجمعُ

لهم أجْري هنيئاً وأصبحَـتْ
البازلُ الكَوماء بالرمل تَضْبَعَ

نفسي عِدْلَ علجٍ كـأنَّـه
يموتُ به كلبٌ إذا مـاتَ أبـقَـعُ

قال: فقد بيَّن كما ترى أنَّ الأبقَعَ شرُّها، قال: وقلت: فلم قال الشاعر:

أرسلْتَ أُسداً على بُقْعِ الكلاب
لقد أمسى شَرِيدُهمُ في الأرضِ فُلاَّلاَ

قال: فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم؟ وإذَا صغّر شأنَ من هَزَموا فقد صغَّر شـأنَ الممـدوح، بـل إنَّمـا قـال: أرسـلتَ أسـداً علـى سـود الكلاب.

قال: وإنَّما جاء الحديثُ في قتل سُود الكلاب، لأنَّ عُقُرَها أكثرُ ما تكون سوداً، وذلك من غلَبَة أنفسها.

وليس في الأرض حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحِمارٍ وفرسٍ وكلبٍ وإنسان، إلاّ والسُّودُ أشدُّها أَسْراً وعَصَباً، وأظهرُها قُوَّةً وصبْراً.

وقال أبو سعد المخزومي في هجائه دِعبلاً

بن أبي سعيدٍ إنَّها
دُوَلٌ وأحْرِ بها بأَنْ تتنَقَّلا

جعلتَ لها كحُرْمَةِ دِعْبِلٍ
است أمِّ كلبٍ لا يساوي دِعبِلا

وقال ابن نوفل:

على قَصْواءَ تنقلُ سَوءةً
وكم من سوءةٍ لا تَهابُها

أَنْ لم تخز سَلْمُ بنُ
خَزِيت بعدَ الرِّجال كلابُها

وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفرَ بنَ يحيى:

خلف وجه قد أطيل كأنَّه
مالك يقضي الهموم على بثق

وأعظم زهواً من ذباب على
وأَبخَلُ من كَلْبٍ عَقُورٍ على عَرْق

وقال أبو الشَّمقمق:

جودٍ ونـائلٍ وفَـعـالٍ   غَلَبُوا الناسَ بالنَّدى والعطيَّهْ
زائراً فأدنَى مكانـي   وتلقَّى بِمرْحَبٍ وتـحـيَّهْ
كمِثْلِ الأصَمِّ حارثةِ اللؤ   شبيهِ الكُلَيبة القَلَـطـيَّهْ
زائراً فأعرضَ عنِّـي   إعراض قحبةٍ سُوسِيَّهْ
كـأنَّـه أير بـغـلٍ   في دُبْر بَغلةٍ مِصريَّهْ

وقال أيضاً:

لسرّانِ الـمـخـازِي   الكلب والتَّيْسِ الضروطِ
بطنٌ يَضـلُّ الـفـيلُ فـيه   ودُبرٌ مثلُ رَاقود الـنَّـشـوط
عـارمٌ لا خـيرَ فــيه   كدَوْرِ سفينةٍ في بَـثْـق رُوط
حائكٍ من باب قـلـب   مُوَصَّلَةِ الجوانبِ بالـخُـيوطِ
عليه الـفـقـرُ بـادٍ   مُرقَّعة جـوانُـبـه بِـقـوطِ
نَهَضَ الْكِرَامُ إِلَى المَعَالِـي   سَرَّانَ يَسْفَلُ فِي هَبُـوط

وقال أيضاً في ذلك: من البسيط

رازقَ الكلبِ والخنزيرِ في   والطيرِ والوحش في يهماءَ دوَّيَّهْ
شئتَ صيَّرتَه في حالِ   حتى تُقِرَّ بتلك الحـالِ عـينـيَّه

وقال جرير بن عطية، يهجو الصَّلَتان العبديّ:

لها والدَّمع يغسِل كُحـلَـهـا   كان حكمُ اللّهِ في كَرَبِ النخلِ

فأجابه الصَّلَتَانُ فقال:

أن كانت النَّخْلُ مـالَـنـا   أبوك الكلبُ لو كان ذا نَخْلِ

يعيِّره جرير بأنَّه كان هو وأبوه من أصحاب النَّخْل.

وقال وضّاحُ اليمن:

السِّرَّ غضباناً وفي   حتى يكون له وجهٌ ومستمِـعُ
القولُ عن علمٍ ومَقْـدِرَةٍ   يكون لذاك النَّجْدِ مُطَّلَعُ
قُوّتي قُوّة الراعي ركـائبَـه   يبيتُ يأوي إليه الكلب والرُّبَـعُ
العَسيفِ الذي تشتدُّ عُقْبَتُه   حتَّى يَثُوبَ وباقي نعْلِه قطَعُ

وقال محمد بن عباد الكاتب مولي بحيلة، وأبوه من سبى دابـق وكـاتب زهيـر، وصـديق ثمامـة، يهجو أبا سعد دعى بني مخزوم، وبعد أن لقي منه ما لقي:

نزارُ بك الذي اس ... تأهَلْتَه نفـياً وضَـرْبَـا
فهجوتَ قحـطـانـا لأه ... جُوَهم مـكـايَدةً وإرْبـا
كيما تشـتَـفـي ... بهجائهم منهم فَـتَـرْبَـا
أَنَّك مَـا سـبـب ... تَ، حَماكَ لؤمُك أن تُسَبَّا
كالكلب إن ينبـح فـلـي ... س جوابه إلاَّ اخْسَ كَلْبا
عليك وقَرْ مـكـا ... نَك لا تطفْ شرقاً وغربا
واكشِفْ قِناعَ أبيك فـال ... آباءُ ليس تُنال غَصْبـا

وقال آخر يصف كلباً:

كطَعْم الصَّرْخَدِيِّ تركـتُـه ... العِدا من خَشية الحَدَثَانِ
ليَ الشَّحناءَ بيني وبـينـه ... دعوتُ وقد طال السُّرى فدعاني

فوصـــــــــفه كمـــــــــا تـــــــــرى أنَّـــــــــه يبـــــــــدي لـــــــــه البغضـــــــــاء.

وقال آخر:

ما سَرَتْ من ليلها ثم عرَّست ... عَلَى رجُلٍ بالعَرْج ألأمَ مِن كلْـبِ

وقال راشِد بن شهاب اليشكُريُّ:

إذا هبَّتْ شَمـالٌ عَـرِيَّةٌ ... على لحم الجزورِ ولا بَرَمْ

وقال كُثَيِّر بن عبد الرحمن، وهو يصف نعلاً من نِعال الكرام:

طُرِحَتْ لم يَطَّبِ الكلبَ ... وُضِعت في مجلس القَوم شُمَّتِ

وقال اللّعين في بعض أضيافه، يخبر أنّه قراه لحمَ كلب، وقـد قـال ابـنُ الأعرابـي: إنَّمـا وصـف تيساً:

لعَبْدَيَّ اقْتُلا داءَ بطـنِـه ... وأعفاجِه اللائي لـهـنَّ زوائدُ
بخِرشَاوَي شَعير عليهمـا ... كَرَادِيسُ من أوصالِ أعقَدَ سافِدِ

وقال خُلَيد عَيْنَين وهو يهجو جرير بن عطية ويردّ عليه:

وعيّرتَنا بالنخل أن كان مالـنـا أبوك الكلب لو كان ذا نخل

وقال دِعبل بن عليّ:

يُرزَق الناسُ عن حيلةٍ لما نال كفّاً من التُّـرْبـهْ
يشربُ الماءَ أهلُ العفا لما نال من مائهم شَرْبَهْ
رزقُ مَـنْ رِزْقُـه يعمُّ به الكلبَ والكـلـبـهْ

من هُجِيَ بأكل لحوم الكلاب ولحومِ الناس

قال سالم بن دَارة الغطفانيُّ:

يافَقْعَسِيُّ لِمْ أكلته لِـمَـهْ لو خافَكَ اللّهُ عليه حرَّمه

فما أكلتَ لحمَه ولا دَمه وقال الفرزدق في ذلك:

أسديٌّ جاعَ يوماً ببلـدةٍ وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه

وقال مساور بن هند:

أسدِيَّةٌ ولدتْ غُـلاَمـاً فبشِّرها بلؤمٍ في الغـلامِ
يخرِّسها نساءُ بنـي دُبَـير بأخبثِ ما يجدن من الطَّعامِ
أظفارَ أعقَدَ مُلقـيَاتٍ براثنُها.على وَضَمِ الثُّمَـامِ

فهذا الشعر وما أشبَهه يدلُّ على أنَّ اللعين إنَّمـا قراهـم كلبـاً ولـم يَقْرِهـم تيسـاً، وأنَّ الصـوابَ خلافُ مـا قـال ابْـنُ الأعرابـيِّ.

وقال مُساوِر بن هند أيضاً:

أسدٍ أن تُمحل العامَ إذنْ دَهْرُ الكلابِ وعامُها

وقال شرَيح بن أوس يهجو أبا المهوّش الأسدي:

وعيَّرْتنا تمرَ الـعـراق وبُـرَّه أير الكَلْب شيَّطه الجمْر

أكل لحوم الناس

وما قيل في ذلك من شعر

وقال معروفٌ الدُّبيريّ في أكلِهم لحومَ الناس:

ضِفْتَ يوماً فقعسـيّاً فلا تَطعَمْ له أبداً طعـامـا
اللحم إنسـانٌ فـدَعْـهُ وخيرُ الزَّادِ مَا مَنَع الحراما

وقد هُجِيت هذيلٌ وأسد وبَلَعنْبَر وباهلة بأكلِ لحوم الناس، قال حسَّان بن ثابت يذكر هذيلاً:

سرَّك الغَدْرُ صِرفاً لا مِزَاجَ فأت الرجيع وسل عن دارِ لِحْيانِ
تواصَوا بأكل الجار بينـهـم فالكلبُ والشَّاةُ والإنسـانُ سِـيَّانِ

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل:

أكلتُمْ شحمة بن مـخـدَّمزباب فلا يأمنْكُم أحـدٌ بـعـدُ
له من بين خَمسٍ وأربعٍ نصل الأظفارُ وانسبَأ الجِلْدُ
ورَفَّعتم جُردَانَه لـرئيسـكـم مُعاوية الفلحاء يالكَ ماشُـكْـدِ

وقال الشاعر في ذلك في باهلة:

غفاقاً أكلَتْه بـاهـلـه تمشَّشوا عظامَه وكاهلَه
وأصبحتْ أم غفاق ثاكِلَه

وهجا شاعر آخر بَلْعَنبر، وهو يريد ثَوْبَ بن شَحْمَة، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير، فأمَّا مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خيبري فعيَّر الشاعرُ ثوب بنَ شحمة بأكل الرجـلِ العنبريِّ لحمَ المرأة إلى أن أتى ثوبٌ من الجبَل فقال:

ما صادَكم عِـلاجْ من العُنُوق ومن النِّعاجْ
أكلتمْ طَفْلَةً كالعاجْ

فلما عيَّره قال ثوب:

عمِّيَ ما أدراكِ ما تجنُّ خبيثَ الزاد أضلاعي
لذو مِرَّةٍ تُخْـشَـى بـوادِرُه الصِّياحِ بِنَصْلِ السَّيْفِ قَرَّاعِ

ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان:

كلبة سوداءُ تفري بنـابِـهـا من الموتى مِرَاراً وتَكدِمُ
لها كلبٌ فضنَّتْ بعَرْقِفهاارشَها وهي على العَرْق تَعْذِمُ

فقـــــــفْ علـــــى هـــــذا الشـــــعر فـــــإنّه مـــــن أعـــــاجيب الـــــدنيا.

وقال سُنَيح بن رباح شار الزِّنجي:

كلبِ بني كُليبٍ سبَّنا   أن لم يُوازِنْ حَاجِباً وعِقال

قتيل الكلاب

وتنازع مالك بن مِسْمَع وشقيق بن ثور، فقال له مالِك: إنَّما رفعك قَبْرٌ بتُسْتَر فقال شقيق: حينَ وضَعَك قبرٌ بالمشقَّر، يا ابن قتيلِ النساء وقتيل الكلاب.

قال: وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيلُ الكلاب، وذلك أنَّه لجأ في الردة إلى قومٍ من عبد القيس، فكان كلبُهم ينبحُ عليه فخاف أن يدلَّ على مكانه فقتَلَه فقُتِلَ به.

أمثال أخرى في الكلب

قال: والعرب تقول: أسرَعُ من لَحْسَةِ كلبٍ أنفه، ويقال: أحرصُ من لَعْوة وهي الكلبة، وجمعها لِعاء، وفي المثل: ألأم من كلبٍ على عَرْق، ونَعِم كلبٌ في بؤس أهله، وفي المثل: اصنع المعروف ولو مَعَ الكلب.

رؤيا الكلب وتأويلها

وقال ابن سِيرين: الكلبُ في النوم رجلٌ فاحش، فإن كان أسودَ فهو عربيٌّ، وإن كان أبقَعَ فهو عجَميّ.

وقال الأصمعيّ عن حمّاد بن سلمة عن ابنِ أخْتِ أبي بلال مِردَاسِ بن أُدَيَّة قال: رأيتُ أبا بلالٍ في النوم كلباً تذرِف عيناه، وقال: إنّا حُوِّلنا بعدَكم كلاباً من كلاب النار. قال: ولمّا خرج شَمِر بن ذي الجَوشَن الضِّبابي لقتال الحسين بن علي رضي اللّه تعالى عنهما، فرأى الحسينُ فيما يرى النائم أنَّ كلباً أبقعَ يلغُ في دمائهم، فأوَّلَ ذلك أن يقْتُلهم شمر بن ذي الجوشن، وكان مُنْسلخاً بَرَصاً. قال: والمسلمون كلُّهم يسمُّون الخوارجَ: كلابَ النار.

شعر في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب وقال صاحب الديك: صاحب الكلب يصِفُه بالسُّرعةِ في الحُضْر، وبالصّبر على طول العَدْو، وبسَعة الإهاب، وأنَّه إذا عدا ضَبَع وبسَط يديهِ ورجليه حتى يمسَّ قَصَصُهُ الأرْض، وحتى يشرط أذنيه بشَبَا أظفاره، وأنَّه لا يحتِشي ريحاً مع ما يصيب الكلاب من اللَّهَث، فإن كان كما تقولون فلم وصفت الشعراءُ الفرسَ وشبّهته بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاءُ وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب في المنْسَأ لا يلتفت أحَدٌ لِفْتَهُ؟ وقال أبو دُؤاد الإياديُّ في ذلك:

لسانٍ كجثَّة الوَرَل مر مجَّ النَّدى عليه العَرارُ

يذكره في شيء، وقال خالد عجرة الكلابي:

لسانَه وَرَلٌ عليه بدار مضية مج العرار

وقال امرؤ القيس:

أسِيلٌ كالمِسَنِّ وبِرْكَةٌ كجُؤجؤ هَيقِ دَفُّه قد تموَّرا

ولم يذكره في شيءٍ، وقال عُقْبة بن سابق:

الخدِّ والجب هَةِ والصَّهوةِ والجنبِ

ولم يذكره في شيء، وقال امرؤ القيس:

وسامعتان تعرِف العتقَ فيهما كسامعتَي مذعورة وسطَ ربرب

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عقبة بن سابق:

بِركةُ كجؤجؤ هيقٍ ولَبَانٌ مضرّجٌ بالخِضَابِ

ولم يذكره في شيء، وقال خُفاف بن نَدبة:

الذِّراعين سليم الشّظا   كالسِّيدِ يَومَ القِرَّةِ الصاردِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

الشَّظا عبْل الشَّوى شَنِجِ   كتَيسِ الحُلَّـبِ الـغَـذَوانِ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال عقبة بن سابق:

وأرساغ كأعناقِ   ظِباءٍ أربع غُلْبِ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلكَ، وقال الجَعْديُّ:

تماثـيلَ أرسـاغـهِ   رِقابُ وُعُولٍ لَدَى مَشْرَبِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

مثْنَتَانِ خَظَاتَا كـمـا   أكبَّ عَلَى ساعديه النَّمِرْ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال أبو دُؤاد:

كمشي نعامتَينِ   تُتابِعانِ أشقَّ شاخِصْ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال ابن الصَّعِق:

مثلِ الـعُـقـا   بِ تخالُه للضُّمرِ قِدْحا

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال رَبيعة بن جُشم النمري، ويروى لامرئ القيس:

وساقانِ كعباهما أصمَعَا   نِ لحمُ حَمَاتَيهما منبتِرْ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري:

حَمَاتَيْهِما أَرنبانِ   تقبَّضتا خيفةَ الأجدلِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال خالد بن عبد الرحمن في مثل ذلك:

حَماتَها كردوس فخْلٍ   مقلِّصةٌ على ساقَي ظليمِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال الأعشى:

استقبـلـتَـه فـكـأنَّـه   سَمَا فوقَ النَّخيلِ مشـذَّب
تصفَّحَه الفوارسُ معرضـاً   فتقولُ سِرحانُ الغَضَا المتصوِّبُ
استدبرته فـتـسـوقُـهساقٌ يقمِّصها وظـيفٌ أحـدَبُ
وجاعرة كأنّ حماتهـا   لما كشفت الجُلّ عنه أرنبَ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال الأسعر الجُعْفي:

استقبلْتَه فكأنّه   يكفكِفُ أن يطيرَ وقد رأى
استعرضتَه متمطِّراً   فتقول هذا مثلُ سِرحان الغَضا
استدبرته فتَسُوقه   قُموصُ الوَقْعِ عاريةُ النَّسَا

ولم يذكره في شيءٍ، وقال أبو داؤد:

ما استقبلتَه وإذا   ولَّى تقول مُلَمْلَمٌ ضَرْبُ
استعرضتَه ومشَى   متتابعاً ما خانَه عَقْبُ
كمشي نعامةٍ تِبعتْ   أُخرى إذا هي راعَها خطْبُ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

أيطلاَ ظبي وساقَا نعامةٍ   وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال ابن سِنانٍ العبْديّ:

ما أَقبلت فُمطارةٌ   كالجِذع شذّبهُ نفيُّ المِنْجَلِ
ما أعرضَتْ فنبيلة   ضخمٌ مكانُ حِزامِها والمِركَلِ
تشتدُّ فهي نعامةٌ   تنفي سنابكُها صِلابَ الجَنْدَلِ

قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان قال أبو عبيدة: وممـا يشبِه خلْقُه من خَلْقِ النعامة طولُ وظيفِها وقصر ساقيها وعُري نَسَييها، وممَّا يشبه من خلقه خلْقَ الأرنب صِغَر كعبَيها، وممَّا يشبه من خلْقه خلْق الحمار الوحشيِّ غِلظ لحمه، وظمأ فصوصِه وسَراتِه، وتمحص عصَبِه، وتمكُّن أرساغه، وعَرض صهوته.

قال صاحب الكلب: قد قال أبو عبيدة: إنّ مما يشبه من خلقه خلْقَ الكلب هَرَت شدقِه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار قصّه، وسبوغ ضُلوعِه، وطول ذراعيه، ورُحْب جلده، ولحوق بطنه، وقال طُفيل الغَنَويّ، يصف الخيل:

مَراخِيها الزِّجاج كأنَّها ضِرَاءُ أحسَّتْ نبأةً من مكلِّبِ

وقال طُفَيل أيضاً:

عَلَى أعطافِهِ ثوبَ مائِحٍ   يلق كلب بين لحييه يَذْهَبِ

وقال صاحب الديك: وأين يقع البيتُ والبيتان والثّلاثة، من جميع أشعار العرب؟ وقال صاحب الكلب: لعلّنا إن تتبَّعنا ذلك وجدناه كثيراً، ولكنك تقدَّمت في أمر ولم تُشْعِر بالذي تعني، فَنَلتقط

من الجميع أكثرَ مما التقطت، والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضعُ منه مواضع من الفرس العتيق، وما حضرنا من الأشعار إلاّ قوله:

الكميتَ أمامَه وكَأنّه رجلٌ مُغاصِبْ

وقال الشاعر في ذلك:

تَرَاحَ إلى الصراخ إذا فِعْلَ الضِّرَاءِ تَـرَاح لـلـكَـلاّبِ

وقد شبهوا بالكلب كلَّ شيء وكان اسم فرس عامر بن الطفيل، الكلب، والمزنوق، والوَرد.

شعر في وصف الناقة

قال صاحب الديك: قد قال أوس بن حجر، ووصف الناقةَ ونشاطها والذي يَهيجها فقال:

هرّاً جَنيباً عند مَغْرِضها والتفَّ ديكٌ برجليها وخنْزيرُ

فهلاّ قال: والتف كلبٌ كما قال: والتفَّ ديك وقال أبو حيَّة:

وتزاورَتْ عنه كأن بدَفِّهـا هِرّاً ينشِّبُ ضَبْعَها بالأظفر

وقال الأعشى:

سُرُحٍ كَأَنّ بـدَفِّـهـا إذا انتعل المطيُّ ظلالَها

وقال عنترة بن شدَّاد العَبْسي:

ينأى بجانب دَفِّـهـا الوحْشِيِّ من هَزِج العشيِّ مؤوَّمِ
جَنيبٌ كلّما عطَفَـتْ لـه غَضْبَى اتقاها باليدين وبالفـمِ

وقال المثقِّب العَبْديّ:

الهمَّ عنك بذاتِ لَوْثٍ عُذَافِرةٍ كَمِطْرَقةِ القُيُونِ
بصادقةِ الوَجِيفِ كأنّ هرّاً يُبارِيها ويأخُذُ بالوَضِـين

قال صاحب الكلب: إنما يذكرون في هذا الباب السِّباعَ المنعوتة بالمخالب وطولِ الأظفار، كما ذكر الهرَّ وابن آوى، والكلبُ ليس يوصف بالمخالب، وليس أَنَّ الهر أقوى منه، ألا تـرى أوسَ بـن حجرٍ قال في ذلك:

هرّاً جَنيباً عِنْدَ مغْرِضِها

فــذكر الموضــع الــذي يوصــف بــالخلْبِ والخــدْش والخمــش والتظفير، فلما أراد أن يفزِّعها ويثَوِّرَها حـتى تـذهبَ جافلـة فـي وجْهِها، أو نادَّة، أو كأنّها مجنونة من حاق المرح والنشاط قال:

دِيكٌ برجلَيها وخِنزِير

وقال أبو النجم:

شَنٌّ وسطها لم تَحْفِـلِ شهوةِ الماءِ ورِزٍّ معضل

ولو قال أوس:

شَنٌّ برِجليها وخِنزير

لكان جائِزاً، لولا يُبْس الشنِّ وقحُوله، وأنّه ليس مما يلتوي على رجليها، وقال آخر:

ابنَ آوى مُوثَقٌ تحت غرْزِها هو لم يَكْلِمْ بنابَـيهِ ظَـفّـرا

وقال صاحب الديك: حديث عمرو بن شُـعيب عـن عبـد اللّـه بـن عمر وعبد اللّه ابن عباس، أنّ رسول اللّه صلى اللـه عليـه وسـلم قال: لا يحِلُّ لرجلٍ أَنْ يُعطِيَ عَطِيَّةً ويرجِـع فيهـا، إلاّ الوالـد فيمـا يعطي ولده، ومثل الذي يُعطي العطيَّةَ ثم يرجِعُ فيها كمثل الكلب يأكـــل، حـــتى إذا شَـــبِعَ قـــاءَ ثـــم عـــاد فـــي قيئـــه. وعن عبد اللّه بن عمـر قـال: قـال رسـول اللّـه صـلى اللـه عليـه وسلم: لا يرجع في هِبَتـه إلاّ الوالـد مـن ولـده، والعائِـدُ فـي هبتِـه كالعائـــــــــــد فـــــــــــي قيئـــــــــــه. وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد اللّه بن جعفـر، أنّ أبـا بكـرٍ

أمر بقتل الكلب، قال عبد اللّه بن جعفر: وكـانت أمِّـي تحـتَ أبـي بكر، وكان جروٌ لي تحت سريره فقلت له: يا أبـتِ، وكلـبي أيضـاً؟ فقال: لا تقتلوا كلبَ ابني، ثمّ أشار بإصبعه إلى الكلب - أي خـذوه مـــن تحـــت الســـرير - وأنـــا لا أدري، فقتـــل. وإسماعيل بن أُميَّة قال: أُمَّتان مـن الجـنِّ مُسِـختا، وهمـا الكلاب والحيَّـــات.

ابن المبارك قال: إذا عرف الرجلُ قدْرَ نفسه صار عِند نفسِه أذلَّ من الكلب.

لؤم الكلب

قال صاحب الديك - وذَكَرَ الكلب فقال -: من لؤمِه أنَّـه إذا أسـمنْتَه أكلـك، وإِن أجعْتَـه أنكـرك، ومن لؤمه اتِّبَاعه لمن أهانه، وإِلفُه لمن أجاعَه؛ لأنه أجهلُ مـن أن يـأنس بمـا يـؤنس بـه وأشـره وأنَهـمُ وأحـرصُ وألـجُّ مـن أن يـذهب بمطمعتـه مـا يـذْهَب بمطـامع السـباع. ومن جهلـه أيضـاً أَنّـا لـم نجـدْه يحـرُس المحسـنين إليـه بنبـاحه، وأربـابَهُ الـذين ربّـوه وتبنُّـوه إلا كحراسته لمن عَرفه ساعةً واحدة، بل لمن أذلّه وأَجاعَه وأَعطشه، بل ليـس ذلـك منـه حراسـةً، وإنَّما هو فيه من فضل البَذَاء أَو الفُحْش، وشدَّة التحرُّش والتسرُّع، وقد قال الشاعر في ذلك:

تخازَرْتُ وما بي من خَزَرٍ   كسَرت العينَ من غير عَوَر
إذا بُوذيت من كلبٍ ذَكَـرْ   أسودَ قَزَّاحٍ يُعوِّي في السَّحَر

وإنَّما ذلك شكل من شكل الجبن، وكالذي يعـتري نِسَـاءَ السِّـفْلة من الصخب.

جبن الكلب

والكلب جبانٌ وفيه جرأة ولؤم، ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيُّب كان أمثل، ومن فرط الجبن أنّه يفزَع من كلِّ شيء وينبَحُه.

والبرذون ربَّما رمَح البرذونَ مبتدئاً، وقلق وصهل صَهِيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضْل قوَّةٍ يجدُها في نفسه على المرموح، ولكنَّه يكون جباناً، فإذا رأى البِرذون الذي يظنُّ أنَّه يعجِز عنه أراه الجبنُ أنَّه واقعٌ به، فعندها يقلَق وإذا قلِق رمَح، وهذه العلَّة تعرض للمجنون؛ فإنَّ المجنونَ الذي تستولي عليه السَّوداء، ربما وثَب على من لا يعرفه، وليس ذلك إلاّ لأنَّ المِرَّة أوهمتْه أنَّه يريده بسوء، وأنّ الرأي أن يبدأه بالضرب، وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماءِ والنار.

مما حدث للنظام

فأمّا الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيَّار النظّام، فإنّا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأبُلَّة، وتقدَّمتُه شيئاً، وألح عليه كلبٌ من شكل كلاب الرِّعاء، وكره أن يعدوَ فيغريَه ويُضَرِّيه، وأنف أيضاً

من ذلك - وكانَ أنِفاً شديدَ الشَّكيمةِ أبَّاء للهَضيمة - وكرِه أن يجلسَ مخافةَ أن يشغَر عليه أو لعلَّه أن يعضَّه فيَهْرِتَ ثوبَه، وألحَّ عليه فلم ينله بسوءٍ، فلمَّا جُزْنا حدَّه وتخلَّصنا منه، قال إِبراهيم في كلامٍ له كثير، يعدِّد خصالَه المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال: إن كنت سَبْع فاذهبْ مع السِّباع، وعليك بالبرارِي والغِياض، وإن كنت بَهيمة فاسكتْ عنَّا سكوت البهائم ولا تنكر قولي وحياتي عنه بقولٍ ملحون، من قولي: إن كنت سَبْع ولم أقلْ إن كنت سبعا.

إفساد الإعراب لنوادر المولدين

وأنا أقول: إنّ الإعرابَ يفسد نوادر المولَّدِين، كما أنّ اللحنَ يُفْسِد كلام الأعراب؛ لأنّ سامعَ ذلك الكلام إنَّما أعجبتْه تلك الصورة وذلك المخرَج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دَخَلْت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بِسُخْفِه وبعضِ كلام العجميَّة التي فيه - حروفَ الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوَّلتَه إلى صورةِ ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهلِ المروءَة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظْمِه، وتبدَّلَتْ صورته.

ثم قال أبو إسحاق: إِنْ أطعمَه اللصُّ بالنهار كسرةَ خُبْزٍ خلاّه، ودارَ حولَه ليلاً، فهو في هذا الوجه مرتشٍ وآكلُ سُحت؛ وهو مع ذلك أسمجُ الخلْقِ صوتاً، وأحمق الخلق يقَظَةً ونوماً، وينام النَّهارَ كله على نفس الجادَّة، وعلى مدقِّ الحوافر، وفي كل سوقٍ وملتقَى طريق، وعلى سبيل الحمُولة وقد سهر الليلَ كله بالصياح والصَّخَب، والنَّصَب والتَّعب، والغيظ والغضب، وبالمجيء والذَّهاب، فيركبه من حبِّ النوم على حسب حاجته إليه، فإن وطئتْه دابَّةٌ فأسوَأُ الخَلْقِ جزَعاً وأَلأمه لؤماً، وأكثره نُباحاً وعُواءً، فإن سلم ولم تَطَأهُ دابَّةٌ ولا وطئه إنسان، فليست تتمُّ له السلامة؛ لأنّه في حالِ متوقِّعٍ للبليَّةِ، ومتوقِّعُ البليَّةِ في بَليَّة، فإنْ لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأُ حالاً منه؛ لأنّه أسوَؤُهم جزَعاً، وأقلُّهم صبراً، ولأنّه الجاني ذلك على نفسه، وقد كانت الطُّرق الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة. وبعد فإنّ كلَّ خُلُقٍ فارقَ أخلاقَ النَّاس فإنّه مذموم، والناس ينامون بالليل الذي جعله اللّه تعالى سكَناً، وينتشرونَ بالنّهار الذي جعله اللّه تعالى لحاجات الناس مَسْرحاً.

قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول: إنّ سهره بالليل ونومَه

بالنهار خَصْلَةً ملوكيَّة لقلنا، ولو كان خلافُ ذلك ألذّ لكانت الملـوك بذلك أولى، وأمَّا الذي أشرتمْ به مـن النـوم فـي الطـرق الخاليـة، وعبتُموه به من نـومه علـى شـارعاتِ الطُّـرق والسِّـكَكِ العـامرة وفي الأسواق الجامعة، فكلُّ امرئٍ أعلم بِشَـأْنِهِ، ولـولا أنّ الكلـبَ يعلمُ ما يَلقَى من الأحـداث والسُّـفهاءِ وصِـبيان الكتَّـاب، مـن رضِّ عظامِه بألواحهم إذا وجدوه نائِماً في طريق خـالٍ ليـس بحضـرته رجالٌ يُهابون، ومشيخةٍ يرحمون ويزجرون السـفهاءَ، وأنّ ذلـك لا يعتريه في مجامع الأسـواق - لقَـلّ خلافـه عليـك، ولمـا رقـد فـي الأسواق، وعلى أنّ هذا الخُلُق إنَّمـا يعـتري كلاب الحُـرَّاس، وهـي الـتي فـي الأسـواق مأواهـا ومنازلهـا.

وبعد فمن أخطأُ وأظلمُ ممَّن يكلِّف السباعَ أَخلاقَ الناس وعـادات البهائِم وقد علمْنا أنّ سباعَ الأرض عـن آخرهـا إنَّمـا تَهيـج وتَسـرح وتلتَمس المعيشةَ وتتلاقى على السفاد والعظال ليلاً؛ لأنهـا تبصـر بالليل.

سبب اختيار الليل للنوم

وإنما نـام النـاسُ بالليـل عـن حـوائِجِهم، لأنّ التمييـز والتفصـيل والتبيُّن لا يمكنهم إلاّ نهاراً، وليس للمتعَب المتحرِّك بدٌّ من سكون يكون جَماماً له، ولولا صرفُهم التماسَ الجَمام إلـى الـوقت الـذي لو لم يناموا فيه والوقتُ مانع من التمييز والتبيُّن، لكـانت الطبـائعُ تنتقض، فجعلوا النَّوم بالليل لضـربين: أحـدهما لأنّ الليـلَ إذ كـان من طبعه البرد والرُّكود والخُثورة، كان ذلك أنزَعَ إلـى النـوم ومـا دعا إليه، لأنّه من شـكله، وأمّـا الـوجه الآخـر فلأنّ الليـلَ مـوحِشٌ مخُـوف الجـوانب مـن الهـوامِّ والسـباع، ولأنّ الأشـياء المبتاعـةَ والحاجـات إلـى تمييـز الـدنانير، والـدراهم، والحبـوب، والـبزور، والجواهر، وأخلاط العطر، والبَرْبَهار، وما لا يحصى عدده، فقادتهم طبـائعُهم وسـاقتهم غرائزهـم إلـى وضـعِ النـوم فـي موضـعه، والانتشار والتصرف في موضعه على ما قدَّر اللّه تعالى مـن ذلـك وأحبَّه، وأمَّا السباع فإنها تتصرَّف وتبصر بالليـل، ولهـا أيضـاً علـلٌ أخرى يطول ذكرُها.

نوم الملوك

وأمَّا ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنَّهار وسهرهم بالليـل، فـإنّ الملوكَ لـم تجهـلْ فضـلَ النـوم بالليـل والحركـةِ بالنهـار، ولكـنَّ الملوك لكثرة أشغالها فضلَت حوائِجها عـن مقـدار النهـار ولـم يتّسع لها، فلما اسـتعانَت بالليـل ولـم يكـن لهـا بـدٌّ مـن الخلـوة بالتدبير المكتوم والسرِّ المخزون، وجمعت المقدارَ الفاضلَ عـن اتِّسَاع النهار إلى المقدارِ الذي لا بدَّ للخلوة بالأسرار منه؛ أخذتْ من الليل صدراً صـالحاً، فلمَّـا طـال ذلـك عليهـا أعانهـا المِـران، وخـفَّ ذلـك عليهـا بالدُّربـة.

وناسٌ منهـم ذهبـوا إلـى التنـاول مـن الشـراب وإلـى أن سَـماع الصوت الحسن مما يزيد في المُنّة، ويكون مادَّةً للقوة، وعلمـوا أنّ العوامَّ إذا كانت لا تتناول الشّـرابَ ولا تتكلّـف السـماع علـى هذا المعنى، أن ظنّها سيسـوءُ، وقولَهـا سـيكثُر؛ فـرأوا أنّ الليـل أسترُ وأجدرُ أن يتمَّ به التدبير، وقال الراجز:

أخفَى والنَهارُ أفْضَحُ

وقالوا في المثل: اللَّيل أخفَى للويل.

تلهي المحزون بالسماع

وما زالت ملوكُ العجَم تلهّي المحزون بالسماع، وتعلِّل المريض، وتَشغله عن التفكير، حتَّى أخذت ذلك ملوكُ العرب عن ملوك العجم، ولذلك قال ابن عَسَلة الشيباني:

مُدْجنةٍ تعلِّلنُا حتَّى نَنَامَ تَنَامَ تناوُمَ العُجْمِ
فصحوت والنَّمَرِيُّ يحسَبُها عَمَّ السِّماكِ وخالَةَ النَّجْم

النجم: واحد وجمع، وإنَّما يعني في البيت الثريَّا، ومدجنة: يعني سحابةً دائِمة.

قول أم تأبط شراً في ولدها وفيما يحكى عن امرأةٍ من عقلاء نساءِ العرب - وإذا كان نساءُ العرب في الجملة أعقلَ من رجال العجَم، فما ظنُّكَ بالمرأةِ منهم إذا كانت مقدَّمة فيهم - فروَوا جميعاً أنَّ أمَّ تأبَّط شرّاً قالت: واللّه ما وَلَدْتُه يَتْناً، ولا سقَيته غَيْلاً ولا أبتُّه على مَأْقة.

فأمَّا اليتن فخروج رِجل المولود قبلَ رأسِه، وذلك علامة سُوءٍ، ودليلٌ على الفساد، وأَما سَقي الغَيْل، فارتضاع لبن الحبلى، وذلك فسادٌ شديد.

ما ينبغي للأم في سياسة رضيعها حين بكائه وأما قولها في المأقة، فإنَّ الصبيَّ يبكي بكاءً شديداً متعِباً موجِعاً، فإذا كانت الأمُّ جاهلةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدُّوار، أو نوّمته بأن تضرب يدَها على جنبه، ومتى نام الصبيُّ وتلك الفزْعةُ أو اللَّوعة أو

المكروه قـائمٌ فـي جـوفه، ولـم يعلَّـلْ ببعـضِ مـا يلهيـه ويُضـحكه ويسرُّه، حتى يكون نومه علـى سـرورٍ، فيسْـرِي فيـه ويعمَـل فـي طباعه، ولا يكون نومه على فـزعٍ أو غيـظ أو غـمٍّ؛ فـإنَّ ذلـك ممَّـا يعمل في الفساد، والأمُّ الجاهلةُ والمرقِّصة الخرقاء، إذا لم تعرف فرقَ ما بيـن هـاتين الحـالتين، كثُـر منهـا ذلـك الفسـاد، وتـرادَفَ، وأعان الثاني الأوّلَ والثالثُ الثانيَ حتَّى يخرجَ الصبيُّ مائقـاً، وفـي المثل: صاحبي مَئِق وأنا تئقٌ، يضرب هذا المثل للمسافر الأحمـق الرَّفيق والزَّميل، وقد استفرغه الضَّجر لطول السفر فقلبُه ملآن، فأوَّلُ شيءٍ يكون في ذلـك المئـق مـن المكـروه لـم يحتملـه بـل يَفيض ضـجره عليـه، لامتلائـه مـن طـول مـا قاسـى مـن مكـروه السـفر.

ما يحتاج إليه الملوك فاحتـاج حُـذَّاق الملـوكِ وأصـحابُ العنايـات التامَّةِ، أن يداووا أنفسَهم بالسـماع الحسـن، ويشـدُّوا مـن متْنِهـم بالشراب، الذي إذا وقعَ في الجَوف حـرَّك الـدَّم، وإذا حـرك الـدَّم حرَّك طباعَ السرور، ثمَّ لا يزالُ زائداً في مِكيال الـدم، زائـداً فـي الحركة المولِّدة للسرور، هذه صفةُ الملوك، وعليـه بنـوا أمرَهـم، جهـل ذلـك مَـنْ جهلـه، وعَلمـه مـن علمـه.

وقال صاحب الكلب: أمَّا تركُه الاعتراضَ على اللِّصِّ الذي أطعمـه أيَّاماً وأحسنَ إليه مِراراً، فإنَّما وجب عليه حفـظُ أهلِـه لإحسـانهم إليه، وتعاهدهم له، فإذا كان عهده ببرِّ اللص أحدَث من عهـده بـبرِّ أهله، لم يكلَّف الكلبُ النظرَ في العواقب، وموازنة الأمور، والذي أَضمر اللصُّ من البَيات غَيْبٌ قد سُتِر عنه؛ وهو لا يَدري أجاء ليأخذَ أم جاء ليعطيَ، أو هم أمـروه أو هـو المتكلِّـف لـذلك؛ ولعـلَّ أهلـه أيضاً أن يكونوا قد استحقُّوا ذلك منه بالضَّرب والإجاعة، وبالسـبِّ والإهانة. وأمَّا سماجة الصَّـوت فالبغـل أسـمجُ صـوتاً منـه، كـذلك الطاووس على أنَّهـم يتشـاءَمون بـه، وليـس الصَّـوت الحسـنُ إلاّ لأصـناف الحمـام مـن القَمـاريِّ والدَّبَاسـيّ، وأصـناف الشَّـفانين والورَاشين، فأمّا الأسد والذئب؛ وابن آوى والخنزير، وجميعُ الطير والسباع والبهائِم فكذلك، وإنَّمـا لـك أن تـذمَّ الكلـبَ فـي الشـيء الذي لا يعمّ، والناس يقولون: ليس في الناس شيءٌ أقلَّ من ثلاثةِ أصناف: البيان الحسن، والصوت الحسنِ، والصورة الحسـنة؛ ثـمّ النَّاس بعدُ مختلِطون ممتزجون، وربّما كان مِنَ النـاسِ بـل كـثيراً ما تجـدُه وصـوته أقبـحُ مـن صـوت الكلـب، فلـم تخصّـون الكلـبَ بشيءٍ عامَّةُ الخلق فيه أسوأ حالاً مـن الكلـب؟ وأمـا عُـواؤه مِـن

وَطْء الدَّابّة وسوءُ جزَعه من ضرب الصِّبيان، فجـزعُ الفـرَس مـن وقْع عذَبة السَّوط، أسوأ من جزَعه من وقع حافر بِرذون، وهو في هـــذا الموضـــع للفـــرس أشـــدُّ مناســـبةً منـــه للحمـــار. على أنَّ الدِّيكَ لا يُذكَر بصبرٍ ولا جزَع.

نوادر ديسيموس اليوناني

قـال صـاحب الـديك: حـدَّثني العُتْـبي قـال: كـان فـي اليونـانيِّين ممرور له نوادرُ عجيبة، وكان يسمَّى ديسيموس، قـال: والحكمـاء يروون له أكثرَ من ثمانين نادرة ما منها إلاّ وهي غُـرَّةٌ؛ وعيـنٌ مـن عُيون النوادر: فمنها أنَّه كان كلَّما خـرجَ مـن بيتـه مـع الفجـر إلـى شاطئ الفرات للغائط والطهور، ألقَى في أصـل بـاب دارِه وفـي دُوَّارته حجراً، كي لا ينصـفق البـاب، فيحتـاج إلـى معالجـة فتحـه، وإلى دفعه كلَّما رجَع من حاجته، فكان كلَّما رجـع لـم يجـد الحجَـر في موضعه، ووجد البابَ منصفقاً، فكَمن له في بعضِ الأيّام ليـرى هذا الذي يصنع ما يصنع، فبينا هو في انتظاره إذ أقبَـل رجـلٌ حتَّـى تناوَلَ الحجر، فلمَّا نحَّاه عن مكانه انصفق البابُ، فقال له: ما لَـك ولهذا الحجر؟ وما لك تأخذه؟ فقال لم أعلـمْ أنَّـه لـك، قـال: فقـد

علمـــــــــــتَ أَنَّـــــــــــه ليــــــــــس لـــــــــك.

قال: وقال بعضهم: مـا بـال ديسـيموس يعلِّـم النـاسَ الشِّـعرَ ولا يقول الشعر؟ قال: ديسيموس كالمِسَنِّ الـذي يشـحَذ ولا يقطـع.

ورآه رجلٌ يأكل في السُّوق فقال: أتأكل في السـوق؟ فقـال: إذا جـــاع ديســـيموس فـــي السُّـــوق أكـــلَ مـــن الســـوق.

قال: وأسمعه رجلٌ كلاماً غليظاً وسطَا عليه، وفحش في القـول، وتحلَّم عنه فلم يجبه، فقيل له: مـا منعـك مـن مكافـأته وهـو لـك مُعرِض؟ قال: أرأيتَ لو رمحَك حِمارٌ أكنتَ ترمحُه؟ قال: لا، قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال:لا، قال: فإنَّ السـفيهَ إمّـا أن يكون حماراً، وإما أن يكون كلباً؛ لأنَّه لا يخلو من شَرارَةٍ تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه.

أمثال أخرى في الكلب

وقال صاحب الديك: يقال للسفيه إنَّما هو كلب، وإنَّما أنتَ كلبٌ نَبَّاح، ومـا زال ينبَـح علينـا منـذُ اليــــوم، وكلــــبُ مَــــن هــــذا؟ ويــــا كلــــب ابــــن الكلــــب، وأخسَــــأْ كلبــــاً.

وقالوا في المثل: احتاج إلى الصُّوف مَنْ جَزَّ كلبَه، و أجِعْ كلبَك يتبَعْك، وأحبُّ شـيء إلـى الكلـبِ خانقهُ، وسمِّن كلبَك يأكلك، وأجوَع من كَلْبة حَومَل، وكالكلب يربِـض فـي الآرِيِّ فلا هـو يأكـل ولا يــــــــــــــــــــــدَعَ الدابَّــــــــــــــــــــــة تعتلــــــــــــــــــــــف.

براقـــــش وفـــــي أمثـــــالهم فـــــي الشـــــؤم: علـــــى أهلهـــــا دلَّـــــتْ بَراقِـــــشُ.

وبَراقش: كلبة نبحتْ على جيشٍ مرُّوا في جوف الليل وهم لا يشعُرون بموضع الحـيِّ، فاسـتدلُّوا عليهـــــــــــــــم بنُبـــــــــــــــاح الكلبـــــــــــــــة فاســـــــــــــــتباحوهم.

الجنّ والحنّ وقال صاحب الدِّيك: روى إسماعيلُ المكِي عن أبي عَطاءٍ العُطارِدي قـال: سـمعت ابن عبَّاس يقول: السُّود من الكلاب الجِنّ، والبُقْع منها الحنّ، ويقال إنَّ الحنَّ ضَـعفة الجـنِّ، كمـا أنَّ الجنيَّ إذا كفر وظلَم وتعدَّى وأفسد، قيل شـيطان؛ وإن قـوي علـى البنيـان والحمـل الثقيـل، وعلى استراق السمع قيل مارد، فإنْ زاد فهو عِفريت، فإن زاد فهو عبقـريّ، كمـا أنّ الرجـلَ إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع، فإن زاد فهو البطل، فإِن زاد قالوا: بُهْمـة، فـإن زاد قـــــــــالوا: أَلْيَـــــــــس، فهـــــــــذا قـــــــــول أبـــــــــي عبيـــــــــدة.
وبعض النَّاس يزعم أنَّ الحِنّ والجنَّ صِنفان مختلفان، وذهبوا إلى قول الأعرابي حينَ أتـى بعـضَ الملوك ليكتتب في الزَّمْنَى، فقال في ذلك:

تكتبوا الزَّمْنَى فإنِّي لَزَمِنْ   ظاهر الدَّاءِ وداءٍ مُسَتَكِنّ
أهوِي في شياطينَ تُرِنّ   مختلفِ نجارُهمْ حِنٌّ وجـنّ

ما ورد من الحديث والخبر في- قتل الكلاب وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر: قال: أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من الباديـة فنقتلـه، ثـم نهانا عن قتلهـا وقـال: عليكـم بالأسـود البهيـم ذي النكتـتين علـى عينيـــــــــــــــه؛ فـــــــــــــــإنه شـــــــــــــــيطان.
وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول اللّه صـلى اللـه عليـه وسلم بقتل الكلاب، فكنا نقتلها كلها حتى قال: إنها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإِنه شـيطان، وعبـد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن ابـن عمـر، ونـافع عـن أبـي رافـع قـال:

أمرَني رسول اللّه صلى الله عليـه وسـلم أنْ أقتـلَ الكلاب، فكُنَّـا نقتُلُها؛ فانتهيت إلى ظاهر بنـي عـامر، وإذا عجـوزٌ مسـكينة معهـا كلب وليس قربها إنسان فقالت: ارجعْ إلى النبيِّ صلى اللـه عليـه وسلم فأخبره أنَّ هذا الكلبَ يُؤنِسـني، وليـس قربـي أحـد، فرجـع إليه فأخبره، فأمر أن يقتلَ كلبها فقتله، وقال في حديث آخر: إنَّـه لمَّـا فـرَغ مـن قتـل كلاب المدينـة وقتـلِ كلْـب المـرأة قـال: الآنَ استرحْت، قالوا: فقد صحَّ الخبرُ عن قتـل جميـع الكلاب، ثـمَّ صحَّ الخبر بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منهـا، مـع الخـبر بأنَّهـا مـن الجـنّ والحـنّ، وأنَّ أمَّـتين مُسِـختا، وهمـا الحيَّـات والكلاب. ثم روى الأشعث عن الحسن قال: ما خطَب عثمانُ خُطبةً إلاّ أمرَ بقتْل الكلاب وذبح الحمام، وعن الحسن قال: سمعت عثمـانَ بـن عفَّـانَ يقـول: اقتلـوا الكلابَ واذبحـوا الحمـام. قال: وقال عطاءٌ: في قتـل كَلْـب الصـيد إذا كـان صـائداً أربعُـون درهماً، وفي كلب الزرع شاة.

ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب

والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاءٍ عن إسماعيل بن حسان عن عبد اللّه بن عمر قال: قضى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في كلب الصَّيدِ بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة، وفي كلب الزرع بفَرَق من طعام، وفي كلب الدار بفَرَق من تراب، حقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبِضه.

قالوا: والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفَرَق. وفي قوله: وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه، دليلٌ على أنّه عقوبة على اتخاذه وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، وعلى وجه الإرغام لمالكه، ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها، لما أكْرِه على قبضه أحد، ولكان العفو أفضل.

ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب

قال: وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار مَن هو له كاره.

ابن أبي عَروبة عن قَتادة عن أبي الحكم: أنّ ابنَ عمر سئل عن

ذلــــك فقـــال: المـــأثَمُ علـــى ربِّ الـــدَّار الـــذي يملكهـــا.

وعن ابن عُمر قال: من اتَّخذ كلباً ليس بكلـب زَرْع ولا ضَـرْع ولا صَيد نَقَص من أجره كلَّ يـوم قيـراط، فقـال رجـل: فـإن اتخـذه رجــلٌ وهــو كــاره؟ قــال: إنَّمــا إثمــه علــى صــاحب الــدار.

وصَدَقة بن طَيْسَلة المازنيّ قال: سألت الحسن قلت: إنَّ دورَنــا في الجبّان وهي مُعْوِرة وليس عليها أبواب، أفترى أن نتَّخذ فيهـا كلابـــــــــــــــــاً؟ قـــــــــــــــــــال: لا لا.

وعن ابن أبي أُنيسة عن سالم عن أبيـه قـال: قـال رسـول اللّـه صلى الله عليه وسـلم: مـن اقتَنَـى كلبـاً إلاَّ كلـب صـيدٍ أو كلـب ماشـــية، نقـــص مـــن أجـــره كـــلَّ يـــوم قيراطـــان.

وعن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: من اقتنى كلباً فـــإنَّه ينقـــص مـــن عملـــه كـــلَّ يـــوم قيـــراط.

ويونس عن أبيه عن إسحاق قال: حدثنا هُنَيدَةُ بن خالد الخزاعي قال: انطلقت مع نفرٍ من أصحاب النبي صلى الله عليـه وسـلم، نعودُ رجلاً من الأنصار، فلمَّا انتَهوا إلى باب الدار ثارت أكلُبٌ في وجوه القوم، فقال بعضهم لبعض: ما يُبقي هؤلاءِ من عمل فلانٍ شـــيئاً، كـــلُّ كلـــبٍ منهـــا ينقُـــص قيراطـــاً فـــي كـــلِّ يـــومٍ.

هشام بن حسان عـن أبـي هريـرة عـن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم قال: من اتخذ كلبـاً ليـسَ بكلـبِ صـيدٍ ولا زرْع ولا ضَـرْع، فإنه ينقُص من أجره كلَّ يوم قيراطٌ، والقيراطُ مثـلُ جبـل أحُـد. يونس عن أبي إسحاق عن مجاهد قال: أقبل عبد اللّه بن عمـرو بن العاص حتَّى نزل ناحية مكَّـة، وكـانت امـرأةُ عـمٍّ لـه تهـاديه، فلما كانت ذاتَ يوم قالت له: لو أرسلتَ إليَّ الغنَـم فاستأنسـتُ برعائها وكلابها فقد نزلتُ قاصية فقـال: لـولا كلابُهـا لفعلـتُ؛ إنَّ الملائكةَ لا تدخلُ داراً فيها كلب. الثوريُّ عـن سـماك بـن حـرب، أنَّ ابنَ عباس قال على مِنبر البصرة: إنَّ الكلاب مـن الجِـنّ وإنّ الجِنّ من ضَعفة الجن، فإذا غشيكم منها شيءٌ فألقُوا إليها شيئاً أو اطـردوه، فـإنَّ لهـا أَنفُـسَ سـوء، وهُشـيم عـن المغيـرة عـن إبراهيم قالوا: لم يكونـوا ينهَوننـا عـن شـيء مـن اللعـب ونحـنُ غلمـان إلاَّ الكلاب.

قال صاحب الديك: روى إبراهيم بـن أبـي يحيـى الأسـلميّ، عـن محمّد بن المنكدِر، عن ربيعة بن أبي عبـد الرحمـن قـال: تقـامر رجُلان على عهد عُمر بديكين، فأمر عمر بالديكة أن تُقْتَـل فأتـاه رجلٌ من الأنصار فقال: أمرتَ بقتل أمَّـةٍ مـن الأمـم تسـبِّح اللّـه

تعــــــــــــالى؟ فــــــــــــــأمر بتركهـــــــــــــا.

وعــن قَتـادة أنّ أبـا موسـى قـال: لا تتَّخـذوا الـدَّجاج فـي الـدُّور فتكونوا أهل قرية، وقـد سـمعتم مـا قـال اللّـه تعـالى فـي أهـل القرى: "أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتـاً وَهُـمْ نَـائِمُونَ". وهذا عندي مـن أبـي موسـى ليـس علـى مـا يظنُّـه النـاس، لأنّ تأويله هذا ليس على وجه، ولكنَّه كرِه للفُرسان ورجـالِ الحـرب اتخاذَ ما يتّخذه الفلاَّح وأصحابُ التعيُّش، مـع حـاجته يومئـذ إلـى تفرُّغِهم لحروب العجم، وأخْذهم في تأهُّب الفُرسان وفـي دُرْبـة رجال الحرب، فإن كان ذهب إلى الذي يظهَـرُ فـي اللفـظ فهـذا تأويــــــــــلٌ مرغــــــــــــوب عنــــــــــــه.

وقال صاحب الكلب لصاحب الديك: فقد أمر عُمَر بقتـل الدِّيَكـة ولم يستثنِ منها شيئاً دون شيء، ونهـى أبـو موسـى عـن اتخـاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، والدِّيكةُ تدخل في هـذا الاسم، واسم الدَّجاج يجمعها جميعـاً، ورويتـم فـي قتـل الحمـام مثلَ روايتكم في قتل الكلاب، ولم أركم رويتم أنّ الحمام مِسْخ، ولا أنَّ بعضَه من الجن وبعضه مـن الجِـن، ولا أنَّ أمـتين مسـختا وكان أحدهما الحمام، وزعمتم أنَّ عمـر إنَّمـا أمـر بقتـل الدِّيَكـة

حين كره الهِراش بها والقمار بها، فلعلَّ كلابَ المدينـة فـي تلـك الأيَّام كثُر فيها العَقُور وأكثر أهلُها من الهِراش بها والقمار فيهــا، وقد علمتم أنّ ولاة المدينة ربَّما دَمَروا على صـاحب الحمـام إذا خيف قِبَلَه القِمار وظنُّوا أنه الشَّرَف، وذكروا عنه الرَّمْيَ بالبُندق وخديعـةَ أولادهـم بـالفراخ، فمـا بـالكم لـم تُخرِّجـوا للكلابِ مـن التأويــل والعــذْر، مثــلَ الــذي خرَّجتــم للحمــام والديكــة. المسخ من الحيـوان ورويتـم فـي الجـرَّيِّ والضِّـباب أنهمـا كانتـا أمَّـتين مُسـختا، وروى بعضـهم فـي الإرْبيانـة أنَّهـا كـانت خيّاطـة تسرِق السُّلوك، وأنَّها مُسِخت وترك عليها بعضُ خيوطها لتكــون علامةً لها ودليلاً علـى جِنْـس سـرقتها، ورويتـم فـي الفـأرة أنَّهـا كانت طحّانة، وفي سُهيل أنّه كان عشّاراً باليمن وفي الحيَّة أنّهـا كـانت فـي صـورة جَمَـل، وأنَّ اللّـه تعـالى عاقبهـا حـتى لاطَهـا بالأرض، وقسم عقابَها على عشرة أقسام، حين احتملت دخــولَ إِبليس في جوفها حتَّى وَسـوَس إلـى آدم مِـنْ فِيهـا، وقلتـم فـي الوَزَغة وفي الحكأة ما قلتم، وزعمتم أنّ الإبل خُلِقَت من أعنـان الشياطين، وتأوّلتم في ذلـك أقبـحَ التأويـل، وزعمتـم أنَّ الكلابَ أمّةٌ من الجـنّ مُسـخت، والـذئبُ أحـقُّ بـأن يكـون شـيطاناً مـن

الكلـب، لأنَّـه وحشـيٌّ وصـاحبُ قِفـار، وبـه يُضـرَب المثـل فـي التعدِّي، والكلب ألوفٌ وصاحبُ ديار، وبه يُضرَبُ المثل، والـذئب خَتُور غدّار، والكلب وفيٌّ مناصح، وقـد أقـام النـاسُ فـي الـدّيار الكلابَ مُقامَ السَّنانير للفأر، والذئب مضرَّةٌ كلُّه، والكلبُ منافعُه فاضلةٌ على مضارِّه، بل هي غالبة عليها وغامرةٌ لها، وهذه صـفة جميـــــــــعِ هـــــــــذه الأشـــــــــياء النافعـــــــــة.

والناس لم يُطبِقوا على اتِّخاذها عبَثاً ولا جهْلاً، والقضاة والفقهـاءُ والعُبَّاد والوُلاة والنُّسَّاك، الذين يأمرون بـالمعروف وينهَـون عـن المنكـر، والمحتَسِـبة وأصـحاب التكلُّـف والتسـليم جميعـاً، لـم يطبقوا على ترك النَّكِير على ما يشاهدونه منهـا فـي دورِ مَـنْ لا يعصيهم ولا يمتنِع عليهمْ إلاّ وقد عَلِموا أنَّه قدْ كـان لقتـلِ الكلابِ بأعيانها في ذلك الـدَّهر، معنـى، وإلاَّ فالنَّـاسُ فـي جميـع أقطـارِ الأرض لا يُجمِعون على مسـالمةِ أصـحاب المعاصـي، الـذين قـد خلعوا عُذُرَهم وأبرزوا صَفحتَهم، بل ما ترى خصـماً يطعـن علـى شاهدٍ عندَ قاض بـأنَّ فـي داره كلبـاً، ولا تَـرَى حَكَمـا يـردُّ بـذلك شهادة، بل لو كان اتِّخاذُ الكلاب مأموراً بـه، لَمـا كـان إلاّ كـذلك. ولو أنَّكم حملتم حكم جميع الهَداهد على حكـم هدهـد سـليمان،

وجميعَ الغربان على حكم غُراب نوح، وجميعَ الحمام علـى حكـم حمامة السفينة، وجميعَ الذئاب على حكم ذئب أُهبـان بـن أوس، وجميعَ الحميرِ على حكم حمار عُزَير - لكان ذلك حكمـاً مـردوداً.

أمور حدثت في دهر الأنبياء وقد نعرِض لخصائص الأمور أسـبابٌ في دهر الأنبياءِ ونزول الوحي، لا يعرض مثلُها في غيـر زمـانهم: قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض على صورة دِحيـةَ الكَلبيّ، وكان إبليـس يـتراءى فـي السِّـكك فـي صـورة سُـرَاقة المُدْلجِي، وظهر فـي صـورة الشـيخ النَّجْـدي، ومثـل هـذا كـثير.

ما يسمى شيطاناً وليس به فإنْ زعمتم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نظَرَ إلى رجـلٍ يتبـع حمامـاً طيَّـاراً فقـال: "شـيطانٌ يتبـع شَيطاناً"، فخبِّرونا عمن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلةِ البُلدان من الحرميِّين والبصريِّين ومن بني هاشم إلى من دونَهم، أتزعمون أنَّهم شياطينُ على الحقيقـة، وأنَّهـم مـن نجـل الشياطين؛ أو تزعمون أنَّهـم كـانوا إنسـاً فمُسِـخوا بعـدُ جِنّـاً؛ أم يكون قوله لـذلك الرجـل شـيطان، علـى مثـل قـوله "شَـيَاطِينَ الجِنِّ وَالإنْس" وعلى قـول عمـر: لأنَزِعـنَّ شـيطانَه مـن نُعرتِـه، وعلى قول منظور بن رواحة:

أتاني ما تقولُ تَـرَقَّـصَـتْ شياطينُ رأْسِي وانتَشَيْنَ من الخَمْرِ

وقد قال مَرَّةً أبو الوجيه العُكْلي: وكـان ذلـك حيـن ركبنـي شـيطاني قيـل لـه: وأيَّ الشـياطينِ تعني؟ قال: الغضب.

والعرب تسمِّي كلَّ حيّةٍ شيطاناً، وأنشد الأصمعي:

مثنى حَضْرَميٍّ كأنَّهُ شَيطانٍ بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ

وقالت العرب: ما هو إلاّ شيطان الحَمَاطة، ويقولون: ما هو إلاّ شيطان يريدون القبح؛ وما هو إلاّ شيطان، يريدون الفِطنة وشدَّة العارضة.

وروي عن بعض الأعراب في وقعة كـانت: واللّـه مـا قتلْنـا إلاَّ شَـيطَانَ بَرِصـاً، لأنَّ الرجـل الـذي قاتلهم كان اسمه شيطان، وكان به برص.

وفي بني سعد بنو شيطان، قال طفيلٌ الغنوي:

وشيطان إذ يدعوهم ويُثَوِّب

وقال ابن مَيّادة:

أتاني ما تَقُول محاربٌ تغنَّت شياطيني وجُنَّ جُنونُها

وقال الراجز:

وإن كنتُ حديثَ السِّنِّ وكانَ في العين نُبوٌّ عنِّي شيطاني كبيرُ الجِنَّ

وقال أبو النَّجم:

وكلَّ شاعرٍ من البَشَـرْ شَيطانُه أُنثى وشَيطانِي ذَكَرْ

وهذا كلُّه منهم على وجه المثَل، وعلى قول منظور بن رَواحَة:

وأهلي بالدِّماخ فـغَـمْـرَةٍ مسبُّ عُويفِ اللؤم حيَّ بني بَـدْرِ

أتاني ما يقولُ تـرقَّـصـتْ شياطينُ رأسي وانتشَيْنَ من الخَمْرِ

خرافة العذرى وقد رويتم عن عبد اللّه بن فايد بإسنادٍ لـه يرفعـه قـال: خرافة رجـل مـن بَنـي عذرة استهوته الشياطين، فتحدَّث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يوماً بحديث فقالت امرأةٌ من نسائِه: هذا من حديثِ خُرافة قال: لا وَخُرَافَة حقّ.

حديث عمر مع الذي استهوته الجن ورويتم أنَّ شريك بن خُباسة دخَلَ الجنَّةَ وخرجَ منها ومعه ورقةٌ من وَرَقِها، وأنَّ عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوته الجنُّ فقال: ما كان طعامهم؟ قال: الفول والرِّمَّة، وسأل عن شرابهم فقال: الجدَف، وقال الأعشى:

ومَا كلّفتموني وربِّكمْ لأعلمُ من أمسَى أعقَّ وأحْوَبا
والجِنيّ يضرِب ظَهْرهُ ذنبه أنْ عَافت الماءَ مَشْرَبا

من خنقته الجن، ثم عود إلى الحوار وزعَمتم أنَّ الجنَّ خنقت حرْبَ بن أمية، وخنقت مِرداسَ بن أبي عامر، وخنقت الغَريض المغنِّي، وأنَّها قتلت سعد بن عبادة، واستهوت عمرو بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد، فأنتم أمْلياءُ بالخرافات أقوياءُ على ردِّ الصحيح وتصحيح السقيم، وردِّ تأويل الحديث المشهورِ إلى أهوائكم، وقد عارضْناكم وقابلناكم وقارضْناكم. وقالوا: في الحديث أنّ من اقتنى كلباً ليسَ بكلْب زرْعٍ ولا ضرْع ولا قَنص فقد أَثِم، فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرْع والضَّرْع والقنص، وبعد فهل اتخذوا كلبَ الضَّرْع إلاّ ليحرسَ الماشيةَ وأولادَها من السباع؟ وهل عند الكلبِ عند طروق الأسد والنمر والذئاب وجميع ما يقتات اللُّحمانَ من رؤساء السباع، إلاَّ صياحَه ونباحَه وإنذاره ودلالته، وأنْ يشغلَها بعضَ الشُّغْل، ويهجهج بها بعض الهجهجة، إلى أن يلحق بها من يحميها، ويتوافى إليها من يذود عنها، إذ ليس في هذا القياس أنّا متى وجدنا دهراً تكثُر فيه

اللصوص ويفشو فيه السُّرَّاق، وتظهر فيه النُّقـوب، ويشـيع فيـه التسلُّق، ممَّن إذا أفضى إلى منزلِ القوم لم يـرضَ إلا بالحريبـة ليس دونها شيء، أو يأتي علـى الأنفـس، وهـو لا يصـل إلـى مـا يريدُ حتى يمرَّ على النساء مكشَّفات، ومَن عسى إذا أخذ المرأةَ أخذَ يدٍ ألاَّ يرضى أن يتوعَّد بذبح الأولاد وأن يُتَّقـى بالمـال، حتَّـى يذبح، ومن عسى إن تمكّن شيئاً أو أمنَ قليلاً، أن يركـب الحُـرَم بالسَّـوءَة العظمـى وبـالتي لا شَـوَى لهـا، فهـذا الحـال أحـقُّ بالحِراسـة مـن تلـك الأحـوال.

وبعد فلِمَ صـار نسـاءُ الحرمَيـن يـتزاوَرْن ليلاً، ونسـاء المصـرَين يتزاورن نهاراً، ونساء الحرمين لا يرين نهاراً، ونساء المصـرَين لا يُريْنَ ليلاً؛ إلاَّ للمكـابرات ولمكـانِ كـثرةِ مـن يسـتقفي ويتحـوّب للنقـب والتسـلُّق، وإذا كـان الأمـر كـذلك فـأيُّ الأمـورِ أحـقُّ بالتحصـين والحياطـة، وأيُّهمـا أشـبه بـالتغرير والإضـاعة: اتخـاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره، أو ترك اتخاذها؟ ويقَظـة السُّـرَّاق علـى قـدر المسـروقين.

وعلى أنّا لو حُلنـا بيـن حَـرس الأسـواق ومـا تشـتمل عليـه مـن حرائب الناس، وبين اتِّخاذ الكلاب، لامتنعوا من ضَمان الحراسة،

ولامتنع كلُّ محروس من إعطائهم تلك الأجرة، ولوجَد اللصــوصُ ذلك مـن أعظـم الغُنْـم وأجـود الفُـرص، أو مـا تعلمـون أنَّ هـذا الحريم، وهذه الحرمات وهذه العقائل من الأموال، أحـقُّ بـالمنْع والحِراسـة والـدَّفع عنهـا بكـلِّ حيلـة، مـنْ حفـظ الغنـم وحريـمِ الراعي وحُرمة الأجيرِ؟ وبعد فإنَّ الـذئابَ لا تجتمـع علـى قطيـعٍ واحـد، والـذي يُخـاف مـن الـذئب السَّـلَّة والخطفـة، والاسـتلابُ والاختلاس، والأموالُ التي في حوانيت التجار وفـي منـازل أهـلِ اليسار يأتيها من العدد والعُدّة، ومن نُجب أصـحاب النجـدة، مـن يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها وعظـم حجمهـا، ثـمَّ يجالـدون دون ذلك بسيوف الهند وبالأذرع الطـوال، وهـم مـن بيـن جميـع الخليقـة لَـولاَ أنّهـم قـد أحسُّـوا مـن أنفسـهم الجـراءَة وثبـاتَ العزيمة، بما ليس من غيرهم، لكانوا كغيرهم، ولـولا أنَّ قلـوبَهم أشـدُّ مـن قلـوب الأسْـد لمـا خَرَجـوا، علـى أنّ جميـع الخلـق يطالبونهم، وعلى أنّ السلطانَ لم يُوَلَّ إلاّ لمكانهم، والكلابَ لـم تُتَّخَـذْ إلا لِلإنْـذَارِ بهـم، وعلـى أنَّهـم إذا أُخـذوا مـاتوا كرامـاً. ولعلَّ المدينةَ قد كانت في ذلـك الـدهر مأمونـاً عليهـا مـن أهـل الفساد وكان أكثرُ كلابها عَقوراً، وأكثرُ فِتيانها من بين مُهارشٍ أو

مقامرٍ، والكلبُ العَقورُ والكلْب الكَلِبُ أشدُّ مضرَّةً من الذئب المأمورِ بقتله.

وقد يعرض للكلاب الكلَب والجنون لأُمور: منها أن تأكلَ لحوم الناس، ومنها كالجنون الذي يعرِض لسائر الحيوان.

قتل العامة للوزغ وجُهَّالُ النَّاسِ اليوم يقتلون الوَزَغ، على أنَّ آباءَها وأمهاتها كانت تنفُخ على نار إبراهيم، وتنقُل إليها الحطب، فأحسَب أنَّ آباءها وأمَّهاتِها قد كنَّ يعرفن فصْل ما بين النبيِّ والمتنبِّي، وأنَّهن اعتقدْن عداوة إبراهيم، على تقصيرٍ في أصل النظر، أو عن معاندةٍ بعد الاستبانة حتَّى فعلنَ ذلك - كيف جاز لنا أن تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى؟ إلاَّ أن تدَّعوا أنَّ هذه التي نقتلها هي تلك الجاحدةُ للنبوَّة، والكافرةُ بالربوبيّة، وأنَّها لا تتناكح ولا تتوالد.

وقد يستقيم في بعض الأمرِ أن تقتلَ أكثر هذه الأجناس، إمَّا من طريق المحنة والتعبُّد وإمّا إذ كان اللّه عزّ وجلّ قد قضى على جماعتها الموتَ، أن يجريَ ذلك المجرى على أيدي الناس، كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد، وهو ملك الموت. وبعد فلعلَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال هذا القول إن كان

قاله، على الحكاية لأقاويل قوم، ولعلَّ ذلك كان على معنًى كـان يومئذٍ معلوماً فتَرَك النَّاسُ العِلَّة ورووا الخبر سالماً مـن العِلـل، مجـــــــــرَّداً غيــــــــــــر مضــــــــــمّن.

ولعلَّ مَن سمع هذا الحديث شـهِد آخـرَ الكلام ولـم يشـهد أوَّلَـه، ولعلَّـه عليـه الصـلاة والسـلام قصَـد بهـذا الكلام إلـى نـاسٍ مـن أصحابه قد كان دار بينهـم وبينـه فيـه شـيء، وكـلُّ ذلـك ممكـنٌ ســــــــائغٌ غيـــــــــر مســـــــــتنكَر ولا مـــــــــدفوع.

وقـد رويتـم فـي الفواسـق مـا قـد رويتـم فـي الحيَّـة والحـدأة والعقرب والفأرة والغراب، ورويتـم فـي الكلـب العَقـور، وكيـف يُقتلْنَ في الحِل والحرَم، فإنْ كنتم فُقهاءَ فقد علمتم أنَّ تســميةَ الغراب بالفِسق، والفأرة بالفُويسِقة؛ أنّ ذلـك ليـس مـن شـكل تسمية الفاسق، ولا مـن شـكل تسـمية إبليـس، وقـد قـالوا: مـا فجرها إِلاَّ فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لا يفارقه، وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث، وقد قال صلى الله عليه وسلم: من أكَلَ من هذه الشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مُصَـلاَّنَا وهـو علـى غيـر قوله عزّ وجلَّ "الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ"، وقد قال بعضُ الرُّجَّاز وذكـر ذئباً:

أتاكَ عَنِّيَ الـحَـدِيثُ إذْ أنَا بالغَائِطِ أَسْتَغِـيثُ
والذئبُ وَسْطَ غَنَمِي يَعِيثُ وصِحْتُ بِالْغَائِطِ يا خَبِيثُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكـــم.

وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورةِ تقطيع الصوت، وفي الخطِّ في القرطاس، وإن اختلفـت أمـاكنُه ودلائلـه، فـإذا كـان كـذلك فإنَّمـا يعرف فضلُه بالمتكلِّمين به، وبالحالات والمقـالات، وبالـذين عُنُـوا بـــــالكلام، وهـــــــذه جملـــــــــةٌ، وتفســــــــيرها يطــــــول.

القتل والقصاص وقالوا: قد أُمِرْنا بقتل الحيَّـة والعقـرب، والـذئب والأسد، على معْنًى ينتظم معنَيْين: أحدهما الامتحان والتعبُّد بفكـر القلب وعمـل الجارحـة، لا علـى وجـه الانتقـام والعقوبـة، وأُمرنـا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العَصَـى لا تُغنـي فيـه علـى جهـة الدَّفْع وعلى جهة العقاب، ولم نُؤمَرْ بالقصد إلى قتله، وإنَّما الغاية في دفع بأسِه عنا، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليـه، كـان كسـارقٍ ماتَ مـن قطـع يـده، وقـاذفٍ مـاتَ عـن جَلـد ظهـره، وقـد أُمِرْنـا بالقصد إلى قتل الحيَّات والعقـارب وإن لـم تعـرض لنـا فـي ذلـك الوقت؛ لأنَّ جنسَها الجنسُ المتلف متَى همَّ بـذلك، وليـس لنـا أن نضربَ الباغيَ بالسَّـيف إلاَّ وهـو مقبـلٌ غيـرُ مـدبر، ولنـا أن نقتـل

الحيَّة مقبِلةً ومدبرة، كما يُقتل الكـافرُ مقبِلاً ومـدبراً؛ إلاَّ أنَّ قتـلَ الكـافر يجمـع الامتحـان والعقوبـة، وليـس فـي قتـل الحيـة إلاّ الامتحان، وقد كان يجوز أن تمتَحَن بحبسها والاحتيالِ لمنعها، دونَ قتلها، وإذا ولَّى الباغِي من غير أن يكـون يريـد الرجـوع إلـى فئـة، فحكمه الأسر والحبس أبداً إلـى أن يُـؤْنَسَ منـه النُّـزوعُ، وسـبيل الأحناشِ والسِّباع وذواتِ السموم من الهمَـج والحشـرات، القتـلُ مقبلةً ومدبرة، وقد أبيح لنا قتلُ ضروبٍ مـن الحيـوان عنـدما يبلُـغ من جناياتها علينا الخـدش، فضـلاً مـن الجـرح والقتـل، كـالبعوض والنمــــــــــل، والــــــــــبراغيث والقمـــــــــــل. والبعيـرُ قتلـهُ فسـادٌ، فـإن صـال علـى النـاس كـان قتلُـه صـلاحاً، والإنْسان قتله حرام، فإن خيفَ منه كان قتلُه حلالاً.

طائفة من المسائل

والحديث عن مسخ الضَّبِّ والجِرِّيِّ، وعن مسـخ الكلاب والحُكَـأَةِ وأنَّ الحمامَ شيطان، من جنس المُزاح الذي كنَّا كتبنا به إلى بعض إخواننا ممَّن يدَّعي علمَ كلِّ شيء، فجعلنـا هـذه الخرافـاتِ وهـذه الفطـنَ الصـغارَ، مـن بـاب المسـائل. فقلنـا لـه: مـا الشِّـنِقْناقُ

والشَّيْصَبانُ وتنكوير ودركاذاب ومَن قاتل امرأة ابنِ مقبل؟ ومن خانق الغَريض؟ ومن هاتف سعد؟ وخبِّرنا عن بني أُقيش وعن بني لبنى، ومَن زَوْجُها؟ وعن بني غَزْوان ومَن امرأته؟ وعن سملقة وزَوبعة، والميدعان، وعن النقار ذي الرقبة وعن آصف، ومن منهم أشار بأصفر سليم، وعن أطيقس اسم كلب أصحاب الكهف، وكيف صارت الكلابُ لا تنبح من سمَّاه؟ وأين بلغ كتَابُ شَرطهم؟ وكيف حدَّثوا عن ابن عباسٍ في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجِرِّيِّ، أنَّهنَّ كلَّهنّ مِسخ؛ وكيف خُصَّت هذه بالمِسخ؟ وهل يحلُّ لنا أن نُصدِّق بهذا الحديث عن ابن عبَّاس؟ وكيف صارت الظباءُ ماشيةَ الجنّ؟ وكيف صارت الغِيلان تُغيِّر كلَّ شيء إلاَّ حوافرَها؟ ولم ماتت من ضربةٍ وعاشتْ من ضربتين؟ ولم صارت الأرانب والكِلاب والنَّعامُ مراكبَ الغيلان؟ ولم صارت الرواقيد مطايا السَّواحر؟ وبأي شيء زوَّج أهلُ السّعلاة ابن يربوع؟ وما فرق ما بينه وبين عبد اللّه بن هلال؟ وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي وأبي منصور؟ ولم غضِب من ذلك المذهب؟ ولم مضى على وجهه شفشف؟ وما الفرق بين الغِيلان والسّعالي، وبين شيطان

الخضراء وشيطان الحَماطـة؟ ولـم عُلـق السـمك المالـح بأذنـابه والطـريّ بـآذانه، ومـا بـالُ الفـراخِ تُحمَـل بأجنحتهـا والفراريـج بأرجلها؟ وما بال كلِّ شيء أصلُ لسانه ممّـا يلـي الحلـق وطرفـه ممَّا يلي الهواء، إلاَّ لسان الفيل؟ ولم قالت الهند: لـولا أنَّ لسـانه مقلوب لتكلَّم؟ ولم صار كلُّ ماضغٍ وآكلٍ يُحرِّك فكَّـه الأسـفل، إلا التمساح فـإنه يحـرِّك فكَّـه الأعلـى؟ ولـم صـار لأجفـان الإنسـان الأشفار، وليس ذلك للدواب إلاّ في الأجفان العالية؟ وما بالُ عين الجَـرادة وعيـن الأفعـى لا تـدوران؟ ومـا بيضـة العُقْـر ومـا بيضـة الديك؟ ولم امتنع بيض الأنوق؟ وهل يكـون الأبلـق العقـوق؟ ومـا بال لسانِ سمكِ البحر عديماً؟ وما بال الغريقِ من الرِّجـال يطفـو على قفاه، ومن النسـاء علـى وجهـه؟ ولـم صـار القتيـل إذا قُتـل يسقط على وجهه ثم يقلبـه ذكَـرُه؛ وأيـن تـذهب شِقشِـقة البعيـر وغُرمول الحمار والبغْل وكبِدُ الكوسج بالنهـار، ودَمُ الميـت؟ ولـم انتصـب خَلْـق الإنسـان مـن بيـن سـائر الحيـوان؟ وخبِّرنـي عـن الضـفادع، لـم صـارت تنـقُّ بالليـل وإذا أُوقـدت النـارُ أمسَـكَت؟.

وقالوا: قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخُرافة، لنردَّكـم إلـى الاحتجـاج بـالخبَر الصـحيح المخـرج للظـاهر.

فإن أعجبتـك هـذه المسـائلُ، واسـتطْرَفتَ هـذا المـذهب، فـاقرأ رسالتي إلى أحمد ابن عبد الوهاب الكاتب، فهي مجموعةٌ هناك.

أصناف الكلاب

والكلاب أصنافُ لا يحيط بها إلاّ مـن أطـالَ الكلام، وجملـة ذلـك أنّ مـا كـان منها للصـيد فهـي الضِّراء، وواحدها ضِروة، وهي الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلاَّ السَّلُوقيّة؛ وهي من أحرار الكلاب وعتاقها، والخِلاسية هجنها ومقاريفهـا، وكلابُ الرعـاءِ مـن زينيّهـا وكرديهـا فهـي كرادتهـا. وقد تَصيد الكلابُ غيرُ السَّلوقيّة، ولكنَّها تقصِّر عن السَّلوقيّة بعيداً، وسَلوق من أرض اليمن كــان لها حديدٌ جيِّد الطبع، كريم العنصر حرُّ الجوهر، وقد قال النابغة:

السَّلوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُهوتوقِد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحِبِ

وقال الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلْبٍ وقد دنـا خَطمـه مـن عَجْـب ذنـب الظبي وهو يقول: إيه فدتكَ نفسي!! وأنشد لبعض الرجاز:

مفدَّيات وملعَّنات

قال صاحب الديك: فلمَّا صار الكلبُ عندهم يجمـع خصـالَ اللـؤم والنَّذالـة، والحـرصِ والشَّـره، والبَذاء والتسرُّع وأشباه ذلك، صاروا يشتقُّون من اسمه لمن هجَوه بهذه الخصال، وقال بشَّار:

واستَغْنِ بالوجَبات عن ذَهبٍ لم يَبقَ قبلَك لامرئٍ ذَهبُهْ
الحريص على متالفـه والليثُ يبعثُ حَيْنَه كَلَبُـهْ

ما اشتق من اسم الكلب

قال صاحب الكلب: لَما اشتقُّوا من اسمه للأشياء المحمودة أكثر؛ قال عامر بن الطفيل:

ومدجَّجٍ يسعَى بشِكَّتِه محمرَّةٍ عيناهُ كالكلْبِ

ومن ولـد ربيعـة بـن نـزار كلا ب بـن ربيع ة، وكلاب بـن ربيع ة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة بن نزار، وفيهم من الســباع

أسَد، وضُبيعة، وذئب، وذؤيـب، وهـم خمسـة عشـر رجلاً؛ ثمانيـة من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقَّة مـن اسـم الكلـب، ومن هذا الباب كليـب بـن يربـوع، وكلاب بـن ربيعـة، وكلـب بـن وَبرة، ومنه بنو الكلبة، قال الشاعر:

سَيكْفِيك من ابني نزارٍ لراغـبٍ   بنو الكلبةِ الشمُّ الطوالُ الأشاجِعِ

والكلبة لقب ميَّة بنت عِلاج بن شَحْمة العنبريّ، وبنوها بنو الكلبة الـذين سـمعتَ بهـم - تزَوَّجها خُزيمة بن النعمان من بني ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار، فهي أمُّهـم، وفيهـا يقـول شُـبَيل بـن عَ ـزْرة الضُّبَعي صاحب الغريب - وكان شِيعيّاً من الغالية، فصار خارجيًّا من الصُّفرية :-

كـلـبةٍ هـرَّارة وأبُـوهُـمُ   عبدٌ خاملُ الأصل أوكَسُ

وفي مَيَّة الكلبة يقول أبوها، وهو عِلاج بن شحمة:

قد بـانـت بـمـيَّةَ غـربة   كان مِمَّا لا يُمَـلُّ مَـزَارُهـا
رجالٌ من ضُـبَـيعة كَـلْـبةً   كان يُشكى في المحول جِوارُها

ومما اشتقَّ له من اسم الكلب من القُرى والبُلدان والناس وغير ذلك، قولهم في الوقْعـة الـتي كـانت بـإرمِ الكلبـة، ومـن ذلـك قـولهم: حيـن نزلنـا مـن السَّـراة صـرنا إلـى نجـد الكلبـة. وكان سبب خروج مالك بن فَهم بن غَنْم بن دَوس إلى أزد شنوءة من السراة أنّ بني أخته قتلوا كلبةً لجاره، وكانوا أعَدَّ منه فغضـب ومضـى، فسـمِّي ذلـك النجـد الـذي هَبـط منـه نَجْـد الكَلْبـة. وبطَسُّوج بادُوريا نهر يقال له: نهر الكلبة ويقولون: كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب، ومن ذلك قولهم: عبَّاد بن أنْف الكلب، ومن ذلك أبو عُمَرَ الكلبُ الجَرمـيّ النحـوي، وكـان رجلا مـن العِليـة عالماً، عَروضيّاً نحويّا فرضيّاً، وعَلُّويه كلب المطبخ، وكان أشربَ الناس للنبيـذ، وقـد راهنـوا بينـه وبيــــــــن محمَّــــــــــد بــــــــــن علــــــــــيّ. والكلب: كلب الماء، وكلـب الرحـى والضبة الـتي يقـال لهـا الكلـب، وكـذلك الكُلْبـة والكَلْبتـان،

والكُلاّب والكَلُّـــوب.

وقال راشد بن شِهابٍ في ذلك المعنى:

كُلاَّب القنا من ثغـورهـا وأخضِب ما يبدو منَ استاهها بِدَمّ

وقال:

فسوفَ يرى الأقوامُ ديني كلْبتا قَينٍ ومِقْرَاضُـهُ أَزَمْ

وقال الراجز:

مذْ كَان غُلاماً يستتر له على العَيرِ إكافٌ وثَفَرْ
والكَلْبَتَانِ والعَلاةُ والوَتَـرْ

وقال أشهب بن رُميلة، وكان أوَّلَ من رمى بني مجاشع بأنَّهم قُيون:

هل يركبُ القَيْنُ الفَرَسْ وعَرَقُ القَينِ على الخَيلِ نَجَسْ
أداتـه إذا جَـلَـسْ الكلبتان والعَلاةُ والـقَـبَـسْ

وكـــــان اســـــم المزنـــــوق فَـــــرَسِ عـــــامر بـــــن الطفيـــــل: الكلـــــب.

وقـــــد زعمـــــت العلمـــــاء أنَّ حـــــرب أيَّـــــام هَراميـــــت إنَّمـــــا كـــــان ســـــببه كلـــــب.

قـــــال صـــــاحب الـــــديك: قـــــد قيـــــل للخـــــوارج: كلاب النـــــار، وللنوائـــــح: كلاب النـــــار.

وقد قال جَندلُ بن الراعي لأبيه في وقوفِه على جرير: مـا لـكَ تُطيـل الوقـوفَ علـى كلـبِ بنـي كليب؟! وقال زفر بن الحارث:

قد كَلِبَ الزَّمانُ عليكُمُ وأصابكمْ مِنَّا عذابٌ مُـرسَـلُ
السَّماوةِ لا سماوةَ فالحقبي نَابِتِ الزَّيتونِ وابْنِي بَحْـدلُ
عكٍّ في السواحل إنَّها أرضٌ تذوبُ بها اللِّقاحُ وتُهزَلُ

وقال حُصين بن القعقاع يرثي عُتيبة بن الحارث:

النّعيُّ بخيرِ خِنْدِفَ كلِّها بعُتيبةَ بنِ الحارثِ بن شِهابِ
ذُؤَاباً بعد مقتلِ سَبْـعِةٍ فشَفَى الغليلَ وريبةَ المرتابِ
الحليس بذي الفَقَارِ كأنَّه كَلِبٌ بِضرب جماجِم ورِقابِ

وقال آخر:

بني الحَدّاءِ مِـنْ نَـفَـرٍ وكلُّ جارٍ على جيرانه كَلِبُ

غَدوْا وعِصِيُّ الطَّلْح أرجُلُهمتَنَصَّبُ وسَطَ البِيعة الصُّلُبُ

وإذا كان العُود سريع العُلوق في كلِّ زمانٍ أوْ كلِّ أرض، أو في عامَّة ذلك قالوا: ما هو إلاَّ كلب.

وقالوا: قال النبي صلى الله عليه وسلم في وزرِ بن جابر حين خرجَ من عندِه واستأذنه إلى أهله: نعم إن لم تدركْه أمُّ كلْبة يعني الحمَّى.

وممَّا ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما أو الصفة الواحدة من صفاتهما، أو الفعل الواحد من أفعالهما، قال رؤبة:

مَطْلاً كَنُعَاسِ الْكَلْبِ

يقول: مطلا مُقَرْمَطاً دائِماً، وقال الشاعر في ذلك:

بها دليلَ القومِ نجمٌ كَعينِ الكلب في هُبَّى قِبَاعِ

قال: هذه أرضٌ ذات غبرة من الجدب لا يبصر القوم فيها النجم الذي يُهتَدى به إلاَّ وهو كأنّه عين الكلب، لأنّ الكلب أبداً مُغمِضٌ غير مطبق الجفون ولا مفتوحها، والهُبّى: الظلمة واحدها هابٍ، والجمع هُبَّى مثل غازٍ وغُزَّى، والقِباع: التي قَبعت في القتام، واحدها قابع، كما يقبَع القنفذ وما أشبهه في جُحره، وأنشد لابن مقبل:

أطرقُ الجاراتِ باللَّيل قابعاً القَرنْبى أخلفته مجاعره

والقبوع: الاجتماع والتقبُّض، والقَرنْبى: دُوَيْبَّة أعظم من الخُنَفساء.

شعر في الهجاء له سبب بالكلب

وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب:

تغلبَ وائلٍ أهجوتَها بُلتَ حيثُ تناطَحَ البحرانِ
الأَراقم لا ينالُ قديمَـهـا كلبٌ عَوَى متهتِّم الأسْنـانِ

وقال الشاعر في منظور بن زَبَّان:

ما خَلَّفَ الآبـاءُ بـعـدَهُـمُ في الأُمَّهاتِ عِجَانُ الكَلْبِ مَنْظورُ

ومن هذا الضرب قول الأعرابيّ:

شَانَ صغري واليـاهـا وزَيَّنَها صغري فتًى من أهلها لا يَزينها
لعاب الكلب إن ساق يعذِّب فيها نفسَـه ويُهـينُـهـا

وقال عمرو بن معدِ يكرِب:

اللّهُ جَرْماً كلَّما ذَرَّ شـارِقٌ وجُوهُ كِلابٍ هارشَتْ فازبأَرَّتِ

وقال أبو سفيان بن حرب:

شئتُ نجَّتني كُميتٌ طِـمِـرَّة ولم أجْعَل النَّعماءَ لابن شَـعـوب
زال مُهري مَزْجَرَ الكلبِ غدوةً حتّى دنَـتْ لِـغُـروبِ

وقال عبد الرحمن بن زياد:

بمسـرُوق الـحـديث وظـالـعِ الطرف حتى خاف بَصبصَةَ الكَلبِ

وقال شريح بن أوسٍ:

وعيَّرْتَنا تمْرَ العراقِ ونخْـلَـه أير الكَلْبِ شيَّطه الجمرُ

وقال آخر وهو يهجو قوماً:

بخرشَاوَي شعيرٍ عَلَيْهمـا كرادِيسُ من أوصالِ أعقَدَ سافِدِ

وقال الحارث بن الوليد:

الذين إذا رأَوني مُقـبِـلاً هَشُّوا وقالُوا: مَرحباً بالمقْبِـلِ
في خَلْفٍ كأنَّ حديثَـهـم الكلاب تهارَشَتْ في مَنْهَلِ

وقال سَبْرة بن عمرو الفقعسيّ، حين ارتشى ضَمْرة النهشلي، ونفر عليه عباد بن أنـف الكلـب الصيداوِيّ فقال سبرة:

ضَمْرُ كيفَ حكمتَ أمُّك هاوِلٌ والحكْمُ مَسؤول به المتعـمَّـدُ
أحفِظتَ عهداً أم رَعيت أمـانةً هل سمعتَ بمثلها لا يُنشـدُ
فاقِرة تجلِّلُ نـهـشـلاً تَغُور به الرفـاق وتُـنْـجِـد
الرِّفاقَ أمال حكمك حبُّـهـا فلك اللقاء وراكبٌ متـجـرِّد
العشيرةَ واستمرَّ كـأنّـه كلبٌ يبصبِص للعِظال ويَطْرُدُ
شيءَ يعدِلُها ولكنْ دونَـهـا القَتادِ تَهابُ شوكَتَها الـيدُ
يلحَس أسكَـتَـا زيفـيَّة يثورُ على البراثن أعْـقَـدُ

وقال مزرِّدُ بن ضرار:

كناز اللَّحْمِ من بَكَرَاتِكمْ تَهِرُّ عليها أمُّكمْ وتُكـالِـبُ
الذي ألقى فناؤك رحلَه لتَقرِيَه بالتْ عليه الثَّعالـبُ

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذِكْرِ الأعضاء، وقال:

يا عبدَ بني كِـلابِ يا أيرَ كلبٍ مُوثَقٍ بِبـابِ
هـذا أوّلَ الـثَّـوابِ يا وَرَلاً رَقْرَقَ في سرابِ
يَعْلِقَنْكمُ ظُفري ونابي

وقال الآخر:

بني طُهَيّةَ رهطَ سَلْمَى حجارةُ خارئٍ يَرمي الكِلابَا

وقال صاحب الكلب: ومما اشـتقَّ مـن اسـم الكلـب فـي موضـع النباهة، كليب بن ربيعة، هو كليب وائلٍ، ويقال إنّه قِيل في رجليـن من بني ربيعة ما لم يُقَلْ في أحدٍ مـن العـرب، حتَّـى ضُـرب بهمـا المثل، وهو قولهم: أعـزُّ مـن كليـبِ وائـل، والآخـر: لا حـرَّ بـوادِي عَـوْف.

قالوا: وكانت ربيعة إذا انتجعـت معـه لـم توقـد نـاراً ولـم تحـوِّضْ

حوضاً، وكان يحمي الكلأ ولا يُتَكَلَّمُ عندَهُ إلاَّ خفضاً، ويجير الصيد ويقول: صيدُ أرضِ كذا وكذا في جواري لا يباح، وكان له جرو كلب قد كَتَعه فربما قذَف به في الروضة تعجبُه، فيحميها إلى منتهى عوائه، ويلْقيه بحريم الحوض فلا يرِدُه بعير حتَّى تصدُرَ إبله.

ما قيل من الشعر في كليب

وفي ذلك يقول معبَد بن شعبة التميمي:

ضِرارٌ أنَّني سأُطيعه سأعطيه الذي كنتُ أمنعُ
اغرورقت عيناه واحمرّ وجهُه وقد كادَ غيظاً وجهُه يتبضَّعُ
في الظلم المُبيِّن عامِداً ذراعاً إذا ما قُدِّمَتْ لك إصبع
كُليبٍ كنت أنبئت أنَّه يخلط أكلاءَ المِياه ويَمنَعُ
على أفناءِ بكرِ بن وائل أرانب ضاح والظباءَ فترتَعُ

وقال دريد بن الصمة:

ما كُليبٌ حين دلّى بحبلٍ كلبَه فيمن يميحُ
من بني سفيان بَغْياً وكلُّ عدوِّهم منهم مريح

وقال العبَّاس بن مرداس:

كان يبغيها كليبٌ بظلمِه العزِّ حتى طاح وهو قَتيلُها
وائل إذْ يُنزِل الكلب مائحاً يُمنَعُ الأكلاءَ منها حلولُها

وقال عباس أيضاً لكُليب بن عهمة الظفريّ:

إنَّكَ كلَّ يوم ظالم والظلمُ أنكدُ وجْهُه ملعونُ
بقَومِك ما أرادَ بوائل يومَ الغديرِ سَمِيُّكَ المطعونُ
أنَّك سوفَ تَلْقَى مثلَها صَفْحتَيك سنانُه المسنونُ

وقال النابغة الجعدي:

لَعمري كان أكثرَ ناصِراً وأيسرَ ذنباً منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

ضَرْعِ نابٍ فاستمر بطعنةٍ كحاشيةِ البُرد اليماني المسهَّمِ

وقال قَطِران العبشَميُّ، ويقال العبشي:

جسَّاسَ بن مُـرَّة لـم يَرِدْ وائلٍ حَتَّى احتداه جَهولُها
كليباً إذ رمى النابَ طعنةً جدَت وائلا حتَّى استخفَّت عقولها
مما قلت إذ أنـت سـادِرٌ للـدَّهـرِ والأيَّامِ والٍ يُدِيلـهـا

وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة:

أَبَسْنَا تغلـبَ ابـنةَ وائلٍ بقتل كُليبٍ إذ طغى وتَخـيَّلا
بالنَّابِ التي شقَّ ضَرعها فأصبَحَ موطوءَ الحِمى متذلِّلا

وقال رجل من بني سَدوس:

كليبيٌّ لكلـيبٍ وكـلـبةٍ حولَ أطنابِ البيوتِ هَريرُ

وقال ابن مقبل العَجلاني:

أمُّ بـكـرٍ إذْ تـبـدَّدَ رهـــطُـــهـــا وأَنْ أصـبـحـوا مـنـهـم شَـريدٌ وهـالــكُ
كـلا حـــيَّيكِ فـــيهـــم بـــقـــيةٌ وَلو أنَّ الـمـنـايا حـالُـهـا مـتـمـاســكُ
وكعب لا يبيتأخوهمذليلاً ولا عليه المسالكُ

وقال رجل من بني كلاب من الخوارج، لمعاوية بن أبي سفيان:

سِرتَ سَيْرَ كُليبٍ في عشيرتِه كان فيهم غلامٌ مثلُ جسَّاسِ
الطاعن الطعنة النجلاء عانِدُها كطرّة البرد أعيا فتقُها الآسـي

هون من تبالة علـى الحجـاج وقـال أبـو اليقظـان فـي مثـل هـذا الاشتقاق: كان أوَّل عمل ولِيه الحجّاج بن يوسف تَبالة، فلما ســار إليها وقرُب منها قال للدليل: أين هي، وعلى أيّ سمت هي؟ قال: تسترك عنها هـذه الأكمـة، قـال: لا أُرانـي أميـراً إلاَّ علـى موضعٍ

تسترني منه أكمة، أهوِنْ بها عليّ؟ وكرَّ راجعاً، فقيل في المثل:

أهْـــــــوَنُ مِـــــــنْ تَبَالَــــــــةَ عَلَـــــــى الحَجـــــــاج.

والعامة تقول: لهو أهونُ عَلَيَّ من الاعراب على عركوك.

الحجاج والمنجم حينما حضرته الوفاة

قال: ولمّا حضرت الحجاج الوفاةُ وقد وليَ قبل ذلك ما وليَ، وافتتح ما افتتح، وقتل من قتل، قال للمنجِّم: هل ترى ملكاً يموت؟ قال: نعم ولستَ به، أرى ملكاً يموتُ اسمه كُليب، وأنتَ اسمُك الحجَّاج قال: فأنا واللّه كليبٌ، أمِّي سمَّتْني به وأنا صبيّ، فمات، وكان استخْلَفَ على الخــراج يزيـد بـن أبـي مسـلم، وعلـى الحـرب يزيـد بـن أبـي كبشـة.

ما كان العرب يسمون به أولادهم قال: والعرب إنَّما كانت تسمِّي بكلب، وحمار، وحجر، وجُعَل، وحنظلة، وقرد، على التفاؤل بذلك، وكان الرجل إذا وُلد له ذكر خرج يتعرّض لزجر الطير والفأل، فإِن سمع إنساناً يقول حجراً، أو رأى حجراً سمَّى ابنَه به وتفاءل فيه الشدَّة والصلابة، والبقاء والصبر، وأنَّه يحطم ما لقى، وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئباً أو رأى ذئباً، تأوَّل فيه الفطنة والخِبَّ والمكرَ والكسب، وإن كان حماراً تأوَّل فيه طولَ العُمر والوقاحة والقوَّة والجَلَد، وإن كان كلباً تأوَّل فيه الحِراسة واليَقَظة وبُعْدَ الصوت، والكسبَ وغير ذلك.

ولذلك صوَّر عبيد اللّه بن زياد في دِهليزه كلباً وأسداً، وقال: كلب نابح، وكبش ناطح، وأسد كالـــح، فتطيَّـــر إلـــى ذلـــك فطـــارت عليـــه.

وقال آخر: لو كان الرجل منهم إنَّما كان يسمِّي ابنَه بحجر وجبل، وكلب، وحمار، وثور، وخنزير، وجُعَل، على هذا المعنى فهلاَّ سمَّى بِبِرْذون، وبغل، وعُقاب، وأشباه ذلك؛ وهذه الأسماء من لغتهـــم.

قال الأوّل: إنَّما لم يكن ذلك، لأنّه لا يكاد يرى بغلاً وبِرذوناً، ولعلَّه لا يكون رآهما قط، وإن كانت الأســماء عنــدهم عتيــدة لأمــورٍ لعلّهــم يحتــاجون إليهــا يومــاً مــا.

قالوا: فقد كان يسمع بفرس وبعير، كما كان يسمع بحمار وثور، وقد كان يستقيم أن يشتقَّ

منهما اشتقاقات محمودة، بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمِّي بنجم ولا يسمِّي بكوكب إلاَّ أنَّ بعضَهم قد سمَّى بذلك عبداً له، وفيه يقول:

إنْ مُتُّ فَهْيَ مِيتَتي   لا مُتّ إلاَّ هَرِماً يا كَوْكَبُ

ووجدناهم يسمون بجبل وسَنَد، وطَود، ولا يسمُّونَ بأُحُد ولا بثَبير وأجأ وسلمى ورَضوى، وصِنْدِد وحميم، وهو تلقاء عيونهم متى أطلَعوا رؤوسهم من خيامهم، ويمسونَ ببُرْج ولا يسمون بفَلَك، ويسمون بقَمر وشمس عَلَى جهة اللقب أو على جهة المديح، ولم يسمُّوا بأرض وسماء، وهواءٍ وماء، إلاَّ على ما وصفنا، وهذه الأصول في الزجر أبلغ، كما أنَّ جبلاً أبلغُ من حجر، وطوداً أجمع من صخر، وتركوا أسماءَ جبالهم المعروفة. وقد سمّوا بأسد وليث وأُسامةَ وضِرغامة، وتركوا أن يسمُّوا بسبع وسبعة، وسبع هو الاسم الجامع لكلِّ ذي ناب ومخلب. قال الأوّل: قد تسمَّوا أيضاً بأسماء الجبال، فتسمَّوْا بأبَان وسَلْمَى.

قال آخرون: إنَّما هذه أسماء ناسٍ سمَّوا بها هذه الجبال، وقد كانت لها أسماءٌ ترِكت لثقلها، أو لعلَّة من العلل؛ وإلاَّ فكيف سمَّوا بسلمى وتركوا أجأ ورَضوى. وقال بعضهم: قد كانوا ربَّما فعلوا ذلك على أن يتَّفق لواحدٍ وَلودٍ ولمعظَّمٍ جليل، أن يسمع

أو يرى حماراً، فيسمِّي ابنه بذلك؛ وكذلك الكلب والذئب، ولن يتفق في ذلك الوقت أن يسمع بذِكر فرس ولا حِجْر أو هواء أو ماء؛ فإذا صار حمار، أو ثور، أو كلب اسمَ رجل معظَّم، تتابعت عليه العرب تَطِيرُ إليه، ثم يكثر ذلك في ولده خَاصَّةً بعده، وعلى ذلك سمَّت الرعية بنيها وبناتِها بأسماء رجال الملوك ونسائهم، وعلى ذلك صار كلُّ عليٍّ يكنى بأبي الحسن، وكل عُمَر يكنى بأبي حفص، وأشباه ذلك، فالأسماء ضروب، منها شيء أصليٌّ كالسَّمَاء والأرض والهواء والماء والنار، وأسماءٌ أخَرُ مشتقَّاتٌ منها على جهة الفأل، وعلى شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنَه عميراً، ويسمِّي عميرٌ ابنَه عِمران، ويسمِّي عمرانَ ابنَه مَعْمَراً، وربَّما كانت الأسماء بأسماء اللّه عزَّ وجلّ مثل ما سمى اللّه عز وجل أبا إبراهيم آزر، وسمَّى إبليس بفاسق، وربّما كانت الأسماء مأخوذةً من أمورٍ تحدثُ في الأسماء؛ مثل يوم العَرُوبة سمِّيت في الإسلام يوم الجمعة، واشتقَّ له ذلك من صلاة يوم الجمعة. الألفاظ الجاهلية المهجورة وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره، ثم نعودُ إلى موضعِنا الأوَّلِ إن شاء اللّه

تعالى.

ترك النّاسُ مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن ذلك تسميتُهم للخَراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السُّلطان: الحُملان والمَكْس، وقال جابر ابن حُنَيّ:

وفي كلِّ أسواقِ العِراقِ إتاوةٌ
وفي كلِّ ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

وكما قال العبديُّ في الجارود:

أم المعلَّى خِلتَنا حسبتَنا
صَرَارِيَّ نُعطِي الماكسِين مُكوسا

وكما تركوا انْعَمْ صباحاً، وانْعَمْ ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟ وقال قيس بن زُهير بن جذيمة، ليزيد بن سنان بن أبي حارثة: انعَمْ ظَلَاماً أبا ضَمْرة قال: نعمتَ فمن أنت؟ قال: قيس بن زهير.

وعلى ذلك قال امرؤ القيس:

صَباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالِي
يَعِمَنْ مَن كان في العُصُر الخَالِي

وعلى ذلك قال الأوَّل:

نَارِي فقلتُ مَنُونَ قالوا سَرَاة الجنِّ قلتُ عِمُوا ظَلَامَا

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السَّيِّد المطاع: أبيت اللعن، كما قيل:

أبيتَ اللّعنَ لا تأكُلْ مَعَهْ

وقد زعموا أن حُذَيفةَ بنِ بدرٍ كان يُحيًّا بتحيَّة الملوك ويقال له: أبيت اللّعن، وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً.

وقد ترك العبْد أنْ يقول لسيده ربّي، كما يقال ربُّ الدار، وربُّ البيت، وكذلك حاشية السيِّد والملِك تركوا أن يقولوا ربّنا، كما قال الحارث بن حلّزة:

وابننا وأفضَلُ مَنْ يمشِي ومَن دُونَ مَا لدَيهِ الثّناءُ

وكما قال لبيد حين ذكر حُذَيفة بن بدر:

وأهلكْنَ يوماً ربَّ كِنْدَةَ وابنَه وربَّ مَعدٍّ بين خَبْت وعَرْعَرِ

وكما عيّر زيدُ الخَيل حاتماً الطائيّ في خروجه من طيِّء ومن حرب الفساد، إلى بني بدر، حيث يقول:

من الحَرْبِ العَوانِ ولم بها حاتم طَبّاً ولا متـطـبِّـبـا

حصناً بعْدَ أن كان آبـيـاً أبُوّة حِصْنٍ فاستقالَ وأعتَـبَـا

في بني بدرٍ ولا ما يهمـنـا ما تقضَّت حربُنا أنْ تطربا

وقال عوف بن محلَّم، حين رأى الملك: إنّه ربي وربِّ الكعبة، وزوجُه أمُّ أناس بنت عَوف، وكما تركـوا أن يقولـوا لقُـوّام الملـوك السَّـدَنة وقـالوا الحَجَبَـة.

وقال أبو عُبيدة مَعْمر بن المثنَّى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي حين أنشدَه شعر الأسديّ:

ومركضة صريحي أبوها تُهان لها الغلامة والغلامُ

قال: فقلت له: فتقول: للجارية غلامة؟ قال: لا، هذا مـن الكلام المتروك وأسماؤُه زالت مع زوال معانيهـا، كالمِربَـاعِ والنَّشـيطة وبقي الصَّفايا؛ فالمرباع: رُبـع جميـع الغنيمـة الـذي كـان خالصـاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على مـا سنَّه اللّـه تعـالى، وأما النَّشيطة فإنَّه كان للرئيـس أن ينشِـط عنـد قِسـمة المتـاع العِلْقَ النفيسَ يراه إذا اسـتحلاه، وبقـي الصِـفِيّ وكـان لرسـول اللّه صلى الله عليه وسلم من كل مَغْنم، وهـو كالسـيف اللَّهـذَم والفـرسِ العـتيق، والـدرع الحصـينة، والشـيء النـادر.

وقال ابن عَنَمة الضبّي حليف بني شَيبان، في مرثيته بِسطام بن قيس:

المِرباعُ منها والصَّفـايا وحُكْمُك والنَّشِيطَةُ والفُضولُ

والفُضول: فضول المقاسم، كالشيءِ إذا قسم وفضَلت فَضلةٌ استهلكت، كاللؤلؤة، والسيف، والدِّرْع، والبيضة، والجارية، وغير ذلك.

كلمات إسلامية محدثة وأسماءُ حدثت ولم تكن، وإنَّما اشتقَّت لهم من أسماءٍ متقدِّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرَكَ الجاهليَّة والإسلام مُخَضرم كأبي رجاءٍ العُطارديّ، بن سالمة، وشقيق بن سالمة؛ ومن الشعراء النابغة الجَعديُّ وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء، ويدلُّ على أنَّ هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنَّهم في الجاهليَّة لم يكونوا يعلمون أنَّ ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهليَّة، ولا كانوا يعلمون أنَّ الإسلام يكون. ويقال إنَّ أوَّلَ من سمَّى الأرضَ التي لم تُحفَر قطُّ ولم تحرثْ إذا فعل بها ذلك مظلومة، النابغةُ حيث يقول:

الأوراريَّ لأْياً ما أبيِّنُها والنؤيَ كالحَوضِ بالمظلومَةِ الجَلَدِ

ومنه قيل سقاءٌ مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه، وقال الحادرة:

البِطاحَ له انهلالُ حَريصةٍ فصفَا النِّطافُ له بُعيْدَ المَقْلَعِ

وقال آخر:

له ميٌّ بأعلَى ذِي سَلَم ما تَزُورُنا إذا الشعْبُ أَلمّ
يا ميّ واليومُ ظلَمْ

يقول ظلم حين وضعَ الشيءَ في غير موضعه، وقال الآخر:

زينب واليومُ ظلَمْ

وقال ابن مقبل:

الأذلَّةُ في دارٍ وكان بها الشَّقَاشِق ظَلاَّمُونَ للجزُر

وقال آخر:

وصاحبِ صدقٍ لم تَنلني أذاته وفي ظُلْمِي له عامداً ظلَمْتُ

أجْرُ

وقال آخر:

يَظلِمون إذا ضِيفوا وطابَهُمُ   لجودهمُ في جُزْرِهم ظلمُ

وظلم الجزور: أن يعرقبوها، وكان في الحقِّ أن تنحر نحراً، وظلمهم الجـزُر أيضاً أن ينحروها صِحاحاً سِماناً لا علَّة بها.

قال: ومن ذلك قولهم: الحرب غَشوم؛ وإنَّما سمِّيت بهذا لأنَّها تنال غير الجاني.

قال: ومن ذلك قولهم: مَنْ أَشْبَهَ أباه فما ظَلَم، يقول: قد وضع الشبه في موضعه.

ومن المحدَثِ المشتقِّ، اسم منافق لمن رَاءَى بالإسلام واستسرَّ بالكفر أُخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدامَّاءِ، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمُّم، قال اللّه تعالى: "فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً" أي تحرَّوْا ذلك وتوخَّوْه، وقال: "فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْه" فكثُر هذا في الكلام حتَّى صار التيمُّم هو المسح نفسُه، وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيءِ إذا طالتْ صُحبتهم وملابستهم له، وكما سمَّوا رَجيع الإنسان الغائط، وإنَّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاءَ الحاجة للستر.

ومنه العَذِرة، وإنَّما العذِرة الفناءُ، والأفنية هي العَذِرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النَّجْو والزِّبل في أفنيتهم، سمِّيت تلك الأشياء التي رَموا بها، باسم المكان الذي رميت به، وفي الحديث: أَنْقُوا عَذِرَاتكم.

وقال ابن الرقَيَّات:

اللّهُ أَعْظُماً دَفَنُوها   بِسِجِسْتَان طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ
يحجُبُ الصديقَ ولا يع   تَلُّ بالبخلِ طيِّبَ العَذِرَاتِ

ولكنَّهم لكثرةِ ما كانوا يُلقون نجوَهم في أفنيتهم سموها باسمها.

ومنه النّجو: وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاءَ الحاجةِ تستَّر بنجوة. والنّجو: الارتفاع من الأرض، قالوا من ذلك: ذهب يَنْجُو،

كما قالوا ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثمَّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى. وقالوا: ذهب إلى المخرَج، وإلى المتوضَّأ، وإلى المذهب، وإلى الخَلاءِ، وإلى الحُشّ، وإنّما الحشّ القطعةُ من النَّخل وهي الحِشّان، وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاءَ الحاجة دخلوا النخل؛ لأنَّ ذلك أستر، فسموا المتوضأ الحشّ، وإن كان بعيداً من النخل؛ كلّ ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب لخَرْءِ، لأنَّ الاسم الخرءُ، وكل شيءٍ سواه من ورجيع وبراز وزِبل وغائط فكله كناية، ومن هذا الباب الملَّةُ، والمَلَّة موضع الخُبْزة، فسموا الخُبْزة باسم موضعها، وهذا عند الأصمعيِّ خطأ.

ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة فسمِّيت المزادة باسم حامل المزادة، ولهذا المعنى سمَّوا حاملَ الشعر والحديث راوية.

ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صَداقها، قالوا: وإنَّما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصَّدَاق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها النافجة، وقال شاعرهم:

تِلادي من وِراثةِ والدي شادَ مالِي مُستَفاد النوافِجِ

وكانوا يقولون: تَهنِيك النافجة، قال: فإذا كانوا يدفَعون الصَّدَاقَ عيناً ووَرقاً فلا يقال ساق إليها الصَّداق.

ومن ذلك أنَّهم كانوا يضربون على العروس البناءَ، كالقبَّة والخَية والخيام، على قدر الإمكان، فيقال بني عليها، اشتقاقاً من البناءِ، ولا يقال ذلك اليومَ، والعروس إمَّا أن تكون مقيمةً في مكانها أَوْ تتحَوّل إلى مكان أقدم من بنائها.

قال: ومن ذلك قولهم في البَغيّ المكتسِبة بالفُجور: قَحْبة، وإنَّما القُحَاب السعال، وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنَتْ وتكسَّبت بالزنى، قالوا قحبت أي سعلت، كناية، وقال الشاعر:

السُّعَالَ هُوَ القُحَاب

وقال:

قحَبت واحدةٌ جاوبَ المبعِدُ منها فَخَضَفْ

وكذلك كان كنايتهم في انكشاف عورة الرجل، يقال: كشف علينا متاعَه وعَورته وشواره، والشّوار: المتاع، وكذلك الفرج وإنَّما يعنون الأَير والحِرَ والاسْت.

كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد

وكلمات النبيِّ صلى الله عليه وسلم، لم يتقدَّمْه فيهنَّ أحد: من ذلك قوله: إذاً لا ينتَطِح فيها عَنْزان، ومن ذلك قوله: ماتَ حتْف أنفه، ومن ذلك قوله: يا خيلَ اللّه اركَبي ومن ذلك قوله: كلُّ الصَّيدِ في جَوفِ الفَرا، وقوله: لا يُلسَعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين.

شنشنة أعرفها من أخزم وقال عُمر رضي اللّه تعالى عنه:

شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أخزم، يعني شبه ابن العبَّاس بالعبَّاس، وأخزَم: فحل معروف بالكرم.

ما يكره من الكلام وأما الكلام الذي جاءَت به كرَاهيةٌ من طريق الروايات، فروي عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: لا يقولَنَّ أحدُكم خَبثت نَفسي ولكن ليقلْ لَقِسَت نفسي، كأنه كره أن يضيف المؤمنُ الطاهِرُ إلى نفسه الخُبث والفساد بوجهٍ من الوجوه.

وجاءَ عن عمر ومجاهد وغيرهما النهيُ عن قول القائل: استأثَر اللّهُ بفُلان، بل يقال مات فلان، ويقال استأثرَ اللّه بعلم الغيب واستأثر اللّه بكذا وكذا.

قال النَّخَعيّ: كانوا يكرهون أن يقال: قراءة عبد اللّه، وقراءة سالم، وقراءَة أُبَيّ، وقراءَة زيد، وكانوا يكرهون أَن يقولوا سنَّة أبي بكر وعمر، بل يقال سنَّة اللّه وسنَّة رسوله، ويقال فلان يقرأ بوجْه كذا، وفلان يقرأ بوجه كذا.

وكره مجاهد أن يقولوا مُسيجِد ومُصيحِف، للمسجد القليل الذَّرْع، والمصحف القليل الورق، ويقول: هم وإن لم يريدوا التصغير فإنَّه بذلك شبيه.

وجوه تصغير الكلام وربَّما صغَّروا الشيءَ من طريق الشَّفَقة والرِّقَّة، كقول عمر: أخافُ على هذا العُريب، وليس التصغير بهم يريد، وقد يقول الرجل: إنَّما فلانٌ أخَيِّي وصُدَيِّقي؛ وليس التصغير له يريد، وذكر عمرُ ابنَ مسعود فقال: كُنَيْفٌ مُلئ علماً، وقال الحُباب بن المنذر يوم السَّقِيفة: أنا جُذَيْلها المحكك، وعُذَيقُها المرجَّب، وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة: الحُميراء، وكقولهم لأبي قابوسَ الملك: أبو قُبيس، وكقولهم: دبّت إليه دويْهِيَة الدهر، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقّة المسلك.

ويقال إنَّ كلَّ فُعيل في أسماء العرب فإنَّما هو على هذا المعنى، كقولهم المُعَيْدِيّ، وكنحو: سُليم، وضُمَير، وكليب، وعُقير، وجُعيل، وحُميد، وسُعيد، وجُبير؛ وكنحو عُبيد، وعُبيد اللّه، وعُبيد الرماح، وطريق التحقير والتصغير إنَّما هو كقولهم: نُجيل ونُذيل، قالوا: ورُبّ اسمٍ إذا صغَّرْتَه كان أملأ للصَّدْر، مثل قولك أبو عبيد اللّه، هو أكبر في السماع من أبي عبد اللّه، وكعب بن جُعَيل، هو أفخم من كعب بن جعل، وربَّما كان التصغير خِلقة وبنية، لا يتغيَّر، كنحو الحُمَيّا والسُّكَيْتِ، وجُنَيدة، والقطيعا،

والمريطاء، والسُّميراء، والمليساء - وليس هو كقولهم القُصَيْرى، وفي كبيدات السماءِ والثرّيا.

وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه: دقَقت البابَ على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: أنا كأنَّه كرِه قولي أنا.

وحدّثني أبو عليٍّ الأنصاري، وعبد الكَريم الغِفاريّ قالا: حدَّثنا عيسى بن حاضر قال: كان عمرو بن عُبيد يجلس في دَاره، وكان لا يَدَع بابَه مفتوحاً، فإذا قرعَه إنسان قامَ بنفسه حتَّى يفتحه له، فأتيتُ الباب يوماً فقرعتُه فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: ما أعرف أحداً يسمَّى أنا، فلم أَقُلْ شيئاً وقمتُ خلفَ الباب، إذ جاءَ رجلٌ من أهل خراسان فقرَع الباب، فقال عمرو: مَن هذا؟ فقال: رجلٌ غريبٌ قدِم عليك، يلتمس العلم، فقام له ففتح له الباب، فلمَّا وجدْتُ فرجةً أردت أن ألجَ الباب، فدفَع البابَ في وجهي بعُنف، فأقمتُ عنده أيَّاماً ثم قلت في نفسي: واللّه إنِّي يومَ أتغضَّب على عمرو بن عُبيد، لَغَيرُ رشيدِ الرأي، فأتيتُ البابَ فقرعته عليه فقال: من هذا؟ فقلت: عيسى بن حاضر، فقام ففتح لي الباب.

وقال رجل عند الشَّعبيّ: أليس اللّه قال كذا وكذا قال: وما عَلَّمَك؟ وقال الربيع بن خُثَيم: اتَّقُوا تكذيب اللّه، ليتَّق أحدكم أن يقولَ قال اللّه في كتابه كذا وكذا، فيقول اللّه كذبتَ لم أقلْه.

وقال عمر بن الخطَّاب رضي اللّه عنه: لا يقل أحدُكم أهرِيقُ الماء ولكن يقول أبول.

وسأل عمرُ رجلاً عن شيءٍ، فقال: اللّه أعلم، فقال عمر: قد خَزينا إن كُنَّا لا نعلم أنَّ اللّه أعلم؛ إذا سُئِلَ أحَدُكم عن شيءٍ فإن كان يعلمه قاله، وإن كان لا يعلمه قال: لا علم لي بذلك.

وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول؛ اللهمَّ اجعلْني من الأقلِّين قال: ما هذا الدعاءُ؟ قال: إنِّي سمعت اللّه عزّ وجلّ يقول: "وقليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورَ" وقال: "وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ"، قال عمر: عليك من الدعاءِ بما يُعرَف.

وكره عمر بن عبد العزيز قولَ الرجل لصاحبه: ضَعْه تحت إبطِك، وقال: هلاَّ قلتَ تحت يدِك وتحت مَنكِبك وقال مَرَّة - وراثَ فرسٌ بحضْرة سليمان - فقال: ارفَعوا ذلك النَّتِيل، ولم يقل ذلك الرَّوث.

وقال الحجَّاج لأمِّ عبد الرحمن بن الأشعَث: عَمَدْتِ إلى مَالِ اللّه

فوَضَعْته تحْتَ، كأنَّه كره أن يقول على عادة الناس: تحت استك، فتلجلج خوفاً من أن يقول قَذَعاً أو رَفَثاً، ثمّ قال: تحتَ ذيلِك.

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: لا يقولَنَّ أحدُكم لمملوكه عَبْدِي وأمَتي، ولكنْ يقول: فتَايَ وفتاتي، ولا يقول المملوكُ ربِّي ورَبَّتي، ولكن يقول سيِّدي وسيِّدتي.

وكره مُطرِّف بن عبد اللّه، قولَ القائل للكلب: اللّهُمَّ أخْزه.

وكره عِمران بن الحُصين، أن يقولَ الرَّجلُ لصاحبه: أنَعمَ اللّهُ بك عيناً؛ ولا أنعَمَ اللّهُ بك عيناً، وقد كرهوا أشياءَ ممَّا جاءت في الروايات لا تُعرَف وجوهها، فرأيُ أصحابنا: لا يكرهونها، ولا نستطيع الردَّ عليهم، ولم نسمع لهم في ذلك أكثرَ من الكراهة، ولو كانوا يروون الأمورَ مع عللها وبرهاناتها خَفَّت المؤنة، ولكنّ أكثر الروايات مجرّدة، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دونَ حكاية العلة، ودون الإخبار عن البرهان، وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدةً واحدة، قال ابن مسعود وأبو هريرة: لا تسمُّوا العِنَب الكَرْم؛ فإنَّ الكَرمَ هو الرجلُ المسلم.

وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وأمَّا قوله: لا تسُبُّوا الدَّهرَ فـإنَّ الـدهر هـو اللّـه فمـا أحسـن مـا فسَّر ذلك عبد الرحمن بن مهديّ قال: وجهُ هذا عندَنا، أنَّ القوم قالوا: "وَمَا يُهْلِكنَا إلاَّ الدَّهْرُ" فلما قـال القـوم ذلـك، قـال النـبيّ صلى الله عليه وسلم: ذلك اللّه، يعني أنَّ الذي أهلك القرونَ هو اللّه عزّ وجلَّ، فتوهم منـه المتـوهِّم أنَّـه إنَّمـا أوقـع الكلام علـى الـــــــــــــــــــــــــــــدهر.

وقال يونس: وكما غلطوا في قول النبي صلى الله عليـه وسـلم لحسَّان: قُلْ ومَعَك رُوح القُدُس فقـالوا: قـال النـبي صـلى اللـه عليه وسلم لحسَّان: قُلْ ومَعَـك جِبريـل؛ لأنَّ روح القـدس أيضـاً من أسماءِ جبريل، ألا ترى أنّ موسى قال: ليتَ أنّ رُوحَ اللّه مع كلّ أحد، وهو يريد العصمة والتوفيق، والنصارى تقـول للمتنبِّـي: معه روح دكـالا، ومعـه روح سـيفرت، وتقـول اليهـود: معـه روح بَعلزَبـول، يريـدون شـيطاناً، فـإذا كـان نبيـاً قـالوا: روحـه روح القدس، وروحه روح اللّه، وقال اللّه عـزَّ وجـلّ: "وَكَـذلِكَ أَوْحَيْنَـا إلَيْـــــكَ رُوحــــاً مِـــــنْ أَمْرِنَــــا"، يعنـــــي القـــــرآن.

وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سُهيل وبَـرُد الليـل، فكـره ذلـك وقال: إنّ سهيلاً لم يأتِ بحـرٍّ ولا بـبردٍ قـطُّ، ولهـذا الكلام مجـازٌ

ومـــــذهب، وقـــــد كـــــره الحســـــنُ كمـــــا تـــــرى.
وكره مالك بن أنس أن يقولَ الرجُلُ للغيم والسحابة: ما أخلقهـا للمطر وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنـس، كـأنّهم مـن خوفهم عليهم العودَ في شيءٍ من أمـر الجاهليّـة، احتـاطوا فـي أمــورهم، فمنعــوهم مــن الكلام الــذي فيــه أدنــى متعلّــق.
ورووا أنّ ابنَ عبَّاسٍ قـال: لا تقولـوا والـذي خَـاتَمه علـى فمـي، فإِنَّما يختِم اللّه عزّ وجلّ على فم الكـافر، وكـره قـولهم: قـوس قُزَح، وقال: قزح شـيطان، وإنَّمـا ذهبـوا إلـى التعرِيـج والتلـوين، كأنّه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، وكان أحَبَّ أن يقال قوس اللّه، فيرفع من قـدره، كمـا يقـال بيـت اللّـه، وزُوَّار اللّـه، وأرض اللّـــــه، وســــــماء اللّـــــه، وأســــــد اللّـــــه.
وقالت عائشة رضي اللّه عنهـا: قولـوا لرسـول اللّـه صـلى اللـه عليه وسلم خاتَم النبيين، ولا تقولوا: لا نَبيَّ بعده فإلاّ تكنْ ذهبـتْ إلى نـزول المسـيح فمـا أعـرف لـه وجهـاً إلاّ أن تكُـون قـالت لا تغيِّروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكـم، والفِظـوا بمثلـه سـواء.
وكره ابن عمر رضي اللّه عنهما قول القائـل: أسـلمت فـي كـذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلاّ لِلّه عزّ وجــلَّ، وهـذا الكلام مجـازُه

عنـد النـاس سـهل، وقـد كرهـه ابـنُ عمـر، وهـو أعلـم بـذلك. وكره ابنُ عبَّـاسٍ رضـي اللّـه عنهمـا قـولَ القائـل: أنـا كسـلان. وقـــــال عمـــــــر: لا تســـــــمُّوا الطريـــــــق السِّـــــكَّةَ. وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جِنازة، وقـال: قـل تبِعـت جنازة، كأنّهُ ذهب إلى أنّه عنى أنّـه كـان فـي جوفهـا، وقـال قـل تبعت جنازة، والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم، وقد كرهه أبو العالية، وهي عنـدي شـبيهٌ بقـول مـن كـره أن يقـول: أعطاني فلان نصف درهم، وقال: إذا قلت: كيف تكيـل الـدقيق؟ فليس جوابه أن تقول: القَفِيز بدُنَينير، ولكـن يتنـاول القفيـز ثـم يكيل به الدقيق، ويقول: هكذا الكيلة وهذا من القول مسخوط . وكره ابن عبَّـاس قـول القائـل: النـاس قـد انصـرفوا، يريـد مـن الصلاة، قال بل قولوا: قد قَضَوُا الصلاة، وقد فرَغوا من الصـلاة، وقد صلَّوْا؛ لقوله: "ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ"، قال: وكلام الناس: كان ذلك حين انصرفنا مـن الجنـازة، وقـد انصـرفوا مـن السُّوق، وانصرف الخليفـة، وصـرف الخليفـةُ النـاسَ مـن الـدار اليومَ بخير، وكنت في أوَّل المنصرفين، وقد كرهـه ابـن عبّـاس، ولو أخبرونا بعلّتِه انتفعنا بذلك. وكـره حَـبيب بـن أبـي ثـابت، أن

يقال للحائض طامِث، وكره مجاهد قول القائل: دخل رمضان، وذهب رمضان، وقال: قولوا شهر رمضان، فلعلّ رمضان اسم من أسماء اللّه تعالى.

قال أبو إسحاق: إنما أتى من قِبل قوله تعالى: "شَهْرُ رَمَضَان الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقرْآنُ" فقد قال الناس يوم التَّروية، ويوم عَرَفة ولم يقولوا عرفة.

رأي النظّام في طائفة من المفسرين وصور من تكلفهم.

كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسِّرين، وإن نصَبوا أنفسَهم للعامَّة، وأجابوا في كلِّ مسألة؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلَّما كان المفسِّر أغربَ عندَهم كان أحبَّ إليهم، وليكن عندكم عِكْرِمةُ، والكلبيُّ، والسُّدّي، والضَّحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصمّ، في سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله عزَّ وجلّ: "وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلّهِ": إنّ اللّه عزّ وجلَّ لم يعن بهذا الكلام مساجدَنا التي نصلِّي فيها، بل إنَّما عنَى الجبَاهَ وكل ما سجد الناس عليه: من يدٍ ورجلٍ، وَجَبْهَةٍ وأنفٍ وثَفِنَة، وقالوا في قوله تعالى: "أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إلَى الإبِلِ كَيْفَ

خُلِقَتْ": إنَّه ليس يَعني الجمـال والنُّـوقَ، وإنَّمـا يَعنـي السـحاب.

وإذَا سُئلوا عن قوله: "وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" قـالُوا: الطلـح هـو المـوز.

وجعلوا الدليلَ على أنَّ شهر رمضانَ قد كان فرضـاً علـى جميـع الأمم وأنّ الناس غيَّروه، قولَهُ تعالى: "كُتبَ عَلَيْكُمُ الصِّـيَامُ كَمَـا كُتـــــبَ عَلَـــــى الَّـــــذِينَ مِـــــنْ قَبْلِكُـــــمْ".

وقـالوا فـي قـوله تعـالى: "رَبِّ لِـمَ حَشَـرْتَنِي أَعْمَـى وَقَـدْ كُنْـتُ بَصِـــيراً" قـــالوا: يعنـــي أنّـــه حَشَـــرَهُ بِلاَ حجَّـــة.

وقالوا في قوله تعالى: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ": الويل وادٍ فـي جهنـم، ثم قَعَدُوا يصِفون ذلك الـوادي، ومعنـى الويـل فـي كلام العـرب معروف، وكيف كان في الجاهليَّة قبل الإسلام، وهـو مـن أشـهر كلامهـــم.

وسئلوا عن قوله تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِـرَبِّ الْفَلَـقِ" قـالوا: الفَلَـق: وادٍ في جهنم، ثمَّ قعدوا يصِفونه، وقال آخرون: الفلق: المِقْطَرة بلغـــــــــــــــــــــــــة اليمـــــــــــــــــــــــــن.

وقال آخرون في قوله تعالى: "عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً" قالوا: أخطأ من وصَلَ بعض هذه الكلمة ببعض، قالوا: وإنَّما هـي: سَـلْ سبيلاً إليها يا محمد، فـإن كـان كمـا قـالوا فـأين معنـى تسـمَّى،

وعلـى أيِّ شـيءٍ وقـع قـوله تسـمَّى فتسـمَّى مـاذا، ومـا ذلـك الشيء؟ وقالوا في قوله تعـالى: "وَقَـالُوا لجُلُـودِهِمْ لِـمَ شَـهِدْتُمْ عَلَيْنَا" قالوا الجلود كناية عن الفروج، كـأنه كـان لا يَـرَى أنّ كلام الجِلـــــــد مـــــــن أعجـــــــب العجـــــــب.

وقالوا في قوله تعالى: "كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعامَ": إِنّ هـذا إنَّمـا كـان كنايةً عن الغائط، كأنه لا يرى أنّ في الجوع وما ينـال أهلَـه مـن الذِّلَّة والعجزِ والفاقة، وأنّه ليـس فـي الحاجـة إلـى الغـذاءِ - مـا يُكتَفَى بِه في الدِّلالـة علـى أنّهمـا مخلوقـان، حتّـى يـدَّعيَ علـى الكلام ويـــدّعي لـــه شـــيئاً قـــد أغنـــاه اللّـــه تعـــالى عنـــه.

وقالوا في قوله تعـالى: "وَثيَابَـكَ فَطَهِّـر": إنّـه إنمـا عنَـى قلبـه.

ومن أعجب التأويل قول اللِّحياني: الجبّار من الرجال يكون على وجوه: يكون جبّاراً في الضِّخَم والقوَّة، فتـأوّل قـوله تعـالى: "إنّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ" قال: ويكون جبَّاراً علـى معنـى قتّـالاً، وتـأوّل في ذلك: "وَإِذَا بَطَشْتمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ"، وقـولَه لموسـى عليـه السـلام: : "إنْ تُرِيـدُ إلاّ أَنْ تَكُـونَ جَبَّـاراً فـي الأَرْضِ" أي قتَّـالاً بغيرحقّ، والجبارُ: المتكبِّر عن عبادة اللّه تعالى، وتأوَّل قوله عـزَّ وجلَّ: "وَلَمْ يَكُنْ جَبَّـاراً عَصِيّاً"، وتـأوّلَ فـي ذلـكَ قـول عيسـى:

"وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقيّاً" أي لم يجعلْني متكبِّراً عن عبادته، قال: الجبَّار: المسلَّط القاهر، وقال: وهو قوله: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ" أي مسلّط فتقهرهم على الإسلام، والجبَّار: اللّه. وتأوَّل أيضاً الخوف على وجوهٍ، ولو وجدَه في ألفِ مكانٍ لقال: والخوفُ على ألف وجه، وكذلك الجبَّار، وهذا كلّه يرجِع إلى معنًى واحد؛ إلاّ أنّه لا يجوز أن يوصَف به إلاّ اللّه عزّ وجلَّ. تكلف بعض القضاة في أحكامهم وقال رجل لعُبيد اللّه بن الحسن القاضي: إنّ أبي أوصى بثُلث مالِه في الحصون، قال: اذهبْ فاشترِ به خيلاً، فقال الرجل: إنّه إنَّما ذَكَر الحصون قال: أما سمعتَ قول الأسْعَر الجُعْفِيّ:

علمت على تجنُّبيَ ... أنّ الحصونَ الخيلُ لا مَدَرُ القُرَى

فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنّه ما قيل للمدن والحصون حصون إلاّ على التشبيه بالخيل.

وخبَّرني النُّوشِرْوانيّ قال: قلت للحسن القاضي: أوصي جدّي بثلث ماله لأولاده، وأنا من أولاده، قال: ليس لك شيء، قلت: ولِم؟ قال: أو ما سمعت قول الشاعر:

بنو أبنائِنا وبناتُنا ... بنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ

قال: فسكوت ذلك إلى فلان فزادني شرًّا.

وقالوا في قوله: مَا سَاءَكَ ونَاءَك: ناءك، أبعدك، قالوا: وساءك أبرصك، قال: لقوله تعالى: "تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ"، وبئس التكلُّف.

وقال ابن قميئة:

أثقال إذا هي أعْرَضـت على الأصل لا يَسطِيعُها المتكلِّفُ

وقـال اللّـه وهـو يخـبر عـن نـبيِّه صـلى اللـه عليـه وسـلم: "وَمَـا أَنَـا مِـنَ المُتَكَلِّفِيـنَ". وليـس يُــؤْتَى القــوم إلاَّ مــن الطمــع، ومــن شــدَّةِ إعجــابهم بــالغريب مــن التأويــل. رأي في أبي حنيفة وسئل حَفص بن غِياث، عن فقه أبي حنيفة، فقال: أعلم الناس بما لم يكـنْ، وأجهـلُ النـاس بمـا كـان. وقالوا في قوله تعالى: "ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيـم" قـالوا: النعيـم: المـاءُ الحـارُّ فـي الشـتاء، والبـارد فـي الصـيف. الصَّرورة ومن الأسماء المحدَثة التي قامت مقامَ الأسماء الجاهليَّة، قولهم في الإسلام لمـنْ لـم يحـجّ: صَـرورة. وأنتَ إذا قرأتَ أشعارَ الجاهليَّة وجدتَهم قد وضعوا هذا الاسمَ على خلافِ هذا الموضع، قـال ابـن مَقرومٍ الضَّبّيّ:

عَرَضَتْ لأَشْمَطَ رَاهبٍ عَبدَ الإله صَرُورةٍ مُتَبَـتِّـلِ
لبَهْجَتِها وحُسْنِ حَدِيثِـهـا ولَهَمَّ من تامُورِه بـتـنَـزُّلِ

والصرورة عندهم إذا كانَ أرفعَ الناسِ في مراتـب العبـادة، وهـو اليومَ اسمٌ للذي لم يَحجَّ إمّا لعجزٍ، وإمَّا لتضييعٍ، وإمَّا لإنكار، فهمـا مختلفان كما ترى.

ألفاظ القرآن الكريم

فـإِذا كـانت العـرب يشـتقُّون كلامـاً مـن كلامهـم وأسـماءً مـن أسمائهم، واللغة عاريّة في أيديهم ممَّن خلقَهم ومكَّنهـم وألهمهـم وعلَّمهم، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس؛ فالذي أعـارهمْ

هذه النِّعمةَ أحقُّ بالاشتقاق وأوجبُ طاعةً، وكما أنَّ له أن يبتدئَ الأسماءَ؛ فكذلك له أن يبتدئها ممَّا أَحَبَّ،، قد سمَّى كتابَه المنزلَ قرآناً، وهذا الاسم لم يكنْ حتى كان، وجعل السجودَ للشمس كفراً، فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلاّ وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً، والترك للشيء لا يكون إلاّ بالجارحة التي كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان، وتكون بدلاً منه وعَقِباً، فواحدةٌ أن يسمَّى السجود كفراً، وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كان شركاً، والسجود ليس بجَحْد، والجحد ليس بإشراك إلاَّ أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكاً.

ما اشتق من نباح الكلابِ وما قيل من الشعر فيه

وقال طُفيل الغَنَوِيّ:

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مقامةٍ ولم ترَ نَارًا تِمَّ حَولٍ مجرَّم

وإنَّما أُخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب.

وذكروا أن الظَّبيَ إذا أسنَّ ونبتَتْ لقرونه شُعَبٌ نَبَح، وهو قول أبي دُؤاد:

وقُصرَى شَنِجِ الأَنْسَا ءِ نبَّاح من الشعب

يعني من جهة الشعب؛ وأنشد بعضهم:

بينَ الشعبِ نبحاً كأنّه سَلُوقِ أَبصَرَتْ مَا يُرِيبها
الهُزْلِ المسوِّدُ غَيْرَها ابيضَّ عن حَمْضِ المراحم نِيبُها

لأن الظّبيَ إذا هزل ابيضّ، والبعير يَشِيب وجهَه من أكل الحَمْض، وكذلك قال ابن لَجَأ:

ولمَّا تَدْنُ من ذَكَائها

كما قال الآخر:

حمضاً فالوُجُوه شِيبُ شَرِبن حتى نزح القَلِيبُ

وقد تصير النَّاقة الحمراء إذا أتمَّت حبشيّة، ولذلك قال الشاعر:

لا حَبَشيّة الإتمام

وما أشبه ذلك بقول العَبديّ:

وداويتُها حتَّى شتَتْ حَبَشِيَّةً كأنَّ عليها سُنْدُسَاً وسَدُوسا

والدَّواء: اللبن، فلذلك تصير الفرس إذا ألقت شعرها وطرّت، تستديل هذا اللون.

وقال خالد بن الصقْعب النَّهديّ:

بعدَ عهدِك بَطْنُ خَبْتٍ تَظَلُّ حمامُه مثلَ الخُصُومِ
عرينَ أيكَتِه تَلاَقَى به جَمْعَانِ من نَبَطٍ ورُومِ
الهدْهدِ الحَوْلِيِّ فيه الكَلْبِ في الأنَس المقُيمِ

ويقال إنَّ الهدهد ينبَحُ، وربَّما جعلوا الهُدْهُدَ، الذي ينبح، الحمامَ الذكر، قال الشاعر - وهو يصف الحمام الذَّكَرَ كيف يصنع فيها:

استترن أرَنَّ فيها هُدهُدٌ مِثْلُ المَدَاكِ خَضَبْتَهُ بِجِسادِ

وقال طُفيل في النُّبوح والمجاعات:

وأشْعَث تَزْهَاه النُّبوح مُدَفَّعٍ عن الزَّادِ ممَّا جَلّف الدهرُ مُحْثَلِ

وقال الجعديّ:

دَنونا لصَوتِ النُّباح وَلا نُبْصِرُ الحيِّ إلاّ التماسَا

وقال ابن عبدل:

إذ آليتُ مجتهداً ورفعتُ صَوتاً ما به بَحَحُ
يُدْرِكُ الشعراءُ منزلَتي الشعر إنْ سكَتَوا وإنْ نَبَحُوا

وقال عمرو بن كلثوم:

هَرَّتْ كلابُ الحَيِّ مِنَّا وشَدَّ بِنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا

وقال بعض العلماءِ: كلاب الحيّ شعراؤهم، وهم الذين ينبحون دونَهم، ويحمون أعراضَهم، وقال آخـــــــرون: إن كلابَ الحَـــــــيِّ كـــــــلُّ عقـــــــورٍ، وكـــــــلُّ ذي عُيـــــــون أربـــــــع.

وأما قوله:

ما خَشِيتُ على أُبَيٍّ رِماحَ بني مقيِّدَةِ الحمِـارِ
خَشِيت عـلـى أُبَـيٍّ رِمَاحَ الجنّ أو إيَّاكَ حارِ

فالطَّواعين هـي عنـد العـرب رمـاح الجـن، وفـي الحـديث: إنَّ الطـاعونَ وخْـز مِـنَ الشـيطان.

وقال أبو سلمى:

للسُّودَد من أرماحِ ومن سفيهٍ دائمِ النُّبـاحِ
عَدِيدٍ يُتَّقَى بالرَّاحِ

وقال الأعشى:

أيَّامِ لَنَا نعْـرِفُـهَـا هَرَّ كلبُ النَّاسِ فيها ونَبَحْ
الأحْلاَمِ في مجلسِهمْ كلَّما كَلْبٌ من الناسِ نَبَحْ

وقال:

كلبي جاهداً مِن ورائكموأغنى غَنَائي عنكُم أن أُؤنَّبا

وقال أبو ذؤيب:

هَرَّها كَلبِي ليبعد تعْرها ولو نَبَحَتْنِي بالشَّكاةِ كلابُها

كلابها: شعراؤها، وهو قول بشر بن أبي خازم:

والـشَّـكـاةَ لآلِ لأمٍ كذاتِ الضِّغْنِ تَمشي في الرِّفاقِ

وقال أبو زُبَيْد:

تَرَني سكَّنْتُ لأياً كـلابَـهُـمْوكفكفت عنكم أكلُبِي وَهي عُقّرُ

هجاء ضروب من الحيوان

قال صاحب الكلب: قد علمنا أنّكم تتبَّعتم على الكلب كلَّ شـيءٍ هُجِـي بـه، وجعلتـم ذلـك دليلاً على سقوط قدْره وعلى لؤم طبعه؛ وقد رأينا الشعراءَ قد هَجَوا الأصناف كلّها، فلَمْ يُفلـت منهـم إنسان ولا سبع، ولا بهيمةٌ ولا طائر ولا هَمَـج ولا حشَـرة، ولا رفيـع مـن النـاس ولا وضـيع، إلاّ أن

يَسلم بعضُ ذلك عليهم بالخمول، فكفاك بالخمول دِقَّةً ولُؤماً وقِلَّة ونَذالة، وقال أميَّة بن أبي عائذ لإياس بن سهم:

إياساً أَنَّ عِرضَ ابنِ أُختِكمْ … رِداؤُك فاصطَنْ حسنه أو تبذَّلِ
تكُ ذا طَوْلٍ فإني ابنُ أُختكم … ابنِ أختٍ من نَدَى الخالِ مغتلِي
أسداً أو ثعلباً أو شبيهَه … فمهما تكنْ أُنسَبْ إليك وأُشكلِ
ثعلبٌ إلاَّ ابن أختِ ثُعالةٍ … وإنَّ ابنَ أختِ اللَّيثِ رِيبالُ أشبُلِ
تجد الآسادَ أخوالَ ثعلبٍ … كانت الهيجا تَلوذُ بمدخلِ

فهذا من الثعلب، وقال مزرّد بن ضرار:

كناز اللَّحمِ من بَكَراتِكمْ الذي ألقى فناؤُك … تهرُّ عليها أمُّكُمْ وتكالب لتقريَه بالثْ عليه الثعالبُ

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفاك به نذالة،

قال ابن هرمة:

عادت بذي يَمَن رُؤوساً السَّوءِ تنطَحُ من خلاها … ولا ضَرَّت لفرقتها نِزارَا وتَرْأَمُ من يُحِدُّ لها الشِّفَارا

وهذا قول الشاعر في العنز، وقال ابن أحمر:

وجدْنَا بني سهْمٍ وجامِلَهمْ … كالعنْزِ تَعْطِف رَوقيها فترتَضِعُ

وقال الفرزدق:

حينَ لم أترك على الأرضِ … نابحاً إلا استقرَّ عَقُورها
نُقَيع إذ هجاني لأهْلِكِ … كباحثةٍ عن مُدْيةٍ تستثيرُها

فهذا قولهم في العنز، ولا نعلم في الأرض أقلَّ شرّاً ولا أكثر خيراً من شاة.

وقال الخُرَيميُّ:

لَلرجال لقومٍ قد مَلِـلـتُـهـم أرى جِوارَهمُ إحدى البـلـيَّات
رضيع وخِنزير تُعارِضُها عَقارِبٌ وُجِنَتْ وَجْناً بِـحَـيَّاتِ
ظنُّكم بأناس خَيْرُ كسبـهـمُ السُّحتِ سمَّوه الأَمَانات

فهـــــــذا قـــــــولهم فـــــــي العقـــــــارب والحيَّـــــــاتِ والضِّـــــــباع والخنـــــــازير.

وقال حماد عَجْردٍ في بَشَّار:

في حُبِّي غزالةَ شاغِلٌ للقرد عن شَتْمي وفي ثوْبَانِ
سميعةَ أُختِها وشِرادِها لمجونها مع سِفْلة المُجّـانِ
ضيق عرسه وركوبها شرّ البِغاءِ بأوكَسِ الأثمـانِ

هذا قول حماد في القرد، وقال حمَّاد في بشَّار بن بُرد أيضاً:

مَعاذَ اللّهِ لسـتُ بـقـاذِفٍ قِرِيئاً لـسـوَّاق لِـقَـومٍ نـوائحِ
قلتُ في الأعمى لِجَهلٍ ولكِنْ بأمرٍ بـيِّنٍ لـيَ واضـحِ

سأُعرِضُ صحفاً عن حُصينٍ ولست عن القِرد ابن بَرْدٍ بصافِحِ

وقال الآخر:

أتيت ابنَي يزيدَ بن خَثْعَـمٍ القردَ والخنْزيرَ مُحتَبِيانِ
بيوتِ القومِ من آل خَثْعَمٍ وراءَ قَبِيحاتِ الوجوه بطـانِ

وقال العتَّابي:

لِقِرْد السَّوءِ في زَمَانِه وإن تَلقَّاكَ بِخَـنْـزَوانِـه
سيَّما ما دام في سلطانه

وقال أبو الشمقمق:

رِياحَ اللُّؤم من شـحِّـه يَطمَعُ الخنزير في سَلْحِهِ
قُفل ضلّ مِفـتـاحـهُ قد يَئِس الحدَّاد مِن فَتْـحِـهِ

وقال خلف بن خليفة:

فسبحانَ من رِزقُه واسعٍ يَعُمُّ به القِرْدَ والقِـرْدَهْ

وهذا كثير، ولعمري لو جُمِع كلُّه لكان مثلَ هِجـاء النـاس للكلـب،

وكذلك لو جمع جميعُ ما مُدِح به الأسدُ فما دُونه، والأمثالُ السائرةُ

التي وقعت في حَمد هذه الأشياء، لَمَا كانتْ كلُّها في مقدارِ مديـح الكلب، فهذه حُجَّتُنَا في مَرتبةِ الكلب على جميع السباع والبهـائِم.

ولما قال معبدٌ في قتل الكلـب، وتلا قـول اللّـه عـزَّ وجـلَّ: "وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إلـىَ الأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِـكَ مَثَـلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فاقْصُـصِ الْقَصَـصَ"، قـال أبـو إسـحاق: وإن كنتَ إنَّما جعلتَ الكلب شرّ الخلق بهذه العلَّة، فقد قال علــى نسق هذا الكلام: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْـسِ لَهُـمْ قَلُـوبٌ لاَ يَفْقَهُـونَ بِهَـا وَلَهُـمْ أَعْيُـنٌ لاَ يُبْصِـرُونَ بِهَـا وَلهُـمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُون بِهَا أُولئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ"، فالذي قـال فـي الإبـل والبقَر والغنَم أعظـم، فَأَسْـقِطْ مـن أقـدارها بقـدر معنـى الكلام، وأدنى ذلك أن تُشرِك بين الجميع في الذمّ فإنَّك متى أنصفتَ فـي هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تُنْصِفها في تتبُّع ما لها مـن الأشـعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبَّعت ما عليها.

الشرف والخمول في القبائل

وقال صاحب الكلب: سنضرب مثلاً بيننا يكون عَـدلاً: إذا اسـتوى القبِيلان فـي تقـادم الميلاد ثـم كـان أحـد الأبـوين كـثير الـذرء والفُرسـان والحكمـاءِ والأجـواد والشـعراء، وكـثيرَ السـادات فـي العشائر، وكثيرَ الرؤساء في الأرجَاء وكان الآخر قليل الذَّرء والعدد، ولم يكن فيهم خيـر كـثيرٌ ولا شر كثير، خملوا أو دخلوا في غمار العرب، وغَرِقُوا فـي معظـم النـاس، وكـانوا مـن المغمـورين ومن المنسيِّينَ، فسَلموا من ضروب الهجاء ومن أكثرِ ذلك، وسلموا مـن أنْ يُضـرَبَ بهـم المثـل في قِلَّةٍ ونذالـة إذا لـم يكـن شرٌّ، وكـان محلُّهـم مـن القلـوب محـلّ مـن لا يَغْبِط الشـعراءُ، ولا يحسدهم الأكفاءُ؛ وكانوا كما قال حُميد بن ثور:

إذا جَاوزتما أرْضَ عـامرٍ وجاوزتُما الحيَّينِ نهْداً وَخَثْعَمَـا
من جَرْمِ بن رَبَّـانِ أَبَوْا أن يُرِيقوا في الهَزاهِز مِحْجما

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذّرْءُ وكان فيهم خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كـثيرٌ، ومثالِب ومناقب، ولم يَسلَموا من أن يُهجَوا ويُضْـرَبَ بهـم المثـل، ولعلَّ أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة، وأمثال تسـير على ألسنة العلماء، فيصيرُ حينئذٍ مـن لا خيـر فيـه ولا شـرَّ، أمْثـلَ حالاً في العامَّة، ممَّن فيه الفضلُ الكثيرُ وبعضُ النقص، ولا سـيَّما إذا جاوَروا من يأكُلهم وحالَفوا من لا ينصفهم، كمـا لقيـت غَنِـيّ أو باهلـة.

ولو أنَّ عبْساً أقامت في بني عامر ضِعفَ ما أقامت؛ لذهب شَطْرُ شرفها؛ ولكنَّ قيسَ بن زُهير لمَّا رأى دلائل الشـرِّ قـال لأصـحابه: الـذلُّ فـي بنـي غَطفَـان خيـر مـن العـزِّ فـي بنـي عـامر.

وقد يكون القوم حُلولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضْلهم عليهم حَسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتدَّ ذلك عليهم وتعاظَمَهم، بأكثر من قدره، فَدَعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم، فإذا صاروا إلى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم، فوقَ الذي كانوا فيه من بني أعمامهم، حتى يدْعُوَهم ذلك إلى النَّدم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرُّجوع، حميةً واتقاء، ومخافَة أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه، وإلى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومِن شدَّة الصَّولة عليهم.

بكل وادٍ بنو سعد

وقد خرج الأضبَط بن قُريع السَّعْدِيُّ من بني سعد، فجاوَزَ ناساً، فلما رأى مذْهَبهم وظُلمهم ونَهْكهم، قال: بكلِّ وادٍ بَنُو سعد، فأرسلها مثلاً. وقد كان عبَّاس بن ريطة الرِّعلي سيِّد بني سُليم، وقد ناله ضيم في بعض الأمر، فأبى الضَّيم، فلما حاولَ مفارقتَهم إلى بني غَنْم عزَّ عَلَيْهِ فقال في كلمة له:

تُزْجِي التؤام لبَعْلِها أخِيكم كزَّةُ الرِّحْم عاقِرُ

وزعموا أنَّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر، وخبَّر عن هذه القصّة في يومٍ من أيامه، فدمعت عينُه، فحلف شُبَيل بن عَزرة بالطلاق: إنَّه لَعَرَبيٌّ في الحقيقة لغِيَّةٍ أو لرِشْدة 6 -! قبائل في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة فمن القبائل

المتقادمة الميلاد التي في شِطرها خير كثير، وفي الشطر الآخر شرف وضَعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان، ومثل فزارة ومرَّة وثعلبة، ومثل عبس وعبد اللّه بن غطفان، ثم غَنِيّ وباهلة، واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر في عَبس وذبيان، والمبتلى والملقَّى والمحروم والمظلوم، مثل باهلة وغنيّ، ممّا لقيت من صوائب سهام الشعراء، وحتَّى كأنَّهم آلة لمدارج الأقدام، ينكب فيها كلُّ ساعٍ، ويعثُر بها كلُّ ماش، وربّما ذكروا اليَعسوب والطفاوة، وهاربة البقعاء وأَشجَع الخنثى ببعض الذِّكر، وذلك مشهور في خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورَهم، وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلاَّ بغنيٍّ وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب، حتى صار من لاخير فيه ولا شرَّ عنده أحسنَ حالاً ممَّن فيه الخير الكثير وبعض الشرّ، وصار مثلهم كما قال الشاعر:

نَدَى طَلْحَةِ الطّلْحَات بِبُخْل أشْعثَ واستَثْبِتْ وكُنْ حكما

خُزاعة من لؤم ومِن ولا تعُدَّ لها لؤماً ولا كرما

وقد ظرف في شعره فظلم خُزاعةَ ظُلماً عبقريّاً.

وقال في مثل ذلك الأشعر الرَّقَبان الأسديّ:

بحسْبِك في القوْمِ أن يعْلموا | بأنّك فيهم غنيٌّ مُـضِـرّ
مليخ كلحْم الحُـوَارِ | فلا أنت حُلْوٌ ولا أنت مُرّ

وكما قال الشاعر في علباءَ بن حبيب حيث يقول:

العِلباء كالْعِلْبَاءِ | لا حلـوٌ ولا مُـرُّ
من بني الجارو | دِ لا خيرٌ ولا شـرُّ

فهـــــــذا ونحـــــــوه مـــــــن أشـــــــدِّ الهجـــــاءِ.

والخمـول اسـمٌ لجميـع أصـناف النَّقْـصِ كلِّهـا أو عامَّتهـا، ولكنَّـه كالسَّرْو عند العلمـاء، وليـس ينفعـك العامَّـةُ إذا ضـرّتك الخاصَّـة.

ومن هذا الضرب تميم بن مرّ، وثـور وعُكـل، وتيـم ومزينـة، ففـي عُكل وتيم ومزَينة من الشرف والفضل، مـا ليـس فـي ثـور، وقـد سلِم ثور إلاَّ من الشيء اليسير، مما لا يرويه إلاَّ العلماء، ثم حلَّت البليَّةُ وركَدَ الشرُّ، والتحف الهجاء على عُكْل وتيم، وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً، ولكنَّهم حبَّبهم إلى المسلمين قاطبةً ما تهيأ لهـم مـن الإسلام، حين قلّ حظٌّ تيم فيه، وقد نالوا من ضبَّة، مع ما في ضبَّة من الخصال الشريفة؛ لأنَّ الأبَ متى نقـص ولَـدُه فـي العـدد عـن ولد أخيه فقـد ركبهـم الآخَـرون بكـلِّ عظيمـة، حـتى يـروا تسـليمَ المرباع إليهم حظّاً، والسير تحت اللـواء، والحمـل علـى أمـوالهم في النوائب؛ حتَّى ربَّما كانوا كالعضاريط والعُسَفاء، والأتباع، وفي الأتباع والدخلاء، ثم لا يجدون مـن ذلـك بـدّاً؛ كـأنهم مـتى امتنعـوا

خـــذَلوهم، فاســـتباحوهم، فـــرأوا أن النَّعمـــة أربـــحُ لهـــم.

وقد أعان غيلان على الأحنف بكلمة، فقال الأحنف: عبيدٌ في الجاهليَّة، أتباعٌ في الإسلام، فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاءً في البلاد، فصار حكمُهم حكم من درج، وحكمُ أبيهم كحكم من لم يُعقِب، وإذا هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من الذلّ والغرم.

الحِلْفُ عند العرب

والحِلْف ضربان: فأحدهما كانضمام عبس وضبَّة، وأسد وغطفان فإنَّ هؤلاءِ أقوياءُ لم يُنهكوا كما نُهِكت باهلة وغنيّ، لحاجةِ القوم إليهم، ولخشونة مسِّهم إن تذكّروا على حال؛ فقد لقِيت ضبَّةُ من سعدٍ، وعبسٌ من عامر، وأسدٌ من عيينة بن حصن ما لقُوا.

وقد رأيت مشقَّةَ ذلك على النابغة، وكيف كرِه خروج أسد من بني ذبيان.

وعيينةُ بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف، فإنَّ النابغةَ كان أحزم وأعقل.

وقد سلمت ثور وابتُليت عُكل وتيم، ولولا الربيع بن خُثَيم وسُفيان الثوري، لما علمت العامَّةُ أنَّ في العرب قبيلةً يقال لها ثور، ولَشَريفٌ واحدٌ ممَّن قَبَلت تيم أكثرُ من ثور وما ولد. وكذلك بَلْعَنبر، قد ابتُليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من الفُرسان والشُّعراء، ومن الزُّهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة والوُلاة، ومن نوادر الرِّجال إسلاميِّين وجاهليِّين. وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلاَّ الخمش والنُّتف. وربَّ قومٍ قد رضُوا بخُمولهم مع السلامة على العامَّة، فلا يشعرون حتَّى يصبَّ اللّه تعالى على قممِ رؤوسهم حجارةَ القذف، بأبياتٍ يسيِّرها شاعر، وسوطَ عذابٍ يسير به الراكبُ والمثل، كما قال الشاعر:

مَنَافاً فَقْحَةٌ لدارِم كما الظليمُ فَقْحَةُ البراجِمِ

وقال الشاعر:

الحُمْرَ مِنْ شَرِّ المطَايَا كما الحَبِطاتُ شرُّ بني تميمِ

فما الميسم في جِلد البعير، بأعلق من بعض الشعر.

أثر الشعر في نباهة القبيلة

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعَدد والفَعال، مثل نُميـر، يصـير أهلُـه إلى ما صارت إليه نُمير وغير نمير، فما ظنُّكَ بالظُّلَيم وبمناف وبالحَبِطات، وقد بلغ مضرَّةُ جريـر عليهم حيثُ قال:

الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابـا

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قَوْماً آخَرين:

وسَوفَ يزيدُكم ضَعةً هِجَائِي كما وضعَ الهِجاءُ بَنِي نُميْرِ

وحتّى قال أبو الرُّدَيْنيّ:

أَتُوعِدُنِي لِتَقْتُلَنِـي نُـمـيْرٌ مَتى قَتَلَتْ نُميْر مَنْ هَجَاهَا

بكاء العرب من الهجاء وذكر بعض من بكى منهـم لـذلك ولأمـر ما بكت العربُ بالدموع الغِزار من وقـعِ الهجـاءِ، وهـذا مـن أوَّل كرمها، كما بكى مخارقُ بن شِهاب، وكما بكى عَلقمة بن عُلاثــة، وكما بكى عبد اللّه بن جُدعان من بيتٍ لخـداش بـن زهيـر، ومـا زال يهجـوه مـن غيـر أن يكـون رآه، ولـو كـان رآه ورأى جمـاله وبهاءَه ونبله والذي يقع في النفوس مـن تفضـيله ومحبتـه ومـن إجلاله والرقة عليه أمسك، ألا ترى أن النَّبيت وغسَّان بـن مالـك بن عمرو بن تميم، ليـس يعرفهـم بـالعجز والقلَّـة إلاَّ دَغفـل بـن حنظلة، وإلاَّ النخَّار العُذريّ وإلا ابن الكيِّـس النمـريّ، وإلاَّ صُـحار العبـدي، وإلاَّ ابـن شَـرِيَّة وأبـو السَّـطَّاح وأشـباههم ومـن شـابه طريقهـم والاقتبـاس مـن مـواريثهم، وقـد سـلموا علـى العامـة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربي تميمـي، فهـو يعطـي

حقّ القوم في الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصّة، والحرمان أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعدّ وأجلد.

ما تبتلى به القبائل فيصيبها الخمول وبليَّة أخرى: أنْ يكون القبيلُ متقادِم الميلاد، قليل الذلة قليل السيادة، وتهيَّأ أن يصير في ولدِ إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلِّ من رآهم أو سمع بهم، أضعافُ الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتُلوا بشرف إخوتهم.

ومِنْ شؤم الإخوة أنّ شرفهم ضعةُ إخوتهم، ومن يُمن الأولاد أنّ شرفهم شرفُ من قَبْلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم: كعبد اللّه بن دارم وجرير بن دارم، فلو أنَّ الفُقَيم لم يناسب عبد اللّه بن دارم وكان جاراً، كان خيراً له.

ولقد ضعضعتْ قُريش - لما جاءتْ به من الخصال الشريفة التامّة؛ مِنْ أركان كنانة - سَنامَ الأرض وجبلها وعينَها التي تبصر بها، وأنفَها التي بها تعطس، فما ظنُّك بمن أبصر بني زيد بن عبد اللّه بن دارم، وبني نهشل بن دارم، وبني مجاشع بن دارم، ثمَّ رأى بني فقُيم بن جرير بن دارم؟ وكذلك كلُّ أخوَين إذا برَع

أحـدُهما وسـبق وعلا الرِّجـال؛ فـي الجـود والإفضـال، أو فـي الفُرُوسة أو فـي البيـان، فـإِن كـان الآخـر وسَـطاً مـن الرجـال، قصدُوا بحسن مـآثره فـي الطبقـة السـفلى لتَبِيـن البراعـةُ فـي أخيه، فصارت قرابتـه الـتي كـانت مفخـرةً هـي الـتي بلغـت بـه أسفَل السافلين، وكـذلك عَنَـزَة بـن أسـد فـي ربيعـة، ولـو كـان سودد ربيعة مرَّةً في عَنَزَة ومرّة في ضُبَيعة أضْجَمَ، لكـان خيـراً لهـم اليـوم، ولـودَّ كـثير مـن هـؤلاءِ القبائـل الـتي سـلمت علـى الشعراءِ أو على العوامِّ أن يكون فيهم شَـطْرُ مـا للعنَزِيِّيـن مـن الشرف، ولو أنَّ الناس وازنوا بيـن خصـال هـذه القبائـل خيرهـا وشـــــــــــرِّها لكـــــــــــانوا سَـــــــــــوَاءً.

وقال صاحب الكلب: ذكـرتَ عيـوبَ الكلـب فقلـتَ: الكلـب إذا كان في الدار مَحَق أُجُور أهل الدَّار حتى يأتيَ على أقصـاها، لأنَّ الأجور إذ أُخِذ منها كلَّ يوم وزنَ قيراط، والقيراط مثل أحـد، لـم يلبث على ذلك أن يأتيَ علـى آخرهـا، وقلـتَ: فـي الكلـب أشـدُّ الأذى على الجـار والضـيف والـدخيل، يمنعـه النَّـومَ ليلاً والقائلَـة نهاراً، وأن يسمَعَ الحديث، ثمّ الذي على سامع النُّباح من المؤنـة مـــــــــــن الصــــــــــوت الشــــــــــديد.

ولو لم يكن في الكلب ما يؤذي بشدَّة صـوتِه إلاَّ بإدامـة مجاوبـة الكلاب لكـان فـي ذلـك ممّـا ينغِّـص العيـش، ويمنـع مـن الكلام والحـــــــديث.

شعر في النبـاح والاسـتنباح وقـال أرطـأة بـن سُـهَيّة فـي بعـض افتخاره:

لَقَوَّام إلى الضّيف موهنـا إذا أغدف السِّترَ البخيلُ المواكلُ
فأجابَتْـهُ كـلاب كَـثِـيرَةٌ على ثقةٍ منِّي بما أنا فـاعـلُ
دونَ ضيفي من تلادٍ تحوزُه لضيف إلاَّ أنْ تُصانَ الحَلائِلُ

وقال ابن هَرْمة:

ومستنبحٍ نبَّهتُ كلبـي لـصـوتِـهِ وقلتْ له قُمْ في اليَفَاع فـجَـاوِبِ
خَفِيّ الصوتِ قد مسَّهُ بضرْبةِ مسنونِ الغِراريْن قاضِـبِ
فرحَّبت واستبشرت حتَّى بسطـتـهُ التي ألقَى بـهـا كـلَّ آئبِ

وقال آخر:

عليه وهو يَكْعمُ كلبَـهُ الكلب يَنْبحْ إنَّما الكلبُ نابحُ

وقال مزرِّد بن ضرار:

غلاماً أَتَّقى الذمَّ بـالـقِـرى إذا ضاف ضيف من فَزارةَ راغبُ
آبَ سارٍ أسمَعَ الكلبَ دون نَبْحِ الكلبِ والكلـب دائبُ

وقال بشَّار بنُ برْد:

اللّه القِباب بتلِّ عبدي وبالشرقين أَيَّامَ القِـبـابِ
لنا قَصُرَتْ وطالتْ على فُرعان نائمَةَ الكلابِ

وقال رجل من بني عبد اللّه بن غَطفان:

لم تستَبْقِ وُدَّ صـحـابةٍ   دَخن أكثرت بثَّ المعاتِبِ
لأستبقي امرأ السَّوءِ عُدَّةً عِرِّيضٍ من الناس جانبِ
كلابَ الأبعدين ونبحهَـا   لم تجاوِبْها كلابُ الأقـارِب

وقال أُحيحة بن الجُلاح:

أحْسَنَ الجِيدَ من مُليكةَ واللبَّاتِ إذ زانها تـرائبُـهـا
ليتني لـيلة إذَا هـجـع النَّاسُ ونامَ الكلابُ صاحبُهـا

وقلتَ: وفي الكلب قذارةٌ في نفسه، وإقـذاره أهلـه لكـثرة سُلاحه وبـوله، على أنّـهُ لا يرضـى بالسُّـلاح علـى السـطوح، حتَّـى يحفـر بـبراثنه وينقـب بأظـافره، وفـي ذلـك التخريـب. ولو لم يكن إلاّ أنّهُ يكون سبب الوكف، وفي الوكف من منع النَّوم ومن إفساد حُـرِّ المتـاع، مـا لا يخفى مكانه، مع ما فيه من عضِّ الصبيان وتفزيع الوِلدان، وشقِّ الثياب، والتعرُّض لـلـزوّار؛ ومـع ما في خلقه أيضاً من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه ورجْمه وتهييجه بالعبث، ويكون سبباً لعقْرهـم والوثـوبِ عليهـم.

وقلت: وبئس الشيء هو في الدار، وفيها الحُـرَم والأزواج، والسَّـراريُّ والحظِيّـات المعشـوقات؛ وذلك أن ذَكَره أَيَرُّ ظاهر الحجم، وهو إما مُقْبَع وإمّا قـائم، وليـس معـه مـا يـواريه، وربمـا أَشَظَّ وأنعَظ بحضرتهنَّ، ولعلّهنَّ يكنَّ مُغِيباتٍ أو محتاجاتٍ إلى ما يحتاج إليه النساءُ عـند غيبـة فحلهـنّ، وإذا عجـزَ عـن أن يَعُمَّهـن.

وفد قرحان وقد رمى ضابئُ بن الحارث البُرجُمـيُّ أمّ أنـاس مـن العـرب، أنّ الكلـب الـذي كـان يسمَّى قُرْحان، كان يأتي أمَّهم، حتَّى استعدَوا عليه، وحبسه في ذلك عثمان بنُ عفّان رضي اللّه تعالى عنه، ولولا أنّ المعنى الذي رماهم به كان ممـا يكـون ويجـوز ويُخـافُ مثلُـه، لَمـا بلـغ منـه عثمانُ ما بلغ، حتّى مات في حبسه، وفي ذلك يقول ضابئ ابن الحارث:

نَحوي وَفْدُ قُرحانَ شُقَّةًظَلَّ بها الوَجناءُ وهي حَسِيرُ
فزوّدتُهم كلباً فراحوا كأنمـا   حَباهم بتَاجِ الهرمزان أميـرُ
لا تتركوها وكلبَـكـم   فإنَّ عقوقَ الوالداتِ كـبـيرُ
عَتَّتَتْ من آخر الليل   له فوقَ السرِيرِ هَرِيرُ

قصص تتعلق بالكلاب

وزعم اليقطريُّ أنّهُ أبصرَ رجلاً يكُومُ كلبةً من كِلاب الرعاء، ومرَّ بذلك الزُّبِّ العظيمِ في ثفرها - والثَّفرُ منها ومن السبع، كالحِرِ من المرأة والظَّبْية من الأتان والحِجر، والحياء من الناقة والشاة - فزعم أنّها لم تعقِد عليه، ولا ندري أمكّنته أم اغتصبَها نفسَها.

وأمّا النَّاس ففي مُلح أحاديثهم: أَنّ رجلاً أشرفَ على رجل وقد ناك كلبةً فعقَدت عليه، فبقي أسيراً مستخْزِياً يدور معها حيث دارت، قال: فصاح به الرجل: اضربْ جَنبَيها، فأطلقته، فرفَعَ رأسه إليه، فقال: أخزاه اللّه أيُّ نيَّاكِ كلْباتٍ هو.

وخبّرني من لا أردُّ خبره، أنّه أشرفَ من سطحٍ له قصير الحائط، فإذا هو بسَوادٍ في ظلِّ القمر في أصل حائط، وإذا أنينُ كلبة، فرأى رأسَ إنسان يدخل في القمر، ثم يرجع إلى موضعه من ظِلّ القمر، فتأمّل في ذلك فإِذا هو بحارس ينيك كلبة، قال: فرجمتُه وأعلمته أنِّي قد رأيتُه، فصبَّحني من الغد يقرَع الباب عليّ، فقلت له: ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ فلقد ظننتُ أنّك

ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري، قال: جُعِلتُ فِداك، أسألك أن تستُر عليّ، ستَرَ اللّه عليك، وأنا أتوب على يديك قال: قلت ويلَك، فما اشتهيتَ مِن كلبة؟ قال: جُعلت فداك، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل، فهو ينيك إناثَ الكلاب إذْ كنَّ عِظامَ الأجسام، قال: فقلت: فما يخاف أن تعضَّه؟ قال: لو رَامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتتْ معه فأدخلها في كِسائه في ليالي البرد والمطر، لما تركته، وعلى أنَّه إن أراد أن يوعبه كلَّه لم تستقرّ له، قال: ونسيتُ أنْ أسألَه: فهل تعقِد على أُيور النّاسِ كما تعقِد على أيور الكلاب؟ فلقيته بعدَ ثلاثين سنة، فقال: لا أدري لعلَّها لا تعقد عليه، لأَنَّهُ لا يُدْخِلُهُ فيها إلى أصله، لعلّ ذلك أيضاً إنَّما هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة، فإِذا اختلفا لم يقع الالتحام، قال:فقلتُ: فَطَيِّبٌ هو؟ قال: قد نكْت عامَّة إنَاث الحيوانات فوجدتُهُنَّ كلَّهنَّ أطيَبَ من النساء، قلتُ: وكيف ذلك؟ قال: ما ذاك إلاّ لشدَّة الحرارة، قال: فطال الحديث حتى أَنِس فقلتُ له: فإذا دار الماء في صُلْبك وقرُبَ الفراغ؟ قال: فربَّما التزمتُ الكلبةَ وأهوَيت إلى تقبيلها، ثم قال: أمَا إنَّ الكلابَ أطيبُ شيءٍ

أفواهاً، وأعذَبُ شيءٍ رِيقاً؛ ولكن لا يمكن أنْ أنيكها من قُدَّامٍ، ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلف وثَنيتُ رأسَها إلى أنْ أقبِّلها، لم آمَنْ أنْ تظنَّ بي أني أريدُ غيرَ ذلك فتُكدِّم فمي ووجهي، قال فقلت: فإنِّي أسألُك بالذي يستُرُ عليك، هل نَزَعت عن هذا العمل مُنْذُ أعطيتَني صفقةَ يدِك بالتَّوبة؟ قال: ربَّما حنَنتُ إلى ذلك فَأَحتبسُ بعهدك.

قال: وقلتُ: وإنَّك لتحنُّ إليها؟ قال: واللّه إني لأَحِنُّ إليها، ولقد تَزَوَّجتُ بعدَك امرأتين، ولي منهما رجالٌ ونساء، ومن تعوّد شيئاً لم يكد يصبِرُ عنه قال: فقلت له: هل تَعرف اليومَ في الحُرّاس مَن ينيك الكلبات؟ قال: نعم، خذ محموَيه الأحمر، وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحَمّاميّ فإنّ فارساً كان حارساً وكان قيِّم حَمّام، وكان حَلَقيّاً، فزعم أنّه ناكَ الكلابَ خمسين سنة، وشاخ وهُزِلَ وقبُح وتشنَّج، حتّى كان لا يُنيكه أحد، قال: فلم يزَلْ يحتالُ لكلب عندَه حتى ناكه، قال: وكان معه بخير حتَّى قتله اللصوص، ثمَّ أشرفَ على فارِسٍ، هذا المحتسِبُ الأحدبُ، وهو ينيك كلبةً فرماه بحجر فدمَغَه، قال: فالكلاب كما ترى تُتَّهم بالنساءِ، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيءٌ

أحقّ بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها، ونحن مـن السـباع العادِيَة الوحشيَّة في راحة، إلاّ في الفَرْط فـإنّ لهـا عُرامـاً علـى بعض الماشية، وجنايةً على شـرار العامَّـة وكـذلك البهـائم، ومـا عسى أن يبلغ من وطْءِ بعيـر ونطـح كبـش، أو خمـش سِـنّورٍ أو رَمْح حمار، ولعلّ ذلك يكون في الـدهر المـرّةَ والمرّتيـن، ولعـلَّ ذلك أيضاً لا ينـال إلاَّ عبـداً أو خادمـاً أو سائسـاً، وذلـك محتَمـل، فالكلاب مع هذه الآفات شركاءُ الناس في دورهم وأهاليهم. قال صاحب الكلب: إنْ كنتم إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون، وإلـى قَشـرِ طِين السطوح بالبراثن تميلون، وإلى نتن السُّلاح وقذَر المـأكول والمشروب تقصدون، فالسِّنَّورُ أكثر فـي ذلـك، وقـد رويتـم عـن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أنّه قال: هُنَّ مِنَ الطَّوَّافاتِ عليكم، فإِذا كان ذلك في السـنانير مغتفـراً، لانتفـاعهم بهـا فـي أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثرُ، وهي بالاعتقاد أحقّ، وفي إطلاق ذلـــك فـــي الســـنّور دليـــلٌ علـــى أنّـــه فـــي الكلاب أجْـــوَز. وأمَّا ما ذكرتم من إنعاظه، فلعمري إنّه ما ينبغي للغَيورِ أن يُقيم الفرسَ ولا البِرذونَ والبغلَ والحمارَ والتَّيس فـي المواضـع الـتي تراها النساءُ، والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً، وقد كرِه ناسٌ إدخال

منـازلهم الحمـامَ والدِّيكـةَ والـدجاج والبـطّ خاصـة؛ لأنّ لـه عنـد السفاد قضيباً يظهر، وكذلك التيس من الظباءِ، فضلاً عن تُيـوس الصفايا، فهذا المعنى الذي ذكرتمْ يجري في وجوهٍ كَثيرة وعلـى أنّ للحمام خاصَّـةً مـن الاستشـارة، والكَسْـم بالـذئب، والتقبيـل الذي ليس للناس مثلُه، ثمَّ التقبيل والتغزّل والتَّنفُّـش، والابتهـاج بما يكون منه بعدَ الفراغ، وركـوب الأنـثى للـذكر وعـدم إمكانهـا لغير ذكرهـا، مـا يكـونُ أهيـجَ للنسـاء ممَّـا ذكرتـم، فلـم أفردتـم الكلب بالذِّكر دونَ هذه الأمورِ، الـتي إذا عـاينت المـرأة غُرمُـولَ واحِدٍ منها، حقَرت بعلَها أو سيِّدَها، ولم يزل ظلُّ ذلـك الغرمـول يعارضها في النوم، وينبِّهها ساعةَ الغفلة، ويُحدِث لها التمنِّيَ لمـا لا تقدر عليه، والاحتقارَ لما تقدر عليه، وتركتم ذكر مـا هـو أجـلُّ وأعظمُ إلى ما هو أخسُّ وأصغر؟ فإنْ كنتم تذهَبون في التشـنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عنـد العَبـث والتعـرُّض، والتَّحَكـك والتهيِيج والتحريش، فلو أنّ الذي يأتي صبيانُكم إلى الكلب، مـن الإلحاح بأصنَاف العَبَث - والصِّبيانُ أقسى الخلْقِ وأقَلّهم رحمـةً - أنْزَلُوهُ بالأحنف ابن قيـس، وقيـس بـن عاصـم، بـل بحـاجب بـن زُرارة وحِصـن بـن حُذَيفـة، لخَرَجُـوا إلـى أقبَـحَ ممَّـا يخـرج إليـه

الكلب، ومَن ترك منهم الأخذَ فوق يدِ ابنـه، فهـو أحـقُّ باللائِمـة.

وبعد فما وجدْنَا كلباً وثبَ علـى صـبيٍّ فعقَـره مِـنْ تلقـاءِ نفسـه، وإنّه ليتردَّد عليه وهو في المهد، وهو لحمٌ على وضَم، فلا يشَـمُّه ولا يدنو منه، وهو أكثرُ خلقِ اللّه تعالى تشـمُّماً واسـترواحاً؛ ومـا في الأرضِ كلبٌ يلقى كلباً غريباً إلاَّ شمّ كـلُّ واحـدٍ منهمـا اسـتَ صـاحبِه، ولا فـي الأرضِ مَجوسـيٌّ يَمـوت فيُحْـزَن علـى مـوتِه ويحمل إلى الناوُوس إلاَّ بعد أن يُدنى منـه كلـبٌ يشَـمُّه، فـإنّه لا يخفى عليه في شمِّه عندَهم، أحيٌّ هو أم ميِّـتٌ؛ للطافَـةِ حِسِّـه، وأنّه لا يأكل الأحياءَ، فأمَّا اليهود فإنّهم يتعرَّفون ذلك من الميّـت، بأن يدهُنوا اسـتَه، ولـذلك قـال الشـاعر وهـو يرمـي ناسـاً بـدين اليهودية:

مات منهم ميِّتٌ مَسَحُوا بدُهنٍ وحَفُّوا حَوْلَـه بـقـرَام

جنايات الديك

وقالوا: فإذا ذكرتم جناياتٍ الكلاب، فواحـدٌ مـن جنايـات الدِّيَكـة أعظمُ من جنايات الكلاب؛ لأنّ عبد اللّه بن عثمان بن عفّان، ابنَ بنت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، إنَّما مات مـن نقْـرِ ديـكٍ

في دار عثمان، نقر عينه فكان سبَبَ موته، فقتْـلُ الـديك لِعثْـرة رسـول اللّـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، أعظـمُ مـن كـثيرٍ ممَّـا تســـــــــتعظمونَه مـــــــــــن جنايـــــــــــات الكلاب. وقد نقر ديـكٌ عيـنَ ابـن حَسَـكة بـن عَتَّـاب، أو عيـن ابـن أختـه. وقد نقر ديك عين ابن الريان بن أبـي المسـيح وهـو فـي المهـد فاعورّ، ثمَّ ضربته الحُمرة فمـات، ووثـبَ ديـك فطعـن بصِيصَـتِه عين بنتٍ لثُمامة بن أشـرس، قـال ثمامـة: فأتـاني الصّـريخ، فـو اللّه ما وصلتُ إليها حتى كَمد وجهُها كلُّه واسوَدَّ الأنفُ والوَجْنتان وغارت العينان، وكان شأنُ هذا الديك - فيما زعم ثمامة - عجبـاً من العجب: ذكر أنَّ رجلاً ذكر أنَّ ديكاً عند بقَّالٍ لهـم، يقاتـل بـه الكلاب، قال: فأتيتُ البقَّال الذي عنده فسألتُه عن الديك، فزعم أنَّه قد وجَّه به إلى قتال الكلاب، وقد تراهنوا في ذلك، فلم أبرحْ حتَّى اشتَرَيْتُهُ؛ وكنتُ أصونُه وجعلتـه فـي مَكَنّـة، فخرجـت يومـاً لبعض مصلحةٍ وأقبلت بنتي هذه لتنظر إليـه، فكـان هـذا جزائِـي منه. قال: وديكٌ آخر أقبل إلى رأس زيد بـن علـي، حتَّـى وطـئَ في ذؤابته ثمّ أقبَلَ ينقُرُ دِماغه وعينيه، فقال رجـل مـن قريـش، لمن حضر ذلك من الخدم:

اطردُوا الديكَ عن ذؤابة زيد   طالما كان لا تَطَاهُ الدَّجاجُ

نفع الكلب

والكلب إن كان كما يقول، فإنَّ له يداً تشجُّ وأخرى تأسُو، بل ما يدفَع اللّه بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثرُ وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول، والديك يفقأ العُيونَ وينقُر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشُجُّ ولا يأسو؛ فشرُّه صِرف وخيره ممزوج، إلاّ أنْ يزعموا أنّه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان، ومن عارض منافع الكلاب وحراستَها أموالَ الناس من اللصوص، ومنعَ السِّباع من الماشية، وموضعَ نفع الكلب في المزارع - وذلك عيان ونفعه عامٌّ وخطبه عظيم - بما يُدَّعَى من حراسة الدِّيكة للشيطان، لم يكايل ولم يُوازِن ولم يَعرف المقايسة، ولا وقَف قطُّ على معنَى المقابلة ودَلَّ بذلك على أنَّ مبلغَ رأيِه لا يجوز رأيَ النساء.

العواء وما قيل من الشعر فيه

ويكون العُواء للكلب والذئبِ والفصيل، وقال النابغة:

جارَكم فتركتموني   لِكلبي في دياركمُ عُواءُ

وقال الشاعر:

امرؤٌ لا تقشَعِـرُّ ذؤابـتـي   من الذئب يَعوِي والغرابِ المحجَّلِ

وقال الشاعر:

ومستَنْبِحٍ تَستَكشِطِ الرّيحُ   لِيَسقُطَ عنهُ وهو بالثَّوب مُعْصمُ

في سوادِ الليل بعدَ اعتسافِهِ   لينبَحَ كلـبٌ أو لـيفـزَعَ نُـوّمُ

مستسمِعُ الصوتِ   مع إتيان المُهبِّينَ مَطْـعَـمُ

إذا ما أبصر الضيفَ مُقْبِلاًيكلِّمهُ من حبِّهِ وَهـوَ أعـجَـمُ

وقال ذو الرُّمَّة:

الذئب محزوناً كأنَّ عواءَهعواءُ فصيل آخرَ الليلِ مُحتَلِ

وقال آخر:

طامـسـة أعـلامُـه   يَعوِي به الذئْبُ وتَزقُو هامُه

وقال عَقيل بن عُلّفة يهجو زبَّان بن منظور:

اللّهُ فـي قـومٍ يسـودهـمُ   ذئبٌ عَوى وهو مشدود على كُـورِ

من مـازنٍ إلاَّ شـرارُهُـم   فوقَ الحصَى حولَ زبّان بنِ منظورِ

وقال غَيلان بن سلمة:

ومعرِّس حين العشاء بـه   الحبس فالأنواء فالعقـل

وهنـاً وأرّقـنـي   ذئب الفلاةِ كأنّـه جِـذلُ

يعوِي بقفـرتِـه   ولكلِّ صاحِب قفرةٍ شكلُ

جرداءَ يجزعـهـا   لَحِب يلوحُ كأنّه سَحْـلُ

وقال مغلّس بن لقيط:

منهُمُ ذئبٌ فطرَّب عـادياً   فعليات مُسْتَثَارٍ سخيمهـا

لم يلحَسْنَ من ذي   هُلِستْ أحسادُها ولحومُها

وقال الأحيمِرُ السعديُّ:

الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى

وصوَّتَ إنسان فكِدتُ أطيرُ وقال آخر:

عَوى واللّيْلُ مستحلس
زَحَفَتْ للغور تالية النَّجِم

وذلك أنّ الرجلَ إذا كانَ باغياً أو زائراً، أو ممَّن يلتمِس القرَى، ولم ير بالليل نَاراً، عوى ونبح، لتجيبَه الكلاب، فيهتدي بذلك إلى موضع الناس.

وقال الشاعر:

ومُستَنبِحٍ أهلَ الثَّرى يَلمَس
ومساه من الأَرض نازح

وقال عمرو بن الأهتم:

ومستنبحٍ بعد الهدُوِّ دعوتُه
وقد حانَ من سارِي الشِّتاءِ طروق

فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب.

ما قالوا في أنس الكلب وإلفه

وقال صاحب الكلب: وممّا قالوا في أنْس الكلب وإلفه، وحبِّه لأهله ولمن أحسَنَ إليه قول ابن الطّثريّة:

عمرو أنجِزِي الموعودوارعَيْ بذاكِ أمانةً وعُهُودا
طرقْتُ كلابَ أهلِكِ بالضُّحَى
حتَّى تركتُ عُقُورَهُنَّ رُقُودا
بالأذنابِ مِن فرحٍ بنامتوسِّداتٍ أذرُعاً وخدودا

وقال الآخر:

كُنْتُ أحمِلُ خمراً يومَ
يُنكِرِ الكلبُ أنِّي صاحب الدَّارِ
أتيتُ ورِيحُ المِسكِ يفعمني
والعنبرُ الوَرْدُ أُذكيه على النار
الكلب ريحي حين
وكان يعرف ريح الزِّقِّ والقار

أبصرني

وقال أبو الطّمَحان القينيّ في الإلف، وهو يمدح مالك بن حمـار الشَمْخي:

سأمدَحُ مالكاً في كلِّ رَكـب لقيتُهـمُ وأتـركُ كـلَّ رَذْلِ
والبكارَةُ من مخاضٍ عِظامٍ جِلَّةٍ سُـدُسٍ وبُـزْلِ
عرَفَتْ كلابُهمُ ثـيابـي كأنّي منهمُ ونسيتُ أهـلـي
بكِ من بني شَمْخٍ زِنَـادٌ ما شئتَ مِن فرعٍ وأصلِ

وقال الشاعر في أَنَس الكلاب وإلفها، يَذكر رجلاً

بتَسْواقِ العِشارِ ورَعْيِها ولكنْ بتَلْقَامِ الثَّـرِيدِ رفـيقُ
يظَلُّ الكلب يمضَغْ ثَوبَه في ديارِ الغانياتِ طَرِيق

وقال الآخر:

الحويرثُ والكـلاب تَـشَـمُّـه وسَرت بأبيضَ كالهلال على الطَّوَى

وقال ذو الرمة:

كلابُ الحي حتَّى ألِفنَـنـي ومُدَّت نُسوج العنكبوت على رحلي

وقال حسَّان بن ثابت:

جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبـيهـمُ ابْنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ
الوجوهِ نقيَّةٌ حُجزاتُـهـمْ الأنُوفِ من الطِّرازِ الأوَّلِ
يُغشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابـهـم يَسَألونَ عن السّوادِ المقبِـلِ

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

بيتك في مَـعـلـمٍ رَحِيب المَبَاءةِ والمسْـرحِ
العُفاةَ طِلاَبَ القِـرَى ونَبْحَ الكلابِ لمستَـنْـبِـحِ
دَعْس آثَارِ تلك المطيِّ أخادِيدَ كاللَّـقـم الأفـيَحِ
كنْتَ في نـفـق زائغ لكُنْتَ على الشرك الأوضَحِ

وفي مثل ذلك، وليس في ذكـر إلـف الكلاب، ولكِنَّـه ممـا ينبغـي أن يكـون مجموعـاً إلـى هـذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة، قال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت:

الغاباتُ مُنـتـواكَ ولـكـنْ   ذُرَى مُشْرِفِ القُصورِ ذرَاكا

وقال البزّار الحلّيّ، في المعنى الأول:

الناسَ فما ينبَـحُـهُـمْ   أسيف يبتغي الخيرَ وحُرّ

وقال عِمران بن عصام:

العزِيزِ على قَـوْمِـه   وغَيرهِمُ مِنَنٌ غَـامِـرَهْ
ألـينُ أبـوابـهـم   ودارُك آهـلـةٌ عـامـرهْ
آنس بالمعـتـفِـين   من الأُمِّ بابنتها الـزَّائرهْ
حين ترى السائلـي   أندَى من اللَّيلةِ الماطرهْ
العَطاءُ ومنَّا الثَّنَاءُ   بكلِّ مـحـبَّـرةٍ سـائرهْ

وقال هلال بن خثعم:

لَعَفٌّ عن زيارة جـارَتـي   وإنِّي لَمشْنوءٌ إليّ اغتـيابُـهـا
غابَ عنها بعلِها لم أكنْ لهـا   زؤوراً ولم تأنَسْ إليَّ كلابُهـا
بالدَّارِي أَحاديثَ سِرِّهـا   عالِمِ مِنْ أيِّ حوكٍ ثِيابُهـا
قِرَابَ البطنِ يكفيك مِلؤهُ   ويكفيك سوءَات الأمور اجتنابُها

وقال حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبد اللّه، ويكنـى أبـا سَفَّانة، وكان أسـره ثـوب ابـن شَحمة العنبريّ مُجير الطير:

بخيلُ النَّاس هَـرَّتْ   وشَقّ على الضَّيفِ الغريبِ عَقُورُها
جبانُ الكلب بـيتـي مـوطَّـأٌ   جَواد إذا ما النَّفسُ شَحَّ ضميرُها
كلابي قـد أُقِـرَّت وعُـوِّدت   على مَن يعتريها هَـريرُهـا

هجو الناس بهجو كلابهم

وقال صاحب الكلب: إنّ كثيراً من هجاءِ الكلب، ليس يراد به الكلب، وإنَّما يراد به هِجَاءُ رجلٍ، فيجعل الكلب وُصلةً في الكلام ليبلغ ما يريدُ من شتمه، وهذا أيضاً مما يرتفق الناسُ به من أسباب الكلاب، ولذلك قال االشاعر:

دونِ سَيبك لونُ ليل مظلمٍ   وحَفيف نافجةٍ وكلب مُوسَدُ

محتمل عليك ضغـينةومُسِيفُ قومِك لائم لا يَحمَـدُ

والضّيفُ عِنْدَكَ مثلُ أسودَ
بلْ أحبُّهما إلـيك الأَسـودُ

فهذا قول الشاعر، وقال الآخر:

فيَّ مِن عيبٍ فإنِّـي جَبَانُ الكلبِ مَهْزولُ الفصيلِ

فهو لم يردْ مدحَ الكلب بالجبن، وإنَّمَا أراد نفسه حين قال:

وحفيف نافجة وكلب موسد

فإن كان الكلبُ إنما أسرَه أهلُه، فإنَّما اللوْم على من أسرَه، وإنما هذا الضَّرب كقوله:

إذا استنبَحَ الأَضيافُ كلبهمُقالوا لأُمِّهمُ بُولي على النَّارِ

ومعلـــــــوم أنّ هـــــــذا لا يكـــــــون، ولكـــــــن حقَّـــــــر أمرهـــــــم وصـــــــغَّرهم.

وقال ابن هَرْمة:

تنوَّرَ طارِق مستنبِح
نبحَتْ فَدَلَّتْهُ عليّ كلابي

وقال ابن مهية:

الخيلَ من شُعَبَى تَشَكَّىحوافِرَها الدوابرَ والنُّسـورا

أنْ طَلَعن بعين جـعـديوأهل الجوف أن قتلوا غرورا

يكُ كلبُهم ليفـيق حـتَّـى
يُهارِشَ كلبُهم كلباً عَـقـورا

ومعلوم أنَّ هذا لا يكون، إنما هو مثل، وقال أعرابيّ:

ثقةٍ قَدْ يحسبُ المجدَ
إلى أهله أو ذِمَّةً لا تُـخَـفَّـرُ

إلى كلبِ الكريمِ نبـاحُـه إلى الكوماءِ والكلبُ أبصَرُ

وقال ابن هَرْمة:

من كلابِ الحيِّ يتبَعُها
يَزِفُّ به الداعِي وتَرعِيبُ

فهذا قول هؤلاءِ، وقال الآخر:

عليه وهو يَكعَمُ كلبَـه
الكلبَ يَنْبَحْ إنَّما الكلبُ نابحُ

وقال الآخر:

كلبَ الحيِّ مِن خَشيةِ
كالعَذْراءِ مِنْ دُونها سِتْرُ

وقال أعشى بني تغلب:

احتلَّت معاوية بن عمرو على الأطواء خَنَّقَتِ الكلابا

فالكلب مرَّةً مكعوم، ومرّة مخنوق، ومرّة مُوسَد ومحرَّش،ومرةً يجعله جباناً، ومـرّةً وثّابـاً، كمـا

قال الراعي في الحطيئة:

اللّـه الـحـطـيئةَ إنّـه كلِّ ضيفٍ ضافَه فهو سالحُ
إليه وهو يخنقُ كـلـبَـه الكلبَ ينبَحْ إنَّما الكلبُ نابـحُ

وقال أعشى بني تغلب:

على زادٍ خبيثٍ قرِيتَـه كلُّ عَبْسيٍّ على الزادِ نابحُ

وقال الفرزدق:

تنزع الأضياف إلاّ إلى فتًى أبَى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا

وقال الآخر:

الكلبَ ينبَحْ إنَّما الكلبُ نابحُ

وقال الآخر:

كلبٍ لا أبا لَكَ نابحُ

وقال الفرزدق:

أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقَدَا

ومتى صار الكلب يأبى النباح؟ فهذَا على أنّهم يتشفّون بذكر الكلب، ويرتَفِقُـونَ بـه، لا علـى أنّ

هذا الأمرَ الذي ذكروه قد كانَ على الحقيقة: وقال الآخر، وهو جرير:

كنت في نَجْرَانَ أو بِعَمَايةٍ إذن لأَتاني من رَبيعة راكبُ
الكلابَ آخرَ اللّيلِ وَطؤُهكضَبِّ العَرادِ خَطْوُه متقارِبُ
يُمنِّينَا الربيعَ وصَـوْبَـه ويَنْظُرُ من لُقَّاعةٍ وهو كاذب

فذكر تقارُبَ خطوه، وإخفاءَ حركته، وأنَّه مع ذلك قد أثـار الكلاب مـن آخـر الليـل، وذلـك وقـت

نومهـا وراحتهـا، وهـذا يـدلُّ علـى تيقُّظهـا ودِقَّـة حسِّـها.

وفيما ذكروا مِن حالة الكلب لسبب القرى من البرد، والذي يلقى، وكيف الشأن فـي ذلـك، قـال

أعشى باهلة:

الكلبَ مُبْيَضُّ الصَّقِيعِ بِهِ الحيَّ من تنفاحه الحُجَـرُ

وقال الحطيئة:

أجْحر الكلبَ الصَّقِيعُ اتّقَيْنَه بأثباجِ لا خُورٍ ولا قَفِـراتِ

وقال ابن هَرْمة:

الجارَ والمعصِّب والأضياف وَهْناً إذا تحـبَّـوْا لـديّا

يَلْقوْنَني إذا نبَحَ الـكـلـب وراءَ الكُسُورِ نَبْحاً خَفِـيّا

الحالبُ الْمُبِسُّ إلى يَقرِ أصفرَ الحيّ ريّا

تَكُنْ خارجيَّةً من تـراثٍ، بل وَرِثتُ ذاكَ عَليَّا

وقال الأعشى:

بَـرْدَ رِداءِ الـعَـــرو في الصَّيْفِ رَقرقتَ فيه العبيرا

وتـسـخـن لـيلةَ لا يسـتَـطـي نُباحاً بها الكـلـب إلا هـريرا

وقال الهذلي:

يَصطَلي بالفَرثِ جازِرُها بالنَّقَرى المُثرِينَ داعيها

الكلبُ فيها غيرَ واحـدةٍ الشِّتاءِ ولا تَسرِي أفاعيهـا

وقال الفرزدق:

احمرَّ آفاقُ السَّماءِ وهَتَّكَـت بَيوتِ الحيِّ نَكْباءُ حرْجَفُ

قريعُ الشَّولِ قبلَ إفَالِـهـا وجاءَتْ خَلفَه وهي زُحَّفُ

وهتَّكَتِ الأطنـابَ كـلُّ ذِفـرَّةٍ تامكٌ من عاتق النَّيِّ أعرَفُ

راعيها الصَّلَى بلـبـانـه وكَفٍّ لحرِّ النار ما يتـحـرّفُ

كلبُ الحيِّ عن نارِ أهلِـه ليربِض فِيها والصِّلا متكـنَّـفُ

مبيَضُّ الصَّقيعِ كـأنّـه على سَرَوات النِّيبِ قُطْنٌ مُندَّفُ